الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الرسائل الجامعية

الجامعة الإسلامية بغزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

فلسطين

في شعر يوسف العظم

رؤية إسلامية وموقف من الصراع العربي الصهيوني

دراسة وتحليل

مكتبة الجامعة الإسلامية - غزة
المجموعات الخاصة
التاريخ: 16 -08- 2011
الرقم العام: 1244517
رمز التصنيف: 811.9564/م ر ت

إعداد الطالب
عبد الحميد مصطفى سعيد مرتجى

811.9564/م ر ت
1244517
مجموعات خاصة

إشراف
الأستاذ الدكتور / نبيل خالد أبو علي
أستاذ الأدب والنقد - الجامعة الإسلامية
نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

1430هـ - 2009م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

عمادة الدراسات العليا
هاتف داخلي: 1150

الرقم/ج س غ/35/..... Ref.
التاريخ/2009/04/02..... Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **عبد الحميد مصطفى سعيد مرتجى** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية** وموضوعها:

"فلسطين في شعر يوسف العظم–رؤية إسلامية وموقف من الصراع العربي الصهيوني"

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأربعاء 05 ربيع ثان 1430هـ، الموافق 2009/04/01م الساعة التاسعة صباحاً، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. نبيل أبو علي	**مشرفاً ورئيساً**	.....
د. كمال غنيم	**مناقشاً داخلياً**	.....
د. محمد كلاب	**مناقشاً داخلياً**	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/** قسم **اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد الدراسات العليا

د. زياد إبراهيم مقداد

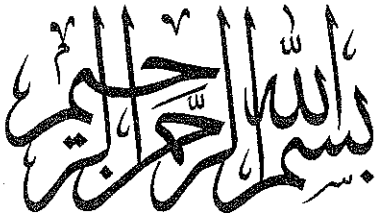
بسم الله الرحمن الرحيم

"وقفت شعري على دعوة الله والجهاد في فلسطين"

أ.د. يوسف العظم. رحمه الله

الإهـــــــداء

الى روح والدي ذاك الشيخ الكبير الوقور

إلى روح والدتي صاحبة الحس المرهف والقلب الكبير

إلى إخواني وأخواتي ولهم علي الكثير الكثير

إلى الزوج والأبناء /محمد

نور

عزالدين

إيمان

فلهم في القلب المكان الكبير

عبد الحميد مرتجى

وفاءً وعرفاناً

حمداً لله سياج النعم، والصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم وفاء الـذمم، واستمطار الرحمة على آله الأولياء، وأصحابه الأصفياء، عرفان الجميـل وتـذكار الـدليل، وبعد:

فقد أوفى لي حكم القادر باطلاع خبر وفاة العظم قدراً بلا تعمد، أصبته علـى تغيـر حال، وتبلبل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من الأعمال، فإذا هو شاعر مغوار، ومقاوم عنيـد جبار، فانطلقت بقلب مفتوح، وهمة وطموح إلى ذاك الكتاب المفتوح، والجبل الأشم الـسفوح أستاذي ومعلمي صاحب الفضل الساطع الوضوح الأستاذ الدكتور/ نبيل خالد أبو علـي، أدام الله عزه، ورفع قدره، وأحسن إليه، فكان كعادته الكريمة، وصولته في الشعر والنقد وخبرتـه العظيمة، نِعم المعلم والموجه فقد يسر لي طريق الوصول وسلامة الدخول إلـى ذاك النجـاح المأمول فالله تعالى نسأل لأستاذنا حسن الوفاء وخير الجزاء وجزيل العطاء، فجزاكم الله عنـا خيراً وعن جميع من علمت أستاذنا.

وإليك أهدي بيتين من الشعر :

منا سـلام يغتـدى ويـروح ... أرج كنفح المسك حين يفوح

يخص طلعتك البهيـة كلمـا ... ناحت مطوقة وهبـت ريـح

ثم أقول يا أستاذنا : إن كبير المقام قد أعجزعن فصيح الكلام.

شكر وتقدير

ولعل الشكر موصول إلى العَالِمين العلمين الذين تفضلا مشكورين بمناقشتي متكرمين بجزيل النصح والإرشاد فالله تعالى أسأل لهم حسن الوفاء؛

الدكتور/ كمال غنيم؛ حفظه الله.

الدكتور/ محمد كلاب؛ حفظه الله.

وكذلك إلى عميد كلية الآداب فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمود العامودي حفظه الله.

وإنَّ مَنْ أتشرف بذكرهم وشكرهم في هذا المقام، والداً كريماً، وأباً وقوراً، أحسن الله إليه وقدس روحه ورحمه ورحم والديه، على ما غمرني من عظيم الدعاء، وجزيل العطاء وصحيح التربية. وتلك الأم الرؤوم التي سبقته إلى جوار الله بالرحيل، أسأل لهما العلي القدير حسن القبول وقد حطا رحالهما في جنته وتحت ظل عرشه، فعلى روحهما الطاهرة أعظم الصلوات وأتم التسليمات.

كذلك أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى مَنْ يكبرني من الأخوات والإخوان، فلهم عليّ عظيم الفضل والإحسان، مبرقاً بأسمى آيات الشكر إلى الأخوين الكبيرين، لما لهما عليّ من عظيم فضل وإحسان.

ثم إلى التي شاركتني رحلة العمر ورحلة الدراسة، الزوجة الصابرة، المحسنة على ما قدمت وبذلت من جميل من وقت وجهد غير قليل.

كما وأشكر في هذا المقام أخاً كريماً ومتفضلاً عظيماً، أخصه بشكر وافر لتفضله بمراجعة البحث وإضفاء لمساته الواضحة عليه مما أكسبه هذه الحلة القشيبة، الأخ الفاضل الصهر/ خالد الهندي أبو مصعب حفظه الله وأدامه.

ثم إلى الزملاء الأعزاء والأصدقاء الفضلاء زمالة دفعتنا فقد كانت رحلة الدراسة معها لها طعم خاص مميز.

Palestine in Yousif El-Athem's Poetry
Islamic View and a Position towards the conflict between the Arabs And Zionists
Study and Analysis

Prepared by

Abdul-Hamid Mustafa Said Murtaja

Faculty of Arts-Arabic Department

The Islamic University – Gaza

Palestine

This study discusses Yousif El-Athem's poetry. He is considered one of the great poets of the Islamic da'awa and Jihad.

The researcher deals with attendance of Palestine in El-Athem's poetry through a prepared plan.

In addition, his viewpoints and position according to Islamic perspective purely.

He also highlights the characteristics of this great poet by exploring the hidden marks and messages in his poetry as one of the poets of resistance.

The researcher has reached that El-Athem's poetry is distinguished by many marks which show his lingual features and poetic experience as well.

Ultimately, the researcher has drawn a conclusion by directing the researchers towards poets of the da'awa especially who aren't appreciated well by study and analysis.

ملخص الدراسة

يتناول البحث – بالتحليل والدراسة – شعر أحد شعراء الدعوة الإسلامية الكبار، وأحد رموز الفكر والأدب الإسلامي، الذين زخرت أشعارهم بمعالم فكرهم، وترجموا ذلك شعراً يحمل رسالة دعوتهم، من لدن حسان رضي الله عنه حينما انبرى مدافعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته، فكان صوت الذين انتصروا من بعد ما ظلموا، في وجه الباطل وأهله، سَلَكَ شعراء الدعوة ذات السبيل، فامتطوا صهوة الشعر مدافعين منافحين عن كرامة الأمة التي امتهنت، ومقدساتها التي دنست وأعراضها التي انتهكت شأنهم في ذلك شأن أسلافهم من الشعراء والأدباء، فخاضوا بحور الشعر وميادين المقاومة والفكر بكل كفاءة واقتدار ولا غرور أن يكون العظم أحدهم، بل وفي مقدمتهم فهو أحد الذين أدرك الخلف فيهم السلف.

بدأ الباحث مشواره مبيناً حضور فلسطين في شعر العظم مستهلاً ذلك بما قاله عن النكبة التي حلت بالشعب والأرض والمقدسات، وكيف عبر العظم عنها من واقع المأساة، مصوراً بعض مشاهدها التي يندى لها جبين الإنسانية، وتفزع لها القلوب وتذهل عن فهمها الألباب .

ثم الموقف العربي الذي كان صفحة سوداء في تاريخ الزعامات العربية وما رزحت فيه تلك الزعامات من ذلة وهوان وصل إلى حد مشاركة العدو عدوانه عن قصد وتعمد وإصرار، والذي تعرض له العظم في غير قصيدة وديوان.

بعد ذلك أبرز الباحث رؤية العظم ورأيه في التحرير، وطموحه وحلمه في الخلاص مما أحاط الأمة وكبل إرادتها وصادر حقها معرجاً بعد ذلك على الجانب الفني والذي جاء مكملاً للجوانب السابقة حيث تحدثت عن أثر الالتزام في شعر العظم، وعوامل تشكيل تجربته الشعرية وبواعثها وصدقها وعناصرها، وكذلك لغة الشاعر التي كانت لبنات شعره وشكل بها الصورة الشعرية التي ميزت أعماله وأضفت عليها سمة البهاء والجمال والرصانة والقوة حاملة مضامين عالية ورسالة سامية ميزت العظم تجربة وصورة ولغة وأسلوباً فاستحق من خلالها لقب شاعر الأقصى.

ولعل أبرز ما نتج عن ذلك كله ما تمخض عنه البحث من نتائج سجلت لشعراء الدعوة الإسلامية ذاك السطوع والتميز وذاك الانتماء الصادق وتلك الروح العالية والطموح الراقي نحو عزة الأمة وصدق انتمائهم إليها وتصويرهم لواقعها بالصدق الذي لا تخالجه المبالغة أو المغالات مترفعين عن قاموس الشتم أو السباب دون أن تأخذهم في الله لومة لائم في الزجر أو اللوم أو العتاب في ظل ذاك الوضوح الذي لا تشوبه شائبة وكان العظم أبرز أولئك الشعراء وفي طليعتهم، ولعله تميز عن إخوانه بتلك الرؤية وذاك الموقف الذي سجله على صفحات أعماله وصدر به دواوينه وعنون به قصائده، فصدق بذلك فعله قوله.

فهرس

الإهـــــــداء ..... ج

وفاءً وعرفاناً ..... د

شكر وتقدير ..... ه

ملخص الدراسة ..... ز

فهرس ..... ح

الفصل الأول : نكبة فلسطين وتجلياتها في شعره 11

مشاهد النكبة وتشرد الشعب الفلسطيني : 12

نكبة الأقصى والمقدسات 16

الأقصى والمقدسات في ربقة المحتل 21

الفلسطيني تحت نير الاحتلال 26

المرأة في أتون النكبة 40

الفصل الثاني : الموقف العربي في ظل القضية الفلسطينية " موقف ورأي " 48

العرب والمسلمون في أجواء النكبة 49

الموقف العربي في ظل القضية الفلسطينية (موقف ورأي) 69

سلام أوسلو في ميزان الإسلام 76

التخاذل العربي والإسلامي من منظور الإسلام 79

الفصل الثالث : تحرير فلسطين – رؤيته ورأيه 83

الإعداد الإيماني للنشء 84

الجهاد وصور البطولة 98

الشهيد والشهادة 108

الفصل الرابع : الالتزام الإسلامي وأثره في عناصر الإبداع 119

تمهيد : 120

مفهوم الالتزام : 121

التجربة الشعرية والصدق الفني 124

انتماء للوطن : 124

الوطن الكبير (ديار الإسلام) : 128

فلسطين والأقصى : 133

نفحات الإيمان : 138
شموخ وعزة : 141
اللغة الشعرية والمعنى الإسلامي 144
المُعجم الشعري 147
المعجم الشعري عند العظم : 155
الصورة الشعرية وعناصرها ومصادرها 158
النتائج 168
المصادر والمراجع 174

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

يعد الشاعر د. يوسف العظم أحد أقطاب الحركة الإسلامية الراشدة، وعنوان من عناوين المقاومة وأحد كبار أدبائها وبارع شعرائها الذين حملوا هموماً وهموماً، فهم الدعوة، وهم المقاومة، وهم الإصلاح، وهم تربية النشء، لا يتصدر لها إلا الكبار ولا يقارع تفاصيلها إلا العظماء، فكانت أعماله تزرع في الشباب قيم الإسلام العظيم ومبادئ الخلق القويم، فتذكي فيهم روحاً من العزة والإباء كان حسان رافع لوائها وقادح زنادها رافضاً كل الرفض قبول الدنية بها.

يقول الدكتور يوسف العظم رحمه الله تعالى :

"إن رحاب الأقصى منطلق شعرنا اليوم، يوم كنا نلقى الأحبة، بين يدي منبر صلاح الدين واليوم وقد تحول المنبر رماداً ... وفي غد بإذن الله في عود ظافر ونصر مؤزر يوم يولد من يحمل الراية ويمضي قدماً ... في تواضع المؤمن وصدق المجاهد، لا يعرف النكوص ولا التولي يوم الزحف، وهو يرجو الله إحدى الحسنيين".

لا شك وأن أديباً ومفكراً داعية يخط ببنانه هذه الكلمات الوضيئة لهو كبير كبر القضية التي يكتب من أجلها، عظيم عظم الحلم الذي يراوده، ولا شك أنه جدير بالإجلال والاعتبار ولعل كلماته بما تحمل من مضامين في طياتها ورسائل بين أحرفها، لهي وحدها سبب لأن أتقدم بدراستها وتمحيص مفرداتها، إذ أنها تلخص بين ثناياها رسالة شعراء الدعوة الإسلامية جميعاً بل ورسالة الإسلام الخالد العظيم في عصر النكوص والتراجع.

إنها آمال الأمة وأحلام مخلصيها الذين ترنوا أعينهم نحو القدس، وتهفوا إليها قلوبهم وتأوي إليها أفئدتهم. ولا شك أن مبعث آمالهم، إيمانهم ببشرى الحبيب عن الفئة الغالبة التي هي في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس إنه الوعد الإلهي المنتظر، ولعلنا ممن أحاطتهم بركة الرحمن الذي بارك القدس وما حولها والتي منها نستمد شرف دراسة (شاعر الأقصى) والذي انتشر حبها في شعره انتشار الملح في الطعام.

نعم؛ إنها الرسالة الماجدة التي بدأ خطواتها حسان بن ثابت رضي الله عنه عندما نافح بشعره عن أقدس دعوة عرفتها البشرية فرفع قدر الشعر والشعراء وأعلى شأنهم وحلق في علياء المجد عالياً عالياً. فأرسى دعائم شعر الدعوة وشعرائها فكانت رسالة الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبـون وأي ظلم أكبر مما رمي به الأقصى الحبيب في حاضرنا.

فكان لا بد من الفداء ولا بد من التضحية وصدق الانتماء، فكانت فلسطين ودرتها في حياة العظم أنشودة وأغرودة ومحراب، ومنبر، والقدس كوكب ومذهب. والعظـم ولا ريـب شاعر غيور ملأت قلبه تلك النوازل آلاماً وأحزاناً ففلسطين ليست مجرد بقعة من أرض، ولا مجموعة أبنية ولا تجمعات قروية أو مدن سكنية، إن فلسطين قرآناً يتلى وصـلوات ترتـل، فلسطين مقدسات ومعجزات، فلسطين سيرة وعقيدة وإيمان، ملأت حياة المؤمنين أشجاناً على مر العصور والأحايين.

أجل كتب عن فلسطين أدباء كثر وشعراء، وتردد اسمها على ألسنة الوعاظ والخطباء وتحدث في شأنها الحكام والأمراء .. لكن قلة منهم فقط اقترن اسمهم باسمها، ورافق ذكـرهم ذكرها، وعرفوا بها وشغفهم حبها، اشتاقوا إليها وإليهم اشتاقت وتغنوا بحبها وبحـبهم تجلـت حتى إذا ما ذكروا ذكرت، وإذا ما تحدثوا لهم الأعناق اشرأبت والآذان شنفت ولهـم القلـوب رقت والمآقي استعبرت.

حمل العظم لواء المقاومة قولاً وفعلاً منافحاً مدافعاً عن حيـاض الإسـلام باللـسان والسنان وكان النزال وما زال يبدأ باللسان قبل السنان وكان وما زال أول الحرب الكلام.

فكانت للشعر ساحات ومنازلات، وللمبارزة الشعرية حلَق ومساحات وشاعرنا (شاعر الأقصى) ما توشح هذا اللقب من فراغ وما تقلده عن قليل حـق واسـتحقاق فالأقـصى فـي سويداء قلبه والقدس في محجر عينه ووجدانه وفي سائر أعماله وديوانه، فهـو ابـن حركـة أخذت على عاتقها مواصلة درب ذات الشوكة، وعلى خطا الأكرمين سار ركبهـا وتواصـل المسير. ـــ [illegible]

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن يفتتح (أبو جهاد) ديوانه الأول بنداء المحب المغـرم (يا قدس) مدللاً على شغف غير يسير بحب القدس وولع بفلسطين، نعم لقد ملأ حب الـدعوة عليه كيانه وفاض بها وجدانه، فكان شعره يلهب قلوب الشباب ويزيد ولعهم بفلسطين ويبعـث فيهم روح التضحية والفداء، مكبراً الشهداء، متمنياً اللحاق بركبهم فخلد ذكرهم وأعلى شـأنهم حتى طغت محبة فلسطين في قلبه على كل حب، وملأت عليه كل سبيل ودرب فعزف علـى أوتار قلب مولعاً بها للشباب أنشودة وللأشبال أغرودة وردد معه الكون كل الكون فلـسطيني فلسطيني فلسطيني ولكن في طريق الحق والإيمان والدين أهيم براية اليرموك أهـوى أخـت حطين.

هذا حلم العظم وهذا هيامه، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لهذا الشاعر العظيم الذي شمخ في علياء الأدب شاعراً للمقاومة في حين كان أقرانه من الشعراء يهيمون في عوالم أخرى ويحلمون أحلاماً مراهقة وأشعار تكتفي بالاستمتاع المادي الزائل.

ولم يحظ العظم بدراسة تفيه حقه، وتسبر أغوار شعره، وتقف على عظيم معانيه ومضامينه، فجاءت هذه الدراسة المتواضعة علها تضع المتلقي على شيء ولو يسير من تلك المعاني السامية الرفيعة والمقاصد العالية المنيعة.

أهمية الدراسة :

تضع الدراسة تحليلاً نقدياً لشعر شاعر عظيم من شعراء المقاومة لا ينفك ينادي بها في كل قصائده، مبيناً أسباب النصر التي غابت عن ناظري الأمة بعدما اعتراها ما اعتراها من تفرق وتشرذم فيضع العظم الوحدة الإسلامية نبراساً تهتدي به الأمة في ظلماء طريقها نحو النصر والتمكين.

ولعل شعراء الدعوة لم يوفوا حقوقهم من الدراسة النقدية لأشعارهم لسبب أو لآخر بل وأن شعرهم يكاد يغيب عن الأمة في سجون المكتبات كما غيّبوا فتأتي هذه الدراسة لتنفض عن هذه القمم الشامخة غبار النسيان وكبير التغيب والحرمان.

تأتي الدراسة تتويجاً لشعر شاعر عظيم اتسم بغزارة عطاء وتنوع نادر لموضوعات أضرب عنها الشعراء صفحاً لأسباب لست بصدد ذكرها فتناولها العظم مما أكسب شعره أهمية وبهاء وجمال مضمون وروعة بيان استحقت الدراسة والتحليل.

لقد قال العظم الشعر في كل شأن من شؤون حياته وشؤون أمته الإسلامية، وفي كل أمر من أمورها، يفرح لنجاحاتها ويأسى لإخفاقاتها، بل إن شعره مغموس بهموم الإسلام أينما كان، وخص فلسطين باهتمام عظيم، ومسجدها الأقصى باهتمام خاص، حتى دعي بشاعر الأقصى.[1]

كل ذلك وغيره أراه كافياً بأن تأخذ هذه الدراسة مكانها بين الدراسات النقدية ولعل مكانتها مستوحاة من مكانة مشاعرها وما ارتقى إليه من واسع الميادين الشعرية الكبرى التي لا يطيق منازلتها إلا الأفذاذ.

---

(1) أحمد الجدع : الأعمال الكاملة يوسف العظم، دار الضياء، 2003، ص 8.

أهداف الدراسة :

- تطلع الباحث في دراسته التي نحت منحاً وصفياً تحليلياً لإبراز حضور فلسطين في شعر العظم وإبراز رؤيته الإسلامية وموقفه الذي يمثل موقف شعراء الدعوة الإسلامية من قضية فلسطين.
- تسليط الضوء على هذا الجانب المشوق من جوانب شعر الشاعر والذي يحمل بين ثناياه كبير المعاني وعظيم المراتب التي دعا إليه الشاعر وأمثاله من شعراء الدعوة الإسلامية.
- إبراز جانب مهم من جوانب شعر العظم عبر عدة فصول من فصول البحث تتضمن حضور فلسطين، حال الأمة إبان الهزائم، المواقف العربية والمواقف المنشودة.
- تتعرض الدراسة لرؤية العظم ورأيه في التحرير والذي أولاه كبير اهتمام وعظيم المكان عبر رعاية النشء وحسن تربيتهم على القيم الإسلامية السامية وكذلك اهتمام العظم بالمرأة التي حضرت في أشعاره بقوة.
- رغب الباحث من خلال الدراسة إبراز موقف الشاعر من عملية السلام بين المسلمين وأعدائهم من منظور إسلامي بحت في ظل اتفاقية أثارت الكثير من الجدل بين مختلف الأوساط.
- تحرك الباحث نحو عناصر الإبداع في شعر العظم وتعرض لتجربته الشعرية وبواعثها، ولغته ورصانتها، والصورة الشعرية وعناصرها ليقف من خلال مفرداتها على صدق مضامين ما سبق وما برع الشاعر فيه من استخدام للغة ومفرداتها مع ما يخدم أفكاره واستنطاق عواطفه.

صعوبات واجهت الباحث :

لا جرم أن الله تعالى قيض للباحث أستاذاً ومشرفاً أعطى من العلم الكثير ومن سعة الصدر والصبر على تلميذه ما كان له كبير الأثر في تذليل كثير من العقبات والتي لن أذكرها، لكن هناك عقبات كانت خارج إرادته وفوق طاقته لمسها الجميع وتأثر بها.

1- ندرة المراجع ذات الصلة المباشرة بالموضوع وخاصة كتب الشاعر التي حاول الباحث الحصول عليها من الأردن الشقيق لكن ذلك تعذر عليه بسبب ظروف الحصار.
2- افتقار قطاعنا الحبيب إلى مكتبات عامة تضيف تنوعاً في الأوقات وأزمنة العمل مما قيد حرية الباحث بأوقات عمل مكتبة الجامعة وتعارض ذلك مع ظروف العمل وظروف الواقع الأليم.

منهاج الدراسة :

- اتبع الباحث في دراسته المنهج الوصفي التحليلي لما رآه مناسباً لتحقيق تفاصيل خطته التي وضعها، ولما لهذا المنهاج من قدرة على سبر أغوار الأشعار التي رآها في الديوان وتخدم ما يرنو إليه البحث.
- ولما لهذا المنهاج من قدرة عميقة وربط وثيق وعمق في تحقيق كل ما أراده الشاعر وتوافق مع خطة الباحث.

خطة البحث :

ويشتمل البحث على التالي :

المقدمة : وتشتمل على أهمية الدراسة وسبب اختيار الموضوع، وأهداف الدراسة والصعوبات التي واجهت الباحث.

التمهيد : وتناول حياة يوسف العظم وآثاره الأدبية والفكرية.

الفصل الأول : نكبة فلسطين وتجلياتها في شعره :

مشاهد النكبة وتشرد الشعب الفلسطيني.

نكبة الأقصى والمقدسات.

الأقصى والمقدسات في ربقة المحتل.

الفلسطيني تحت نير الاحتلال.

المرأة في أتون النكبة.

الفصل الثاني : الموقف العربي في ظل القضية الفلسطينية :

العرب والمسلمون في أجواء النكبة.

الموقف العربي في ظل القضية الفلسطينية (موقف ورأي).

سلام أوسلو في ميزان الإسلام.

التخاذل العربي والإسلامي من منظور إسلامي.

الفصل الثالث : تحرير فلسطين – رؤيته ورأيه :

الإعداد الإيماني للنشء.

الجهاد وصور البطولة.

الشهيد والشهادة.

الفصل الرابع : الالتزام الإسلامي وأثره في عناصر الإبداع :

تمهيد.

مفهوم الالتزام.

التجربة الشعرية والصدق الفني.

انتماء للوطن.

الوطن الكبير (ديار الإسلام).

فلسطين والأقصى.

نفحات الإيمان.

شموخ وعزة.

اللغة الشعرية والمعنى الإسلامي.

المعجم الشعري.

المعجم الشعري عند العظم.

الصورة الشعرية وعناصرها ومصادرها.

النتائج والتوصيات.

المصادر والمراجع.

تمهيد

أنجبت الدعوة الإسلامية عمالقة الفكر والجهاد والمقاومة، في عصر تراجع فيه حكامها وارتدوا، ولعل ميدان الأدب والشعر كان له حضور في مسيرة الحركة الفكرية، فالشعر والأدب لهما ميادين وللميادين فرسان ورجال برزوا شموساً في عليـاء الأدب. كان العظم أحدهم بل وأبرزهم.

برز العظم شاعراً مطبوعاً، لشعره طلاوة وحلاوة، يخلب قلب سامعيه ويجذب أسماع وقراء عشاق الشعر والأدب بما يحمل من مضامين سامية ومعانٍ عالية وأهداف نبيلة.

وشعر العظم، كما مسيرته، ملتزم بمفاهيم الدين الحنيف وقيمه العالية، تشغله قضايا أمته وتأخذ بلبه.

فقد شغف الشاعر بفلسطين أيما شغف وحظيت القدس من أشعاره بنصيب الأسد، فصدرت جميع دواوينه معنونة بعناوين كبيرة تحمل مضامين أكبر، فأطلق عليه المهتمون لقب "شاعر الأقصى".

عاصر العظم نكبات الأمة بفلسطين، ونكبات الأمة بقياداتها، فتألم لألمها وانفطر قلبه لما حل بها، فكتب من أجلها أشعاره وقصر على حبها أعماله. ولم يستكن العظم أو يستسلم بل أطلق بنانه وسنانه يكتب لفلسطين ويعمل من أجل تحرير قدسها. فأنشأ رياض الأقصى التي تُعنى بتربية النشء على القيم والتعاليم الإسلامية، ومارس المقاومة قولاً وفعلاً فكان يقدم للمجاهدين الدعم المادي والمعنوي ولقي في سبيل ذلك ما لقي من سجن واضطهاد وملاحقة.

لقد ظن قراء شعر العظم ومحبوه أنه فلسطيني الجنسية لكثرة ما كتب وأنتج لفلسطين، شعراً وأدباً يستحق الدراسة والاهتمام من المحافل العلمية ومحبي الدراسات الأدبية.

وهو الأردني المولد عام 1931م بمدينة معان التاريخية الواقعة في أقصى جنوب الأردن. قضى العظم عامين في كتاب البلدة، وبعدما أنهى الدراسة الابتدائية انتقل إلى عمان وتعلم فيها إلى أن وصل لمرحلة الجامعة، ثم توجه إلى مصر والتحق بالأزهر، فدرس فيه اللغة العربية ونال شهادته سنة 1372هـ/1953م، ثم التحق بمعهد التربية والتعليم بجامعة عين شمس وتخرج منها عام 1954م.

التقى العظم في مصر برجال الدعوة من الإخوان المسلمين وعاش بين شبابها المؤمن في الجامعة، وتأثر بفكرهم واعتنق.

وكان من أثر الزخم الفكري الإسلامي الذي تلقاه في تلك الفترة فبدأ إنتاجه الفكري وهو طالب.

عاد العظم إلى الأردن، فعمل مدرساً للغة العربية، في الكلية الإسلامية بعمان، وبرز داعية إسلامياً اشترك في كثير من نشاطاتها، فحاضر وكتب وناقش وبذل كل ما يمكن من جهد في سبيل تنشيط الحركة الإسلامية في الأردن وخارجه.

برز العظم في المجال السياسي، فقدم نفسه مرشحاً للحركة الإسلامية في انتخابات عام 1963م، فاختاره الناخبون في مدينة معان ليمثلهم في مجلس الأمة، وأعيد انتخابه في عام 1967م، وقد سجل في مجلس الأمة مواقف باسم الإسلام ما زال المسلمون يذكرونها له بالإكبار والتقدير.

حياة يوسف العظم وآثاره الأدبية والفكرية :

- عاش العظم معانيّ المولد، أردني الجنسية، إسلامي الفكر، إخواني الانتماء، مقدسي العشق، أقصوي الشعر، وحدوي الدعوة، فلسطيني الغرام، حياة زاخرة بالأعمال الكبيرة كبر طموحاته، العظيمة عظم دعوته وأحلامه.
- عاش العظم حياة مقترنة بالشعر، يقوله في كل شأن من شؤون الأمة الإسلامية، وفي كل أمر من أمورها، يفرح لنجاحاتها ويأسى لإخفاقاتها، بل إن شعرها مغموس بهموم الإسلام أينما كان، وخص فلسطين بعظيم الاهتمام، ومسجدها الأقصى بوافر الذكر وقد اقترن اسمه باسمه فسمي (شاعر الأقصى).[1]
- كان للعظم بصمته الواضحة على شعر الدعوة الإسلامية، وعطاؤه دفاق زاخر أثر في مسيرة الشعر الإسلامي في الأردن، فقد أخرج أكثر من سبعة دواوين، وتأثر به عدد غير قليل من شعراء الأردن الإسلاميين، بل امتد أثره إلى شباب الإسلام ونشئه في كل مكان.
- يوسف العظم هو الشاعر التاريخي للحركة الإسلامية في الأردن، ولعل كتاباً بصدد الطبع من الأردن يتحدث عن ذلك.
- ضمت الأعمال الشعرية للعظم الدواوين الآتية :

1- الديوان الأول : في رحاب الأقصى.

2- الديوان الثاني : عرائس الضياء.

3- الديوان الثالث : قناديل في عتمة الضحى.

---

(1) عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم مسيرة حياة، دار الرازي، ط 2006، ص 13.

4- الديوان الرابع : الفتية الأبابيل.

5- الديوان الخامس : لو أسلمت المعلقات.

6- الديوان السادس : قبل الرحيل.

7- الديوان السابع : على خطا حسان.

8- الديوان الثامن : أناشيد وأغاريد للجيل المسلم.

9- الديوان التاسع : ما لم ينشر من قصائده.

وختاماً فإني أردد مع "العماد الأصفهاني" قوله :

"إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا وقال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

فإن كان من صواب وتوفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله تعالى ورسوله منه براء، وإني أضرع إليه تعالى أن يكسوه ثوب الإخلاص، وأن يجمّله بحلة القبول، فهو سبحانه خير مسؤول وأكرم مأمول، وهذا محل الانتهاء وما استطعته مع كل الجهد والعناء آملاً أن يحظى برضاكم سسادتي العلماء والأدباء والشعراء.

يوسف العظم كاتباً :

- حملت جعبة العظم العديد من سهام الإبداع التي لم تقتصر على الشعر فقط وإنما تعداه إلى الكتابة الفكرية المستنيرة، القصص، المقالة الصحفية، وغيرها، وقد حظيت أعماله وكتاباته بكثير من اهتمام وعناية الكتّاب والمختصين، ولعلي أورد بعض ما قاله أولئك في شأن العظم حيث خصصوا بعضاً من دراساتهم وكتبهم للحديث عن يوسف العظم وأدبه وفكره والتي أذكر منها على سبيل الإجمال :

- أ. محمد أبو صوفة في كتابه (من أعلام الفكر والأدب في الأردن) للأستاذ العظم فعرف بحياته، وقال : "يوسف العظم خطيب مفوه، وكاتب بارع، وشاعر مطبوع، ذو شاعرية متدفقة في نفس طويل ... سار على نهج الشعر العربي من حيث وحدة القصيدة ووحدة الوزن والقافية، إلا أنه جدد في المضمون من حيث مساهمته في إيقاظ الوعي والدعوة إلى العودة والتمسك بتعاليم الإسلام وبأخلاق الإسلام، فقد استأثرت قضية فلسطين جل

اهتمامه وأشعاره ... كما أنه عالج الشعر السياسي والاجتماعي والأخلاقي، وتميز بالنقد والسخرية من الأوضاع السائدة في الوطن العربي".[1]

- وقد عرض أحمد الجدع وحسني جرار في الجزء الرابع من كتابهما (شعراء الدعوة الإسلامية) ليوسف العظم صفحة 5-25 فذكرا بعض ملامح حياته، وأهم نتاجه الشعري والأدبي والفكري والتربوي، كما أورد نماذج من شعره : قصيدة يا قدس، وقصيدة خدريهم يا كوكب الشرق".[2]

كما أوردت صحيفة القدس الصادرة في فلسطين[3] مقالاً نعى فيه العظم قال حمزة ذيب مصطفى من جامعة القدس مقالاً قال فيه : "كما لم يكن الأستاذ العظم بعيداً عن الصحافة، بل عمل فيها ومعها حتى النخاع، إذ ترأس الشاعر تحرير صحيفة (الكفاح الإسلامي) في الأردن الشقيق لفترة غير قصيرة، ناهيك عن كتاباته في الصحافة والمجلات لما يزيد عن خمسين عاماً إذ بقي يكتب في جريدة (السبيل) الأردنية إلى أن أقعده المرض الشديد، كما كان يكتب في مجلة (الأمة القطرية) وقد نشر فيها قصيدة من أعظم وأحزن ما يكتب ويصور بمناسبة المجزرة البشعة التي ارتكبت في حق أبنائنا وأهلنا في لبنان أثر الاجتياح عام 1982".

ولم يقتصر إبداعه على الشعر فحسب إنما تعداه ليشمل الكتابة الفكرية، القصص والمقالة الصحفية وغيرها، وهذه قائمة بأسماء بعض كتبه :

1- نحو منهاج إسلامي.
2- أين محاضن الجيل المسلم.
3- ألوان من حضارة الإيمان.
4- براعم الإسلام.
5- عمر رضي الله عنه والشعر.
6- مجتمع الذوق الرفيع.
7- رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر.
8- في رحاب الفكر الإسلامي.

وكتب أخرى.

---

(1) محمد أبو صوفة : من أعلام الفكر والأدب في الأردن، عمان، مكتبة الأقصى، ص 38.

(2) انظر أحمد عبد اللطيف الجدع وحسني أدهم جرار : شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981، ج4، ص 5-25.

(3) الاثنين 2007/11/20.

الفصل الأول
نكبة فلسطين وتجلياتها في شعره

مشاهد النكبة وتشرد الشعب الفلسطيني :

تبوأت فلسطين مكانة مرموقة في نفوس الشعراء والأدباء ، وتربعت القدس علـى رأس تلك المكانة ، وكان لما ألم بفلسطين ودرة تاجها --المسجد الأقصى المبارك- أثـر عظـيم فـي أعمالهم، فقد تجلت صور نكبتها في أشعارهم وكتاباتهم . فكتبوها شعراً ونثرا، يحكـي حكايـة النكبة التي حلت بتلك البقاع الطاهرة والمرابع المقدسة .

وما كان لشاعر الأقصى أن يحوز لقبه إلا من واقع ما كتب قلمه وخط بنانه ولكثرة مـا تغنى بفلسطين وما ملكت عليه مقدساتها وبقاعها .

ولم يكن شاعرنا يوسف العظم في الأردن الشقيق بعيداً عن تلك الآلام والأهوال ، فقـد رأى حال المشردين في الخيام والمخيمات ، وعاش معاناتهم ، ذلك ما نراه في مثل قوله :

في خيمة عصفت ريح الزمان بهـا ... لمحت بعض بني قومي وقد سـلموا
فاسلموا لغيـوب المـوت ضـاريه ... البـرد والجـوع والإذلال والألـم
يا ويح قـومي قـد لانـت قنـاتهم ... وقد وعى الكون والتاريخ عـزهم[1]

لقد صور الشاعران حال المنكوبين المشردين في أغلالهم وأثقالهم، وقد منعوا حتى من الكلام ، فكان الشعر لسان حالهم ، وترجمان ما احتبس في فؤادهم من مشاعر الحسرة والألـم ، ذلك ما يقرره راشد حسين حين يصور عجز الأب عن البكاء على طفلته التي لفظت أنفاسها في خيمة النكبة خشية أن يفقد المؤن الذي تقدمه وكالة الغوث لإعاشة إخوانها إن باح بنبأ موتها، يقول[2]:

ها هنا في الخيمة السوداء بنت وأبوها
وفتاة لفظت أنفاسـها مـا أسـعفوها
كفنوها بثياب الليـل سـوداً كفنوهـا
دفنوها في ظلال الليل ، سراً دفنوهـا
لينالوا مؤن الطفلة من قـوت جهـنم

إنه مشهد مرعب، لتلك الطفلة المنكوبة التي ما تجرأ أهلها على البوح بمصابهم بهـا أو إعلان نكبتهم بموتها ، فكانت ظلمة الليل عندهم نعمة لأنها أعانتهم على مـواراة جـسدها الغض التراب ،سراً كي لا ينتشر خبر موتها .

لقد كان الشعراء وما زالوا ضمير الأمة وصوت المنكوبين المشردين ، اكتـووا بنـار النكبة فرسموا صورتها شعراً وأدباً هناك في الخيام والمهاجر والمنافي ، وقد صورها الـشاعر راشد حسين في قوله :

في الخيام السود ، في الأغلال ، في ظل جهنم

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، الطبعة الأولى ، 2003، ص32 .
(2) راشد حسين : الأعمال الشعرية ص 36 .

سـجنوا شـعبي وأوصـوه بـألا يـتكلم
هـددوه بـسياط الخبـث بـالموت المحـتم
أو بقطع اللقمـة النتنـة ، إن يومـاً تـألم[1]

هذا حال المنكوبين الذي عايشه الشعراء وعبروا عنه كما هو حال راشد حسين .

أما يوسف العظم فما زال يتجول في ربوع الوطن السليب ، يتتبع ما حـلّ بـه مـن مصائب ، ويصور مشاهد النكبة التي حلت بأهله ، من ذلك قوله[2] :

والعدو الدخيل في كل شـبر بـث فـيكم عيونـه
يملأ الأرض والفضاء فـساداً ويغرز بكـل حقـدٍ جنونـه
كم صغير ذاق الردى بيديـه وصغير ما عاد يلقى الحنونه

أجل لقد سد هذا المحتل الغاصب الآفاق بالويلات وشاعرنا يكابدها ، وهذا العـدو لا يرعوى عن البطش بالطفل الصغير أو الفتاة الوادعة أو العجوز الضعيفة الهرمة:

وعجوز في عتمة الليل باتت جرحها ينزف الدماء سـخينه
دمروا بيتها فـصار حطامـاً واستباحوا في حقلها زيتونـه
وفتاة عـذراء مزقهـا القيـد وكانت رمز العفاف مـصونه

لقد فاقت جرائم المحتل الخيال ، فما حفظ حرمة لعجوز أو طفـل صـغير أو فتـاة عذراء طاهرة . إلا ومزق كرامتها وأهدر عفتها ، وهذا ما كان يسحق قلب الشاعر وينفطـر له فؤاده . فالعدو الغاشم أهلك الحرث والنسل ودنس الكرامة ، وطغى حقده حتى طال شـجر التين والزيتون الطاهر وصادر الهضبة ونهر الأردن[3] :

قد أقـسم الله بـالزيتون تكرمـة فاحتل منا العدى الزيتون والتينـا
والطور والهضبة الشماء والأسفى والنهر ما عاد ماء النهر يسقينا[4]

هذه أبيات خطها أبو جهاد –يوسف العظم– في قصيدة عنونها (ذكريات المجد والعار.. في أرض الأبرار) ، "وفي ليلة القدر في لحظات من الطهر والتبتل، تجتـاح الـذكريات علـى

---

(1) راشد حسين: الأعمال الشعرية، الطبعة الأولى، مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، 1990، ص 35.
وانظر أيضاً :
- إبراهيم عبد الستار : شعراء فلسطين العربية في ثورتها التقدمية، نادي الإخاء، حيفا د.ت، ص 20.
- كامل السوافيري : الأدب العربي المعاصر في فلسطين، طبعة دار المعارف بمصر 1977، ص 188.
- واصف أبو شباب : شخصية الفلسطيني، طبعة دار العودة، بيروت 1981، ص 160.

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 28 .

(3) السابق، ص 28 .

(4) السابق، ص 33.

شاعرنا صلواته، وتترى على خاطره ، وتحضره النكبات. حتى ملأت عليه حياته ، وعاشها في كل لحظة من عمره وفي كل خاطرة تراوده ، واتخذ الشاعر من الشجرة المباركة رمزا لحزن الطبيعة جراء ما أصابها، ومن سواد الهشيم وخلو الورد من رائحته الزكية شاهدا على الفاجعةالتي ألمت بها" :

وغصون الزيتون شاحبة اللون على قدسها بلا غريد
والربوع الخضراء باتت هشيماً وخلا الورد من عبير الورود[1]

وكان المصاب من عظيم هوله مدمراً، فقد غيّر معاني الحياة، وكساها ظلمة ووحشة حرمت المنكوبين الإحساس بالحياة ،وحوّل أيامهم أحزاناً عارمة وكوارث طامة:

بعثرت أيامنا عاماً فعاماً وزرعنا الأرض بؤساً وخياما
وطوينا بسمة العمر على أمل العودة أو نقضي كراما
لا تسلني يا أخي في عجب لم لا تملأ دنياك ابتساما
أنا مذ مزق قدسي غاصب صارت البسمة في شرعي حراما[2]

ويبوح الشاعر إحساسا، بوقع النكبة حين داهمته أخبارها، وهو على مقاعد الدراسة ، حيث فارقت الابتسامة محياه، وغادرت السعادة أيامه ، فيصوّرها الشاعر مجيباً عن سؤال لا يخلو من لؤم السائل أو تغابيه يقول :

قلت للزائر أن يسألنا كيف حال القوم في هذي الربوع
إن سألت الصدق فلتصغ لنا منذ جفت في مآقينا الدموع
نحن شعب قد سلبنا أرضنا نحن في عري وآلام وجوع
وطعام الغوث لا يشبعنا نحن لا يشبعنا غير الرجوع[3]

هذا جواب الشاعر بلسان قومه الذي ينطق عندما يُسكَتون، ويتكلم عندما يعجزون، فالعودة حلم الشاعر، وحلم أبناء شعبه –وهو شعار بل ولازمة– يرددها أبناء فلسطين في كل عيد (عيدنا يوم عودتنا) كتبوه بالدماء والأشلاء وحفروه في القلوب وخطوه على الجدران. وكثيراً ما رددوه، وكذلك تبقى العودة عند شاعرنا عيداً يغني له ويعزف على وتره، من ذلك قوله:

أقبل العيد ورفت ذكريات وتلظى في الخفايا أمنيات
أين يافا ؟ أين حيفا ؟ ولكم في ربى الكرمل تحلو السهرات
أين عكا عن حماها شامخاً هزم العدوان ارتد الطغاة

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 34.
(2) السابق ص 93 .
(3) السابق ص 94 .

عيـــدنا عـــود كـــريم ظـــافر وبغير (العود) لا طابت حياة[1]

هذا عيد الشاعر كما صلواته، في حله وترحاله، ذكريات تتوافد وتتوارد، ولكن الجواب واحد والحلم واحد والعيد عنده يوم عودته ، هذا عيده الذي يمسح عن مهجته الحسرة، والألم يوم تعود الكرامةلأمته، والعزة لدينه، والحريةلوطنه .

فبالرغم من الأسى والحسرة، وعمق المأساة وعظمها، إلا أن العظم يـستنهض روح الأمة ، ويطرق باب عزتها بتذكيرها بمجدها العريق ، وجيادها العربية الأصيلة التي غـدت مكبلة علها تفك أسارها أو تفض غبار الذلة عن جبينها. ويصور بعض مشاهد بؤسها فيقول:

جعت في يوم .. فأرسلت يـدي لرغيف البؤس، من خبز الوكالة
ومضغت العـار سـماً ناقعـاً وشـربت الكـأس ذلاً للثمالـة
سلبت أرضي وعاثـت طغمـة في ربوعي تدعى روح العدالة
إنمـــا مزقنـــا أعـــداؤنا حين بدلنا الهدى درب الضلالة[2]

هذا ماكابده شاعرنا، ورآه من أحوال النكبة، وما تردد في شعره غير مرة ، فالأمة مـا نكبت إلا عندما تنكبت الطريق القويم ، وما زلت إلا عندما حادت عن سواء الـسبيل ، فتبـدل حالها وتتابعت نكباتها ونكساتها[3] ، وهذا ما سنعرض له في فصول تالية حيث يعرض الشاعر رؤيته ورأيه في الخلاص ، وإن كان قد وضع أولى معالم هذه الرؤية في الأبيات السابقة، ومـا قبلها ، مجسداً بذلك فكرته الإسلامية النابعة من انتماء صادق لدينه ، وانغماس في قضايا أمته ، واهتمام بالغ بإعادة البوصلة إلى وجهتها الصحيحة وفق ما رسم الإسلام العظيم الذي ما عـزت الأمة إلا به .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص94.

(3) انظر :

- عبد الرحمن ياغي : حياة الأدب الفلسطيني الحديث، الطبعة الأولى، دار الآفـاق، بيـروت 1981، ص 299 وما بعدها.
- عبد اللطيف شرارة : إبراهيم طوقان، بيروت 1964، ص 31-34.

نكبة الأقصى والمقدسات

لقد عنت القدس في فؤاد شاعرنا الكثيرو الكثير، فملأت عليه قلبه وشغفت روحه، وما استحق لقب (شاعر الأقصى) من فراغ ، فالأقصى تجسيد للعقيدة ،والخلافة الرشيدة والانتصارات المجيدة ، نلمس ذلك في قوله في مقدمة ديوانه " في رحاب الأقصى " :

" ليس الأقصى مجرد بقعة من الأرض فيها نسجد ، ولا بناء من الحجارة في أفيائه نصلي، ولكنه مرتكز عقيدة، وموئل فكرة ،ومهوى أفئدة مؤمنة بالله، مصدقة بما جاء به خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة وأفضل التسليم "[1] .

ولعل ذلك كافياً ليبرهن الشاعرعلى صدق انتمائه، وعظيم تعلقه بالبقاع الطاهرة ، يقول : " أحببنا الأقصى لأن الرحال لا تشد إلا لثلاثة مساجد هو ثالثها ... أحببنا الأقصى لأنه رمز لنصرة أمتنا ودحر أعدائنا ... أحببنا الأقصى لأن وجوده يمنح ديارنا البركة ويهب لأرضنا كلها القدسية والطهر . لقد سجدنا في الأقصى وفي أفياءه نصلي ... وغنيناه شعراً... وسجلناه أمجاداً ... فسبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى"[2].

حقاً إنه (شاعر الأقصى) وصوته المدوي، في ربوع الوطن الحزين ، فشاعرنا صاحب رسالة حملها منذ كان طالباً جامعياً في السبعينيات ،حيث نشأ في حضن الحركة الإسلامية ، واسظل مظلتها ، فحمل هموم أمته ،وجاش بهاصدره فانبثق شعراً وأدباً ، شأنه في ذلك شأن كل شعراء الدعوة الإسلامية من لدن حسان رضي الله عنه ، فقد وصفه د. عبد الله الخباص قائلاً : " يوسف العظم هو الشاعر التاريخي للحركة الإسلامية في الأردن "[3] .

وكعادته التي درج عليها، حين يراوده حنين الذكريات، تثير شجونه وتسحق فؤاده المكلوم ، فينساب شعراً، يترجم تلك المشاعر ويجسد تلك الأحاسيس ، فينظم قصيدته (أنا للقدس) يجهر فيهابمكانة القدس وماتمثله ، بل ويعلن لها الولاء والانتماء :

أنا للقدس خافقي ووريدي ... وحياتي ومهجتي وبيت قصيدي

وعلى القدس قد قصرت حديثي ... وقوافي شعري وبيت قصيدي[4]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، ص 11 .

(2) السابق ص 11.

(3) عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم ص 13 .

(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 34 .

لقد حمل الشاعر في طيات قصيدته هموم الأمة ، وأخذ على عاتقه استنهاض عزيمتها وإيقاظ غفوتها من أجل القدس التي ملأت الحيز الأكبر، والمساحة الأعظم في قصائده ، لأنه شاعر الأقصى ، وعن ذلك يقول مأمون جرار[1] : " ولئن لم يكن شعره في القدس، فإن هذا الإعلان يدل على منزلة القدس لديه، وقد اتسع شعره لهموم المسلمين في مختلف ديارهم، كما اتسع للقضايا الذاتية والعلاقات الأسرية والاجتماعية ، ولكن كان للقدس وفلسطين النصيب الأكبر في شعره " .

ويتساءل شاعرنا مستنكراً ما حل بأطهر البقاع وأشرف الأصقاع ، يتساءل عما حل بالمقدسات من نكبات وعلى رأسها القدس الشريف ، فيقول[2] :

يا قدس يا محراب يا منبر يا نور يا إيمان يا عنبر
أقدام من داست رحاب الهدى ووجه من في ساحها أغبر ؟

تأتيه التساؤلات في مستهل قصيدة ديوانه الأول (في رحاب الأقصى) وهي بعنوان (يا قدس) ، وقدم لها الشاعر بمقدمة قال فيها[3] :

" في أعقاب صلاة فجر خاشعة ومن أعماق " الذكريات " في رحاب الأقصى ، تناولت القلم لينساب صوراً أليمة ، وألواناً متمردة ترفض الخنوع وتأبى الاستسلام " .

وقد تناقلت القصيدة صحف عديدة منها ... مجلة الوعي الإسلامي وقد منحت الأخيرة صاحب القصيدة شرفاً كبيراً حين دعته " شاعر الأقصى " .

والعظم كما عودنا حضور القدس الدائم في نفسه حيث لا تكاد تفارق مخيلته ولا تغادر قلبه، هاله مَنْ دنس الطهر، وأهان الكرامة، واعتدى على أقدس المقدسات وأطهر البقاع ، التي شرفت بأقدام أطهر الخلق محمد صلى الله عليه وسلم :

مَنْ لوث الصخرة تلك التي كانت بمسرى أحمد تفخر
وأمطر القدس بأحقاده فاحترق اليابس والأخضر[4]

يحلق الشاعر أبو جهاد في ذكرياته إلى هناك، حيث المسرى والمعراج ، الذي بات يرزح تحت نير الاحتلال الغاشم ، وكذلك المهد المقدس ، فيقول :

ودنس المهد على طهره إلا عدو جاحداً كفر[5]

إن القدس في خلجات قلب الشاعر،وفي تفاصيل كيانه، تدل دلالة عظيمة على مكانتها في نفسه ، وما تعنيه القدس في عقيدة الشاعر ومعتقده ، ذلك ما نتبينه في قوله :

---

(1) عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم ص 46 .

(2)، (3)، (4)، (5) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 15 .

كـــم رتلـــت فـــي أفقهـــا آيـــة وكـــم دعانـــا للهـــدى مرشـــد
أقدام عيسى باركـــت أرضـــها وفي سماها قد سرى أحمـــد[1]

والقدس مصدر إلهام الشاعر، ومهبط أحلامه، ومحط ذكرياته ، فما زالت تعنـــي لـــه الكثير كما لكل مسلم غيور مؤمن بالأنبياء ورسالاتهم ، فالقدس آيـــة ترتـــل ودعـــاء يتلـــى وأرضها مباركة بمقدم الأنبياء، وسماؤها مباركة بمعراجهم ، وهي في نفسه كوكباً يحلق فـــي العلياء ومصدر النور وملتقى الأتقياء ، وهي تحكي قصصاً من تاريخ وضـــاء أطربـــت أذن الشاعر وشغفت فؤاده ، بلحن عذب غاية في النقاء، يقول .

القدس في أفق العلـــى كوكـــب تـــشع بـــالنور فـــلا تعجبـــوا
أيامهـــــا بـــــالحق وضـــــاءةٌ كانت بـــأطراف القنـــا تكتـــب
إن أطـــرب الغيثـــار أســـماعنا فاللحن في أفق الهدى أعذب[2]

إن أيام القدس كلها أمجاد ، وكل بقعة فيها طيبتها دماء الشهداء والأجـــداد ، ولكنهـــا كانت تقوم على الحق الذي لا ظلم فيه ولا ضيم ، فأيامها بالحق بالغة النقاء، ولعـــل الـــشاعر هنا يستحضر الفتح العمري العادل والفتح الصلاحي، الذي أعاد الحق لأصـــحابه دون ســـفك لدماء أو هتك لأعراض ، فيقول :

في رباهـــا لله ســـارت جنـــود تستحث الخطـــا بعـــزم شـــديد
وحديث الإسراء على كـــل واد وعلـــى كـــل ربـــوة وصـــعيد
يتحدى الكفر الصلاح ويعلـــى في ذرى القدس راية التوحيـــد
وصهيل الخيـــول فـــي حلبـــة النصر وتكبير الحمـــاة الـــصيد
وصلاة الفاروق عنوان عـــدل تتسامى عن كل معنـــى حقـــود
يصنع الحب والـــسلام ويعلـــى قرب دير الرهبان ركن السجود[3]

هذه هي أمجاد القدس، وأمجاد المسلمين التي تتوارد في خاطر الشاعر بوطأة شـــديدة، فتزيد من آلامه وتثير أشجانه وأحزانه ، وهذا التاريخ المشرف المشرق يتدفق في نفس الـــشاعر مع ما يسمعه ويشاهده وما آلت إليه أحوال القدس والأقصى .

والشاعر يجمع بين الأسى والاستغاثة كما يقول د الخباص[4] : " والشاعر يجمـــع بـــين الندبة والاستغاثة وكان بارعاً في تصوير أثر الاحتلال على المسجد الأقصى والطبيعة الحية فيه التي سرق الاحتلال تغريد طيورها ، وعبير ورودها " .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 16 .

(3) السابق ص 34 .

(4) عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم، ص 47 .

ويئن الشاعر كما أنّت المقدسات ، وتمتلئ أفواه المسلمين معه بغصة الذل، ومـــرارة العار ، ويقر بذلك الشاعر في تساؤل مريرفيقول:

مَنْ ذا الذي هـــدمني ســـاعداً ويـــداً هل ضاع دربي أم زلـــت بـــي القـــدم؟
لقد جرعنا كـــؤوس الـــذل مترعـــة والقدس في العار، والمحراب والحرم
والصخرة اليوم باتت غيـــر شـــامخة لأن نجمـــة صـــهيون لهـــا علـــم

ولكن وبرغم كل هذا الأسى، وقسوة ما يكابده الشاعر من شعور بألم ســـاحق ، ومـــا يراه من أحوال القدس وقد جللت بالعار ، وذاك المحراب الذي دنسه الفجار، والصخرة التـــي غاب عنها الشموخ وعلا عليها علم أرباب القمار ، إلا أن الذكريات المجيـــدة تعـــاود قلبـــه وتزاحم أنفاسه، فينبثق الأمل في روحه ، وتشرق في نفسه ومضات الحرية، وأمجاد مـــاضٍ عريق ، ويبرق في صوته النور من جديد ، فتهب في نفسه رياح العـــزة وتعـــاوده العزيمـــة الوثابة ، ويهب في نفسه أريج الكرامة .

يا سماء القدس أمطريهم لهيبـــاً يـــا جبـــال القـــدس ميـــدي
واصنعي الفتح يا كتائـــب فـــتح وأعيدي رايات بـــدر أعيـــدي
فـــشعار الـــشعوب دون مـــراد لا يفل الحديـــد غيـــر الحديـــد

وتستمر هذه الموجة الهادرة من الاستنفار ، فالنفس تواقة، والعزيمة وثّابة لا تعـــرف الخنوع أو الذلة أو الركوع ، فيذكر الأمة بأمجادها ويدعوهاالى الثقة بربهـــا، الـــذي أيـــدها بالنصر في بدر مؤكدا أن الشعوب الحرة لا تعرف المستحيل ولا تركع للدخيل .

وتثور في نفس الشاعر عزيمة الشباب وتتأجج في قلبه معاني الفداءو تلـــك الـــصور التي سمعها عن شباب فلسطين وفدائييها الذين بذلوا الأرواح .

وشـــباب الفـــداء بـــايع حتـــى يغمر القدس نور فجـــر جديـــد
أثبتـــوا للـــدنا وجـــودهم الفـــذ ولـــم يـــذعنوا لأي وعيـــد
وارتضوا من حيـــاتهم بكفـــاف وتخلوا عن كل عيش رغيـــد[1]

وكأني بالشاعر يشدو بين ظهرانينا ويعيش حصار شعبنا اليوم ، بعد مضي أكثر مـــن عامين، على وفاته حيث يقول :

فشباب الفداء ما عاد يرضـــى بحـــديث أو خطبـــة أو نـــشيد
ومداد الأقـــلام نثـــراً وشـــعراً لا يساوي تكبيرة من شـــهيد[2]

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 35 .

لقد ارتبط شاعرنا بالقضية ارتباط الروح بالجسد فكان نبضه وشعره وفكـــره وعقلـــه متعلقا بها، وكانت المقدسات حاضرة في وجدانه، ومصدر إلهامه المستمر الذي لا ينقطـــع ، فملأت عليه حياته ومن ثم امتلأ بها شعره وقصائده ، فالمقدسات وعلـــى رأســـها الأقـــصى حاضرة في نفسه وملهمة لروحه ومؤججة للهيب ثورته ، يقول د. عبـــد الله الخبـــاص فـــي كتابه: " كان هذا الذي رأيناه صدى الإسراء في إحدى قصائد يوسف العظم ، وليس الإســـراء وحده ما يثير لديه أشجان القدس "[1] .

(1) عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم ، مرجع سابق ص 47 .

وانظر : عماد الدين خليل : مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة 1987، ص 84.

الأقصى والمقدسات في ربقة المحتل

لقد أخذ الأقصى بألباب كثير من الشعراء على مر العصور ، وخصه الكتّاب والأدباء بالكثير من أعمالهم وأشعارهم كما لم تأخذه مدينة من قبل، مستلهمين ذلك من مكانة القدس الرفيعة وما ترمز إليه عبر التاريخ الإسلامي العريق .

و شغف العظم بفلسطين أيما شغف وتصدرت قضيتها أشعاره وأعماله، وخص أقصاها برفيع المكانة وعالي المرتبة، فانساب ذلك شعرا وشعورا، ترددت أصداءه في غير موقع، وتبدت فيه سمات ذلك التقديس جلية في شعره ، إذ لم تكن القدس والأقصى مجرد بقعة من الأرض ولا بلدا كسائر البلاد، بل كانت وما زالت القدس في نظر شاعرنا عقيدة وديانة انطلق منها الشاعر في نظرته إلى كل فلسطين ، ولم تكن مصادفة أن يسمى شاعرنا – شاعر الأقصى – بل إنه استحق ذلك بجدارة واقتدار، فما من ديوان من دواوينه إلا وعبق القدس، وعطر محبتها يفوح من بين أبياته ، وحلم الحرية والخلاص لها يراود كلماته ، وقد أخذ الأقصى من أشعاره حيزاً كبيراً ، بل إنه صدَّر أعماله بديوانه المعروف (في رحاب الأقصى) .

واستهل ديوانه ذاك، بأبيات أهداها إلى روح القائد البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي، قال فيها :

هذه خفقة قلب في الحنايا ودماء قد تنزت من جراحي
خطها نسر جريح شامخ نهشته الطير من كل جناح
بات في الأقصى يناجي جرحه يا لحطين تباهي بصلاح
فمتى يبسم للكون غدى ومتى يشرق للدنيا صباحي[1]

بينت كلمات هذا الإهداء العطر الموشح بدماء نازفة، ما يتلظى به قلب الشاعر من حرقة وألم لما ألم بالقدس وأهلها ، وما للأقصى من حضور دفاق تسلسل من بين حنايا قلب مفعم بالأمل، الذي ما انفك الشاعر يلوّح به في ثنايا قصائده ، أمل العودة، وأمل الحرية ، وأمل في الزحف المقدس إلى تلك الديار ، أمل فجر جديد يمزق جلابيب الظلام ، ويضرب على رؤوس اللئام ، أمل تبدى مع خلجات نفس عذّبها الفراق وسحقها دون رحمة أو رأفه .

والشاعر أبو جهاد يوقف نفسه للقدس ، ويقصر عليها شعره وقصيده ، ولا مراء في ذلك فالقدس في نفسه آية وتاريخ وقصيدة .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 10 .

إنما الأقصى عقيدة ووسام وقـصيدة
وهو صرح أبت العلياء إلا أن تـشيده
بارك الله حواليـه بآيـات مجيـدة[1]

ولا غرو أن يكون الأقصى بهذه المكانة الرفيعة، عند شاعر بقدر العظـم ، فالقـدس تبوأت مكانة عالية عند كوكبة من الشعراء والأدباء الأفـذاذ ، الـذين قـصروا أعمـالهم أو معظمها على تلك الحروب والأيام التي احتلت فيها القدس أو تحررت ، " ولـئن ظهـر فـي عصر الحروب الصليبية ما سمي بالقدسيات التي قيلت في القـدس ومـا حـل بهـا أوفـى التحريض على تحريرها، أو التهنئة بالنصر والتحرير ... "[2] . وقد قصر العظم شعره على الأقصى أو كاد ، وقد أكد على ذلك التوجه في شعره ففي قصيدة بعنوان (أنا للقدس) يقول :

أنا للقـدس خـافقي ووريـدي وحياتي ومهجتـي ووجـودي
وعلى القدس قد قصرت حديثي وقوافي شعري وبيت قصيدي[3]

واذا كان الأقصى قد تبوأ هذه المكانة في قلب الشاعر فماذا عساه فاعلا والأقصى في ربقة المحتل؟ وقد دنسته أقدامهم ونالت من كرامته واستباحت حرمته وعاثت فيـه قطعـانهم حرقاً وتدميراً وإفساداً،لعله لا يملك الا الحراسة كما في قوله:

ذكرت فيها صلاح الدين غرته بيضاء كالصبح تأبى ذلة فينـا
فيه التقى والنقى يا حسن طلعته وكفه قد بنت أمجاد مـا حيينـا

إن الملحمة الصلاحية، لا تكاد تبرح ذاكرة الشاعر ، فتلازمه مع كـل نظـرة إلـى الأقصى، ومع كل عبرة تتحدر على وجنتيه ، ومع كل زفرة ينفثها صدره المكلوم وقلبه الذي انفطر لحال القدس ومآلها .

إن هذا الألم الذي تنبض به الأبيات ، والذي يُدمي قلب الشاعر ، إنما هو صدى لأنـين القدس وآلامها ، وقد تغير لهذا الألم كل شيء ، وتبدل كل جميل ، فلا بأس أن يشارك الـشاعر بحسه المرهف، ومشاعره الدفاقة وذكرياته العبقـة أن يـشارك الأوراق شـحوبها ، والربـوع هشيمها، والرياض غياب ورودها .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 158 .
(2) انظر :
- عبد الجليل عبد المهدي في شعر الحروب الصليبية (492-648هـ) الطبعة الأولى، دار البـشير، عمان، 1989م، ص 48.
- عادل الأسطة : القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، طبعة نابلس، فلسطين 1993.
(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 33 .

بل وأكثر من ذلك، فالعيد كطقس احتفالي بهيج لم يكن ليخرج الشاعر من عميق آلامه، بل إن العيد ينكأ جراحاته ، ويوقظ في نفسه عبير ذكريات وكبير ملمات، ليغدو حاله كحال المتنبي حينما نأت عنه الأوطان واغترب عن الأحبة والخلان، وقد ورد هنا تناص بين ما قاله المتنبي وما باح به العظم ولعل ذلك مما يضاف إلى بروز العظم شاعراً إحيائياً وتراثياً في عدة مواطن من ديوانه، فقال العظم :

العيد أقبل والذكرى تؤرقني ... وليس في العيد غير الحزن والسقم
ما عاد في مقلتي طيف يداعبني ... غير الأحبة في الأقصى وفي الحرم[1]

الأقصى عقيدة عند شاعرنا، والأقصى قصيدة ،والأقصى قضية ، وكثيراً ما يتوحد الشاعر مع الأقصى ويعيش همومه وأحزانه ، ويُضحى لسان حاله ، من ذلك قوله :

يا ويح مئذنة صماء صارعة ... تعيش في لجة الإرهاب والعدم
تدعو الأحبة مَنْ منكم يعانقني ... ويعتلي قبتي الشماء بالعلم
وترتجي لهفة تقيل راحته ... لأنها بسوى الرشاش لم تهم[2]

ويشخص العظم حالة المآذن ××××× في تشخيص بارع وتعزيز كبير لتلك الحالة التي غدت عليها المقدسات والمحاريب ولعل ذلك ما يعزز تلك المآسي ويجسد الآلام التي اجتاحت الأمة.

يتحسس الشاعر معاناة الأقصى وأمانيه ، فيصور رهبة مآذنه وضراعتها إلى الله عز وجل أن يخلصها من براثين الاحتلال .

يطلعنا الشاعرعلى بعض المصائب التي حلت بالأقصى جرّاء ممارسات الاحتلال الصهيوني ، فيصور والألم يعتصر روحه خلو محاريبه من عُمّارها، وتبدل صوته فأضحى حزيناً جريحاً ، يقول :

المحاريب أظلمت بعد فجر ... فيه تسري ترتيلة القرآن
والأذان الحزين دوى جريحاً ... فسمعنا الأذان غير الأذان

يتساءل الشاعر تساؤل المستنكر لما يراه من حقد اليهود وجرائمهم في المسجد الأقصى، وكيف كان المسجد الأقصى ، وكيف أضحى ، فيقول :

أقدام من داست رحاب الهدى ... ووجه من في ساحها أغبر
وكف من تزرع أرضي وقد ... حنا عليها ساعدي الأسمر

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 36 . وانظر : عبد المنعم خفاجي وسعيدة جودة السحار وعبد العزيز شرف : ديوان أبي الطيب المتنبي، طبعة دار مصر للطباعة (د.ت)، ص 135.
(2) السابق، ص 37 .

والشاعر خبير بهذا العدو الغاشم الذي نطقت أفعاله وأحقاده إفساداً ودماراً قبل أن ينطق لسانه ، تعريف الشاعرهذا بالعدو، إنما جاء من تلك الأفاعيل والجرائم ، فيخاطب الشاعر ذلك العدو المارق قائلاً :

القدس يا مارق أنشودة تهتف باسم الله طول الزمان[1]

القدس مثلت أم رؤوم طهور لا تقبل العدو ولا ترتضيه ، ولا ينبغي لها ذلك ، فهي ليست بغياً ترتضي الخنا والخيانة ، ولا رعديدة تخشى العدو والعدوان ، القدس واهبة الرجال وطالبة المعالي في تشخيص آخر للقدس، ولعل العظم قد برع في هذا الفن على سطوح شعره:

القدس أم طهرها غامر وحضنها بعض رياض الجنان
ليست بغياً ترتضي بالخنا ولا جباناً ينحني للهوان
يا قدس يا صرح العلا شامخ شلت يد الماكر الثعلبان[2]

تلكم هي القدس وذاك هو مقامها ، أم رؤوم تعاف الخنا وترفض الذل والهوان ، فهي صرح المعالي فكيف ترضى ذاك الثعلبان .

القدس في تلك القيود والأغلال لا ترنو لمجرد زائر راكع أو ساجد ، ولا تستجدي خطيباً مفوهاً ولا كاتباً ملهماً ، القدس تحن إلى أحفاد خالد وصلاح ، أولئك الذين عشقوا القدس وتاقت إليها أرواحهم ، وجردوا من أجلها سيوفهم ، وسرجوا لأجلها خيولهم ، هم الرجال الذين لا يعرف الخور إلى قلوبهم مسلكاً ولا طريقاً ، وهم الذين صاغوا تاريخ القدس بحروف من ذهب ، وكتبوا سفر تحريرها بالجهاد والشهادة ، وطريق أولئك الرجال هو ذات الطريق الموصل إلى ساحات القدس ومآذنها ، وهو وحده الذي ينشده الشاعر لخلاصها من أسرها وفكاكها .

يقطع العظم أن طريق الجهاد هو السبيل إلى رفعة الأمة وإعلاء رايتها واستعادة مقدساتها وقهر عدوها :

لا ينقذ الأقصى خطاب ولا يخلص القدس غزير الدموع[3]

والشاعرقد ملَّ الكلام والبكاء والعويل ، ومزق فؤاده ذاك الحال من التشرد والأسى الذي اكتوت به الأمة وكبلت به شعوبها .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 19.

(2)

(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 45 .

أنه حر ثائر لا يبكي الديار ولا يقف بالأطلال ولا يجيد الندب ولا العويل، فهو كما برع في تصوير حال المقدسات في ربقة محتل غاشم، نجده أشد براعة واقتداراً على استنهاض همة الأمة وبعث روح التضحية فيها من جديد ، تارة بتذكيرها بأمجادها وصفحات عزتها ، وتارة بتذكيرها بمنهاجها القويم وكتابها الكريم ، ثم تارة ببث روح الأمل وانبلاج الفجر من جديد حين يقول :

إن المدن الفلسطينية في معظمها وردت في قصائد الشاعر بأسمائها ومقدساتها ففلسطين ضمت في باطنها الكثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمالقة الأمة من التابعين والقادة العظماء.

وهاهي دعوتهم ما زالت تتردد في جنبات الربوع الطاهرة وبصوت الحق الذي لا يعرف النكوص أو التراجع.

رددوها دعوة غير مريبة ... في حمى الأقصى وفي يافا السليبة
واجعلوها غضباً تهفو ... غزة الحرة والقدس الحبيبة
كم أذالت دولة الظلم وكم ... رفعت بالحق أعلام الكتيبة
كنت نوراً وبراً وهدى ... بسيوف المجد تهتز خصيبة
والجراحات على أردننا ... هالة حمراء كالجمر رغيبة
فابعثي يا أمتي أمجادها ... وتحدي الشمس فالشمس قريبة[1]

إن جرت في دمنا الله أكبر

إن هم الشاعر وأسمى أهدافه أن يبعث الهمة في الأمة من جديد ، لتستلهم ماضيها لحاضرها ، وتستعد لاستعادة ريادتها وعزتها ، وما ذلك إلا بالجهاد والقتال ، فلا سبيل إلى إقامة الدولة إلا بهما ، هذا ما ترنو إليه القدس ، وتحلم به غزة ، وتنام يافا على ألحانه وتستيقظ ، غير آبهة بقوة العدو ولا آلته ولا جبروته ، فالحق أقوى من ذلك كله ، شعارها في ذلك التكبير الذي يهز أركان العدوان ويزلزل كيانه ، ذاك النداء الخالد الذي انطلق دوماً من أفواه كتائب الإيمان على مر العصور والأزمان فعل بالعدومافعل.

هذه وصية مخلص تيم قلبه حب الأقصى ،و راعه ماآل اليه حال الأمة فغدا للأمة ناصحا ولعزتها مستنفرا، كي تنهض من كبوتها وتقال من عثرتها ، وتعود إلى ماجد مجدها انه الشاعريوسف العظم .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 41 .

الفلسطيني تحت نير الاحتلال
السجن ، القتل ، الفقر ، الحرمان

شكلت فلسطين وقضيتها منطلقاً لكثير من الشعراء نحو الإبداع وشغلت نكباتها قلوب الأدباء وسكنت أفئدتهم . فقضية فلسطين قضية المسلمين جميعاً وجرحها جرحهم ، عاشت مأساتها في قلوبهم ، وتربع أقصاها على عروش أدبهم وشعرهم .

أما العظم ، فقد حضرت فلسطين في شعره أشد الحضور ، وقصر كثيراً من قصيده لأجل تلك البقعة ، وأولاها كبير اهتمامه وغني إبداعه .

عاش يوسف العظم آلام القضية بكل تفاصيلها ؛ كابد ألم الفراق ، وشارك المسجون سجنه ، والمبعد غربته ، والمحاصر جوعه ، عاش يوسف بحسه المرهف، الفقر وكابد الحرمان .

بدأت صلة العظم بالقضية الفلسطينية في وقت مبكر من حياته ، فقد ظهرت في شعره آثار النكبة في " رباعيات فلسطين " التي قال الشاعر في مقدمتها : " عندما وقعت هزيمة الخامس عشر من أيار كنت على مقاعد الدراسة الثانوية ، وفي أفياء النكبة الرهيبة رحت أسجل الأحداث ، وأصور الوقائع ، في غير تحديد تاريخي ولا ضبط زمني " .

"لقد صورت عبر عشرين عاماً كثيراً مما وقع من عدوان الدخلاء وعبث العابثين من بني قومي، وخلجات النفس المعذبة في خط النار الصامت الرهيب أو المضمخ بالدم واللهيب، فجاءت الرباعيات تصويراً لمشاعر ومواقف عشناها بمرارة وأسى ، وترقب وأمل ، بين نكبة أيار وكارثة حزيران "، ثم يقول :

بعشرت أيامنا عاماً فعاماً ... وزرعنا الأرض بؤساً وخياماً
وطوينا بسمة العمر على ... أمل العودة أو نقضي كراماً
لا تسلني يا أخي في عجب ... لم لا تملأ دنياك ابتساماً
أنا مذ مزق قدسي غاصب ... صارت البسمة في شرعي حراماً[1]

صور الشاعر يوميات الفلسطيني على أرضه بعدما حلت به النكبة ، ولم يحدد الشاعر السنوات التي كتب فيها الرباعيات التي بلغ عددها اثنين وعشرين رباعية ، وهي أشبه ما تكون بمذكرات لاجئ فلسطيني ، سجل فيها مواقف من حياته ، بدا من الأثر العام

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 93.

للنكبة وانتهاء بالغزل بالبندقية ... وما بين ذلك وقفات على حياة لاجئ في المخيم وآثار النكبة في حياته ، في العيد وعلى الحدود ، تصور الشاعر وهو يرى أرضه مغتصبة ، وبعض قرى فلسطين مقسمة إلى شطرين ، ويسجل في الرباعيات مشاعر اللاجئ في عدد من المناسبات والمواقف التي تذكره بفلسطين ومنها : رمضان والعيد ،وذكرى الإسراء وانهدام مسجد سقطت عليه قنابل اليهود ، ووقفة على سور القدس المقسمة ، وتعليق على زيارة أول رئيس عربي للقدس ، وعقده معاهدة سلام مع الدولة المغتصبة ، وتطلع إلى استقلال فلسطين ،واللاجئ يرى بلاد العالم كلها قد استقلت سوى فلسطين[1] .

لقد جسد الشاعر في رباعياته الأخيرة حال الشعب وحال القضية ، فالغوث والعيد استفزت حلم الشاعر بالعود الحميد ، ويوم المؤن ورغيف الذل، جسدت أهوال المرارة والأسى التي انتابت الشعب ، فكان منه الجواب على تلك الأحوال ، يقول في يوم المؤن :

وسألت القوم عن ضجتهم ... قيل يبغون دقيقاً وطعاماً
منكب منهم يحاذي منكباً ... وعظام دفعت منهم عظاماً
كم كمى " عربي " ثائر ... كبلوا في كفه الدامي الحساما
وجواد " عربي " قد غدا ... يمضغ السرج ويقتات اللجاما[2]

كان السجن والإبعاد والقتل ديدن المحتل الغاصب وسياسته الأولى نحو أبناء الشعب[3]، لكن الذي زاد من آلام الشاعر ما صاحب ذلك البطش من تنكر عربي ودولي لحال الفلسطيني على أرضه ، إذ اكتفى ذلك العالم المتآمر بلقيمات الغوث التي هدف العالم من ورائها أن يشغل الفلسطيني عن قضيته، ممعننا في إذلاله، وتحويل القضية إلى قضية جوعى، أو البحث عن مأوى، والحقيقة أن الشعب لا يسد رمقه سوى الحرية والاستقلال :

قلت للزائر أن يسألنا ... كيف حال القوم في هذي
إن سألت الصدق فلتصغ لنا ... منذ جفت في مآقينا الدموع
نحن شعب قد سلبنا أرضنا ... نحن في عري وآلام وجوع
وطعام الغوث لا يشبعنا ... نحن لا يشبعنا غير الرجوع[4]

---

(1) عبد الله الخباص ، شاعر الأقصى يوسف العظم ، ص 43 .

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 94 .

(3) انظر :

- زاهر الجوهر : شعر المعتقلات في فلسطين، الطبعة الأولى، المركز الثقافي الفلسطيني، رام الله 1997.
- حسن عبد الله : النتاجات الأدبية الاعتقالية ، طبعة مركز الزهراء للدراسات والأبحاث ، القدس 1994.

(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 94 .

إنه يرفض مساعدات الذل والهوان التي تقدمها وكالة الغوث الدولية ، ولا يرى خلاصاً لمعاناة الفلسطيني إلا في عودته لأرضه .

ومما ضاعف إحساس الشاعر بالأسى والحسرة ، وزاده مرارةً وألماً ذاك الموقف العربي المتخاذل ،وتلك الحكومات الخرساء والقيادات العاجزة ، التي يستحيل على الشعب أن يتجرع مرارتها ، فقال العظم في زفرات عتاب خلف السدود والأبواب ، مصوراً حال الفلسطيني في السجن والإبعاد والذل والهوان ومكابدة الجراح وآلام الاعتقال وويلات القيود وهوان السجون:

لا تسلموني للسجون ... أو تحرقوني في الأتون
فالسوط مزق أضلعي ... والناس حولي يسخرون
أو يضحكون ويمرحون ... وعلى جراحي يرقصون
وأنا الذي يحمي الزمام ... فلا يذل ولا يهون
يا ويح قومي مالهم ... أفلم يعودوا يعقلون[1]

لكأن العظم ولد من رحم قضية فلسطين ، فاكتوي بنار المحتل الصهيوني، وعانى عذابات الفلسطينيين ، وتبقى قضية اللاجئ حاضرة في ذهنه يعرضها كلما لاحت له فرصة أو عنت له خاطرة ، فبحجم تلك المأساة كان الألم يعتصر فؤاده ، وكانت مرارة إحساس العظم بالمؤامرة التي تحاك بليل لتركيع الشعب الفلسطيني ومصادرة أحلامه في العودة إلى الأرض التي طرد منها .

وكما هم الكبار يأنفون لقيمات الهوان ،ولا تسكت أفواههم أرغفة معجونة بماء الذل والانكسار ، يأبى الشاعر ويرفض رغيف الذل الذي يحاول البعض أن يسكت به أفواه المتحدثين أو أن ينسيهم ويلات المعذبين ، يقول العظم : " في حقيبة قديمة بالية عاش رغيف عفن استقر أخيراً .. في أمعائي !![2] .

إن العظم في هذه العبارة القصيرة يختصر مأساة رهيبة عظيمة لشعب معذب، تآمر عليه فيها الصديق قبل العدو، فقد أُودع الرغيف في حقيبة قديمة عاش فيها ما قُدر له أن يعيش ، وتُرك فيها ما قدر له أن يترك ، ثم استقر في أمعاء الشاعر :

جعت في يوم .. فأرسلت يدي ... لرغيف البؤس، من خبز الوكالة
ومضغت العار سماً ناقعاً ... وشربت الكأس ذلاً للثمالة
سلبت أرضي وعاثت طغمة ... في ربوعي تدعى روح العدالة

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 172 .

(2) السابق ص 96 .

إنمـــا مزقنـــا أعـــداؤنا حين بدلنا الهدى درب الضلالة[1]

أما رسالة الشاعر من وسط هذه الويلات ومن بين هذه العذابات ، فهي رسالة المؤمن الواثق بنصر ربه يملؤه الأمل ، يغذه الطموح ، ولا تنال العذابات من عزيمته ولا تفت في عضده ، شأنه شأن الشعب الذي انتمى إليه وكتب من أجله واكتوى بناره فأنى له أن يرضخ ويرضى.

فمن وسط الخيام ومن دياجير الظلام ، ومن تحت كل ذاك الركام ، يبعث الشاعر برسالته التي عاش من أجلها وعزف ألحانه على أوتارها ، وقصر أبياته على معانيها فجاءت منسجمة مع دعوته للوحدة وللجهاد :

يا جموعاً زحفت عبر الخيام وشموعاً في دياجير الظلام
إن في كفي رشاشاً غدا صدئا يزرى لتنميق الكلام
أنا ليث في عريني رابض هدني قيدي وأضناني لجامي
فاجمعوا صفكم في وحدة واذكروا النكبة في ظل الخصام[2]

هذا هو عزم الشاعر وتلك هي طموحاته وأحلامه ، وهذه رسالته إلى كل من يهمه أمر فلسطين ، فلسطين التي كلمت فؤاده وأسرت قدسها أفكاره ، وهتف باسمها في كل قصائده ورباعياته .

لقد تملكت القضية أركان العظم وأسرت فؤاده، وشكلت تجربته وكيانه الشعري ، فقصر على بيانها أعماله وأشعاره ، إنه يخشى أن تنشغل عيناه بملذات الدنيا عن الجهاد في سبيل تحرير معشوقته فلسطين ، يقول : " وأغفلت كل نبضة في قلبي لغير الموقف الذي أحياه والمأساة التي أعيشها .

ساءلتني في حمانا طبيبة أتحب الشوق في عين حبيبة
قلت لا أعشق طرفاً ناعسا وخدوداً أو شفاهاً قرمزية
إنما أعشق صدراً عامراً يحمل الموت ويزهو بالمنية
أدركت سري وقالت ظبيتي أنت لا تعشق غير البندقية[3]

بكل نبضات قلبه الكبير عاش العظم تفاصيل الحالة الفلسطينية ، عاشها بقلب يقظ وإحساس مرهف وأمل عريض ، وفخر كبير حقاً ، لقد استحق العظم أن يكون شاعر الأقصى بكل جدارة واقتدار ، فما زال العظم يرسم في صفحة التاريخ. موقف الشاعر الذي ينطق بصوت الشعب ويحمل همومه ويعيش آلامه ، وهذا والله ديدن العظماء .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص96 .

(3) السابق ص 100 .

فالشاعر عاش آلام فلسطين دقها وجلها عاش تجربة الشيوخ وآلام النساء ، وويلات الأطفال وظلمات السجن وظلم السجان ،التشريد والإبعاد ، القتل والفقر والحرمان والذلة والهوان ، وكان السجن هو أبرز وسائل التعذيب والقهر التي استخدمها العدو ضد أبناء الشعب. ولم يكن السجن وجده بل الإبعاد والقتل والحصار والحرمان.

وما الإبعاد الذي مارسه العدو الصهيوني عام 1991م عنا ببعيد وكان ذلك منذ بداية مأساة هذا الشعب وحتى يومنا هذا فقد غصت السجون بالمعتقلين من أبطال المقاومة وأبناء الشعب بشكل عام ممن قدموا للمقاومة أي مساعدة أو اشتبه الاحتلال في ذلك عليهم.

وكانت حملات الاعتقال الجماعي بعد حظر التجول والتفتيش، فقد كانت تفرض منع التجول وتقوم بالتفتيش ثم تقتاد مجموعات كبيرة من الشبان إلى السجون والمعتقلات[1].

كما قامت باعتقال كل من رأى أو أطعم أو سقى أو سمع أو آوى أو قدم خدمة للفدائيين[2].

وكانت حملات الاعتقال تهدف إلى عزل المقاومة عن الجماهير، وبالتالي تصفية المقاومة، ودفع الشبان إلى الهجرة، نتيجة لما يمارس ضدهم أثناء الاعتقال من تعذيب نفسي وجسدي وليتجنب هؤلاء الاعتقال ثانية بدون مبرر، فيتركوا الوطن إلى غير عودة[3].

والشاعر قد آلمه سجن صديقه الذي نالته يد المحتل فافتقده فإذا هو في السجن حينما خيم العيد، فتذكر صديقه والذكرى تدك فؤاده وتقض مضجعه، فكتب إليه قصيدة (مع العيد).

العيد أقبل والذكرى تؤرقني ... وليس في العيد غير الحزن والسقم
ما عاد في مقلتي طيف يداعبني ... غير الأحبة في الأقصى وفي الحرم
وغير أم غدت تشتاق والهفي ... لهمسة الحب والإلهام ملى فمي
وغير وجه أب بالطهر مؤتلق ... لم تُطْفِه عاديات الشيب والهرم
وقلب أخت جريح ذاب من كمد ... ينوح من شدة التبريح والألم[4]

إن شاعرنا عايش آلام الأم والأب والأخت والأخ الذين يكابدون لوعة الفراق لولدهم السجين وما غابت عن ناظريه أطياف الأحبة في القدس والأقصى، والأكثر إيلاماً للشاعر والأشد فتكاً بقلبه أن من يسومونهم سوء العذاب هم حثالات الأمم والمارقين من أبناء صهيون.

وطيف ناجي وإخوان له صبروا ... على عذاب حثالات من الأمم
ناجي يناجي قلوباً بالهدى عمرت ... القيد يقتات من زندي ومن قدمي[5]

---

(1) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، معاملة المدنيين وأسرى الحرب العرب، الوثائق، ج1، 1968، ص 33، 34.

(2) الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1967، ص 538.
وسائل تحقيق جديدة في السجون الإسرائيلية، عطا صالح، اليوم السابع، تموز، يوليو، 1985، ص 24.

(3)، (4) يوسف العظم :الأعمال الكاملة ص 36.

(5) السابق ص 169 .

وشاعر الأقصى شُغف بالمعارضات، وظهر ذلك في غير قصيدة من ديوانه الذي بين أيدينا. فهذه معارض لقصيدة للشهيد الإمام سيد قطب "أخي" عارضها شاعرنا "لأخي من وراء القضبان" وقد كان سيد قطب قد كتب قصيدته وهو في سجون مصر فاستحضر تلك المشاعر الجياشة والذكريات التي حلق فيها الإمام الشهيد ليكتب معارضته الطويلة يتحدث فيها عما يخالج فؤاده ويزلزل أركانه.

أخي من ربى الأردن الصابر ومن حرم المقدس الطاهر
أبثك شوقاً وبشرى غد كريم من الخالق القادر
بتطهير أرض الهدى من دخيل وكل ظلوم طغي فاجر[1]

والشاعر هنا لا يقتصر فكره على التبشير بتحرير المعتقل بل بتحرير الأرض وهذا ما يطمع فيه ويسعى إليه كل أبناء الشعب الجريح. وهذا يدل على علو همة الشاعر وعظيم ما يرنو إليه ويتطلع نحوه فليس مجرد التحرر لفرد أو صديق بل تحرر كامل للأرض والإنسان.

وما غاب عن الشاعر ما يعانيه المعتقلون في زنازينهم وأقبية السجن الضيقة المظلمة.

أخي كلما مر في خاطري خيالك أو هاجت الذكريات
سمعت الحديد وجر القيود ولسع السياط وسحق الرفات[2]

ولعل هذا ما اشتهر به المحتل الغاصب من استخدام أساليب للتعذيب فاقت وحشية النازية، فمنها التعذيب النفسي، الذي كان يلجأ إليه المحققون بدرجة كبيرة وذلك لعلمهم بأن الانهيار النفسي هو الأهم وهو الأكثر إيلاماً ووحشية تجاه المعتقل. فعدا عن التحقير والشتم والسباب بأقزع الصفات والكلمات فقد روى كثير من المعتقلين تجارب غاية في الوحشية وأحط في المقدار.

ولعل ما يذكره المعتقل محمد الغريب من معسكر رفح في شهادته المشفوعة بالقسم أنه أثناء التحقيق معه وقع مغشياً عليه من شدة الضرب فلما أفاق أحضر له جندي كأساً من الماء، فلم يتردد في شربه، فإذا به قذارة وأجبره الجنود على شرب الكأس بجميع ما يحتويه[3].

هذا إلى جانب ألوان العذاب النفسي المتعلق بالحرمات والعورات والمحارم والتهديد باستدعاء الأمهات والأخوات إلى جانب الكثير من أساليب المخابرات الأخرى مثل ادعاء معرفة كل شيء عن المعتقل وأهله وبناته وزرع الشك في نفسه ببث الكلمات الفاضحة عنهن أو ادعاء شهادة آخرين عنهم في منطقة سكناه.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 423.

(2) السابق ص424 .

(3) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، معاملة المدنيين، ج1، ص 16.

وقد تداعت الذكريات عند الشاعر وتنادت في خاطره ذكريات سجن آخر من سجون النظام العربي ، فهذا ليمان مصر الرهيب وقد عبر عنه بليمان مصر حيث تحولت مصر كلها إلى ليمان تسجن فيه قيادات الإخوان ويسجن فيه فكر الإخوان أيضاً فالسجن لم يكن سجناً للجسد بل سجن للفكر والوعي الإسلامي الذي حمله هؤلاء الأحرار.

بكل احترام وكل اضطرام سنذكر ليمان مصر الرهيب
ففيه الجناة وفي الأباة وفيه الأديم الطهور الخضيب
دم الحق يملأ ساحاته إلى الله يشكو الهجوم المعيب
على فئة الخير ما أذنبت سوى أن تنادت لحق سليب
وزنزانة ضمت المؤمنين ولكنها كالفضاء الرهيب
فأن السجون وأن القيود وأن الرصاص وأن اللهيب
وأن أريج الدماء الشذي دفاعاً عن الحق أمر يطيب[1]

لكن، دون أن تخبو في روحه ووجدانه جذوة الأمل، وعظمة التفاؤل بالعودة والانتصار ليكتبهامترنما أنشودة وأغرودة في كل قصائده، ويعزفها لحناً خالداً على مر العصور وزاداً لسائر الأجيال .

كم بنى الظالمون للبغي صرحاً من ضلال في غفلة الحق قاما
ودعى ياقوم إثر دعي وغشوم عن الهدى يتعامى[2]

والظالم في نظر الشاعر مارق لا مقام له ، فهو يجيء في غفلة الحق ، أو لإرضاء دهاقنة الكفر وأوليائه، فهم على درب فرعون ومصيرهم مصيره .

فرعون تمادى عن سفه بالسوط يذل رعاياه
وعلا في الأرض وأفسدها ضجت لله ضحاياه
ضرب الإسلام وكبله كي يرضي موشي وإلياهو[3]

يعيش الشاعر تجربة الشعب المقهور بعلو فرعون وسياط جلاديه ، وفساد زبانيته قهراً وسجناً وتشريداً وإبعاداً واغتصاباً ، ولكن بارقة الأمل تبدد ذلك كله إن قامت على أمر دينها الذي هو عصمة أمرها .

لن ننسى عهداً يجمعنا بضفاف النيل قطعناه
وإخاء وحد أمتنا من قال أبانا ننساه

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 425.
(2)، (3) السابق ص 169 .

فليـــالي الظلـــم يبـــددها فجـــر الأحـــرار ببـــشراه
وظـــلام الحقـــد يمزقـــه بـــسراج الـــروح أضـــأناه
ما زلنا نرقـب فـي شـوق رداً نتلـــوه ونرضـــاه
وإذا بـــالرد يطمئننـــا مـــا أســمى الـــرد وأقـــواه
النـــور يـــزين صـــفحته وبـــصدق الـــشوق تلونـــاه
وعليـــك ســـلام الله أخـــي تهديـــه قلـــوب وشـــفاه
الظلـــم كـــسرنا شـــوكته وظـــلام الـــسجن طوينـــاه[1]

هذه روح الشاعر السامية وأمل المؤمن بنصر الله في دياجير السجن وظلـم الـسجان ، وتفاؤل الواثق بعناية ربه فما استكان شاعرنا وما ينبغي له ، وما عرف اليأس له طريقاً ولا يليق به، إذ مضى يغرس ذلك منهاجاً أصيلاً في نفوس الشباب ويبعث فـيهم روح الطمأنينـة إلـى نصرآت لاريب فيه .

أما الصامتون في تلك السجون قهرا ، فقد كان الأبلغ صمتهم، والأصدق قولهم ،لأنـه الأقوى من ضجيج المدافع أو القذائف والأعلى من رنين السلاسل حول المعاصم، لأنة ينتمـي للحق وان اسكتوه وللنصروان قيدوه .

والصمت أقوى من رنين القيد .. حول المعـصم
والصمت أكرم عند ربك مـن سـفاهة مجـرم
إن تـاه بـالظلم الغـشوم فتـه بعـزة مـسلم
ولئن خطوت إلى العلى فعلـى جبـاه الأنجـم[2]

هذا طموح الشاعر وإلى هناك يرنو بروحه إلى العلياء ،وفي أفق السماء يحلق بهمة لا تعرف الانحناء ، قوته في ذلك تقواه، وميرته طاعة مولاه . منكراً على الانهزاميين هـذا الانثناء أشد الإنكار، وقبحه أشد قبح حين قال عن أمة الأصنام:

قد حطمت بالجهـل أقلامهـا وقطعـت بالحقـد أرحامهـا
وبعثـرت رايـات أمجادهـا ونكست في العـار أعلامهـا
واستسلمت للكفـر مـذعورة وضيعت في التيـه إسـلامها
وألهـت جلادهـا وانثنـت تسجد للسوط الذي سـامها[3]

فأولئك في نظر الشاعر، قد رهنوا أنفسهم رهينة للسجان ولسوطه، بل وألّهت الجـلاد وسجدت له في تصوير للدركات التي وصلتها أمة خلعت عن ذاتها رداء الإسلام .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 170 .
(2) السابق ص 43 .
(3) السابق ص 44 .

وليت حال الأمة قد توقف عند ذلك، بل أنها علقت الأتقيـاء علـى حبـال المـشانق وغصت بهم السجون ، وترك الرويبضة وأشباه الرجال يتصدرون أمر الأمة ، ويوجهون دفة أمرها ، فمروا بها على جيف الكلاب .

كم نقي علقت فـي الحبـال وكم دعي عد بـين الرجـال
الحق فيها ألجمـت صـوته لا ترضى ترنيمة من بلال[1]

أجل ؛ هذا حال أمة ، سكت فيها صوت الحق أو أُسكت ، وعلا فيها صوت الباطـل وصال وجال .

هذا حال الأمة ، وهذا حال زعمائها ، وحال من يرتجي منهم النصرة والتأييد ، وهذا ما انتهزه الأعداء وخططوا له بليل يقول :

ومع الليـل والظـلام تـراءت مـن بعيـد فيـالق العـدوان
تحمل الموت والدمار وترسـي في بـلادي قواعـد الطغيـان
ولغت في الدم الزكـي لطفـل ولشيخ محدودب الظهـر فـان
وأبادت من الـصغار جموعـاً روعـت بعـد هـدأة وأمـان
المحاريب أظلمت بعـد فجـر فيـه تـسري ترتيلـة القـرآن
والأذان الحزين دوى جريحـاً فـسمعنا الأذان غيـر الأذان[2]

ويصور الشاعر ببراعة واقتدار، حال الأمة بعدما غفلت القيادات وسجدت للشهوات ، يصور حالها مع عدو ماكر لعين ، سامها سوء العذاب ، وأرسى فيها قواعد الطغيان ، قتـل الأطفال ، وروع النساء ، وما راعى حرمة المحاريب ولا دور العبادة ، فهذه المحاريب قـد أظلمت والتراتيل حزينة ترددت ، وما عاد الأذان هو الأذان ، ولا أحد يرد ذلك الطغيان[3] .

ويسجل الشاعر صوراً مروعة من إرهاب هذا المحتل الغاشم ، وما اقترفت يداه مـن مذابح و مجازر، وما سام هذا الشعب من سوء العذاب ، فهذه رياض الأطفال يمزقهـا بآلتـه الحربية وبنيران حقده وغدره .

روضة الأطفال ماذا قد دهاهـا وبنار الموت " صهيون " رماها
بدل الزهر .. وحبـات النـدى مزق الأكباد قد غطت رباهـا

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 44 .

(2) السابق ص 48 .

(3) انظر : انتقاد الشعراء لمواقف القادة والزعماء العرب في : نبيل أبو علي : في نقد الأدب الفلـسطيني ، الطبعة الأولى ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2001 ، ص 72-156 .

لم يراعوا حرمـــة العلـــم ولـــم يخشعوا للطهر قد زان الجباها
ليس بالشكوى يـــرد المعتـــدي إنما بالنار يـــصلون لظاهـــا[1]

لقد بطش المحتل بكل قوة ، وطال غدره كل فلسطيني ، وتمادى العـــدو فـــي صـــلفه وطغيانه ، لا يرده أحد ولا تردعه قوة أو سطوة ، حتى طال ذلك جيلاً بل أجيالاً بأكملها .

وجيلنا ضاع في تيـــه يمزقـــه ودربه ضل قد دكتـــه مأســـاة
الجهل والفقر والطغيان يسحقه والكأس والجنس مأساة وملهاة[2]

لقد عاش الشاعر بوجدانه ومشاعره مأساة الشعب، وسحق قلبه ما رآه وما سمعه ومـــا علمه ، عن جرائم هذا المحتل الغاشم والزعامات لاهية سكرى ، لا تعرف وجهة، ولا تنكر على هذا العدو عدوانه أو جرائمه ، فمُزقت الأمة مزقاً وتفرقت فرقاً وضلت الطريق ونأت عن الجادة بجهلها، وجهل زعمائها وقادتها ، فاستباح العدو حرماتها ونال من عزتها ومزق صفها .

كسرنا قوس حمزة عن جهالة وحطمنا بـــلا وعـــي نبالـــه
فمزقنـــا العـــدو ولا جهـــاد وشردنا الطغاة ولا عدالـــة[3]

ولم تكن تلك مأساة الشعب الفلسطيني وحده ؛ بل كانت طامة الأمة ومصيبتها الكبرى حينما عرف العدو طريقه إلى وحدتها ومزقها شيعاً وأحزاباً هذا ما نراه في قوله: .

(ليس في شعري هجاء للرجال ... ولكنه هجاء للضلال ، ومعـــذرة للخيـــرين مـــن أصحاب الألقاب ... لأنهم أنقى منها وأبقى)[4] .

وفي هذا الحال المرير، والواقع الأليم ،والجروح النازفة والأشلاء المتناثرة والقلـــوب المذبوحة! هال الشاعر ما كانت عليه الأمة من سكر. وتيه وغياب أشبه بالخدر يـــسري فـــي أوردتها يقول العظم :

فدماء الأحبـــاب فـــي كـــل بيـــت تتنـــــزى وتبعـــــث الآلامـــــا
وجراح " الأقصى " جراح الثكـــالى ودموع "الأقصى" دمـــوع اليتـــامى
أيها الـــشعب خدرتـــه " الليـــالي " مـــــثقلات تفجـــــرت آثامـــــاً[5]

ولم تقتصر نكبة الأمة على ضياع مقدساتها وأقصاها ، بل تعدته في نظر الشاعر إلـــى نكبة أعظم وأخطر ، وهي نكبتها الفكرية ،ونكبتها في زعمائها الذين أكملـــوا فـــي نظـــره دور العدو، فساموا شعوبهم سوء العذاب ، بل وإمعانا في الضلال ،أطلقوا العنان للمغنيات أن تفعـــل

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 75 .
(2) السابق ص 76 .
(3)، (4) السابق ص 77 .
(5) السابق ص 79 .

بعقولهم الأفاعيل فكانت عدتهم في حربهم أغانٍ وحفلات راقصة ماجنة تدمر العقول والقلـوب ، ولعل هذا مما تسبب في ضياع القضية وزاد من معاناة الشعب وضياع الأرض والمقدسات .

ولم يقتصر ذبح الفلسطينيين في فلسطين وحدها بل طالهم الذبح حتى فـي الـشتات ، ولاحقهم الموت في كل البلاد وكأنه قدر يلاحقهم أينما حلو أو ارتحلوا .

فهذه فلسطينية تروي قصتها في بيروت وتصف حالها الذي يدمي القلوب ويدمع العيون فيقول رحمه الله.

ذبحوني مـن وريـد لوريـد وسقوني المر في كل صـعيد
مزقوا زوجي فلم أعبـأ بهـم ومضوا نحو صغيري ووحيدي
غرسوا الحربة فـي أحـشائه فغدا " التبي" أصـداء نـشيدي
دمروا بيتي .. وهل بيتي هنا إن بيتي خلف هاتيك الحدود[1]

والشاعر أبو جهاد يعيش تلك الآلام بعقله ،وقلبه ،ووجدانه واصفاً حال الفلسطيني في الشتات وبعدما دمر بيته البديل أو خيمته التي أغاثته بها وكالة الغوث .

ومن وسط هذا الحطام والركام ، ومن قلب تلـك المآسـي والآلام تنطلـق صـرخة استغاثة ليجسد بها الشاعر مأساة الشعب الذي يعض على الجراح .

قد عفر الوغد وجهي بالدم القاني ومزق العلج أثـوابي وأردانـي
فصحت عل صلاح الدين يسمعني أو عل حيدرة الفرسان يلقاني[2]

لقد وصل بالشاعر أن ينادي العظماء في قبورهم ويستنجد برفاتهم عله يجد فيها مـا افتقده في الأحياء ، ولكن أنى ذلك ، لكنه الأمل الذي يحدو الشاعر عل الصرخة لا تضيع في واد أو تكون نفخاً في رماد .

ويعود شاعرنا ليصرخ مستنجداً في زفرات حرى تنطلق من قلب اعتصره الألم رغم أنه مفعم بالأمل جراء ما يعانيه الفلسطيني خاصة، والعربي عامة فـي الـسجون ولا مبـالاة سائر أبناء الأمة بتلك المعاناة يقول.

لا تـسلموني للـسجون أو تحرقوني فـي الأتـون
فالـسوط مـزق أضـلعي والناس حـولي يـسخرون
أو يـضحكون ويمرحـون وعلى جراحي يرقـصون
وأنا الذي يحمـي الزمـام فـلا يـذل ولا يهـون

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 124 .

(2) السابق ص 125 .

يـــا ويـــح قـــومي مـــالهم أفلـــم يعـــودوا يعقلـــون[1]

لقد نالت سياط المحتل من جسد الأمة وألهبت قلب العظم، وسخر بها العدو وضحك من جهلها ، بل وضحك من حالها الشامتون ورقص على جرحها الراقصون ، وهذا الشعب وحـــده يحمي حمى الأمة بأسرها ويصون بيضتها ، ويذود عن مقدساتها ، وعن كرامتهـــا ، ويتـــساءل الشاعر في مرارة وأسى عما دهى القوم وما الذي سلب عقولهم حتى تركـــوا الـــشعب يـــذبح ويعذب ويعود ليتساءل من جديد :

لا تـــــسلموني للعـــــذاب في غير معترك الحـــراب
والليـــل يطبـــق بـــالظلا م فلا شـــعاع ولا شـــهاب
لولا ضياء فـــي فـــؤادي شع مـــن نـــور الكتـــاب
لأ ظـــل نـــسراً شـــامخاً يرتـــاد آفـــاق الـــسحاب
والظـــالمون الغاشـــمون المرجفون إلى ســـراب[2]

والشاعر بالرغم من مصابه وبالرغم من ظلم ذوي القربى مع الأصحاب[3] ، وبـــالرغم من طول الليل وظلمته وإطباقه ، إلا أن الضياء ينطلق من قلبه اليقظ الراسخ اليقـــين، والـــذي بإيمانه يحلق في سماء العزة ولا يأنف الهوان .

والشاعر في نهاية قصيدته يرسم معالم الطريق وسبيل الخلاص ، وهذا شأنه في نهايـــة غالب قصائده ، والمقاطع الشعرية داخل القصائد نفسها ليبين سبيل الخلاص ، وهو إيمان يعمر القلوب ويرسخ فيها اليقين بنصر الله المؤزر المبين ، ثم بالعدة والعتاد والتضحية والفداء محدداً ذلك ، ومجسداً طريق المؤمنين نحو القدس .

والشعب يزحف إيمانـــاً وتـــضحية ما عاد يوقف زحف الشعب تنكيـــل
وصيحة الشعب حـــراً فـــي تدفقـــه مـــن المـــساجد تكبيـــر وتهليـــل
حيوا الجموع التي هبـــت لنجدتـــه يقود ركب الهدى للنصر جبريل[4]

وتستيقظ في روح الشاعر ذكريات بدر الكبرى ،وتتداعى المـــشاعر وتستنفرالـــشاعر نحو العلا ، ليرسم لوحة النصر بريشة الفنان المؤمن بربه الواثق من نصره ، والمعتمد عليه وحده بعدما فقد الأمل في زعامات زائفة وجيوش نائمة:

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 172 .

(3) انتقد الشاعر نزار قباني الزعماء العرب بشدة، وهاجمهم بأبشع الألفاظ، ووصفهم بأحقر الأوصاف قبـــل أن يضجر منهم ويقول : ليس في الأقوام قوم اسمهم عرب فحربهم خيانة وسيفهم خشب
انظر : نبيل أبو علي : نزار قباني .. شاعر المرأة والسياسة ، طبعة مكتبة مدبولي ، القـــاهرة 1999 ، ص 173-205.

(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 205 .

والقدس تزدان في ساحاتها ارتفعت بيـــارق الحـــق تحميهـــا بهاليـــل
تكلم الحجـــر القدســـي فانتفـــضت سواعد الـــصيد وانـــدكت أباطيـــل
وجند صهيون قد خابت مطـــامعهم ما عاد ينفعهم ســـجن وترحيـــل[1]

ويرسم الشاعر صورة أخرى للشعب الثائر الحر الذي أبى الذل أو الخضوع ، فراح ينفض عن نفسه غبار السجون وظلم السجان ، فما ضعف أمامه وما استكان:

والقدس أرض العلى مـــذ عرفـــت يبـــارك القـــدس قـــرآن وإنجيـــل
راحت تحطم قيـــد الـــذل شـــامخة لا ترتضي أن يذل القدس تدويل[2]

وديدن الشاعر ديدن الأحرار الكماة ،الذين لا يعرفون الذل ولا تلين لهـــم قنـــاة ، ولا ترهبهم السجون ، ولا تنال من عزائمهم سطوة السجان ، مهما تعالى أو طغى به الطغيان :

لئن طغى في رباها العلج وأســـفى ومـــزق الـــشعب تـــشريد وتقتيـــل
فـــــإن همتهـــــا بـــــالله عاليـــــة وليس في رفضها للـــذل تأويـــل[3]

وفي قلب العظم إيمان لا نفاق فيه بعدالة قضيته وثقة بنصر ربه ، فهو ضارع إليه منقاد نحوه ذليل إليه، يحدوه أمل بالنصر لا يرقى إليه شك فلا تلين له قناة ،أو تكل له عزيمة، وهـــذه أولى خطوات الجيل نحو النصر، الثقة بالله واليقين بنصره إن صدقت النية وتسامت العزيمة.

فالنصر يمسي قريباً حـــين نقـــصده والنصر حين يراد النصر مأمول[4]

ويخاطب الشاعر بأنفاس نارية وعزيمة حديدية يخاطب الشعب المقهـــور المحاصـــر المسجون ، فيقول في مقدمة إهداء قصيدته :

"إلى الأرض التي ما ألقت السلاح سلاح الإيمان يوماً على مر العهود .

إلى الرجال البواسل الذين يورون النار ويشعلون الفتيل كلما ركن الناس إلى الدعة ، واستسلم البعض لهوان الواقع"[5] .

يستنهض الشاعر عزيمة الشعب ، ويبث فيه روح المعالي ليجسد أسمى معاني الشعر المقاوم والشاعر المجاهد باللسان والسنان ، فيذكي بكلماته وقصائده في الأمـــة روح الجهـــاد وبلسم العافية بعد السقم لتقوم الأمة من كبوتها وتستجمع عزيمتها وتقارع عدوها رغم السجن والحصار والفقر رغم القتل والحرمان:

مزقيهـــا يـــا غـــزة الأحـــرار وارفضي العيش في ثياب العار

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 205 .

(3)، (4) السابق، ص 206 .

(5) السابق ص 207 .

واشعلي النار في كيان دخيـــل ليس يحمي الديار مثـــل النـــار
وانفضي عنك كل قيد وقـــومي كي تقودي جموعنـــا للثـــار[1]

هذا وقد اجتهدت أيما اجتهاد ، فما وجدت في كلمات الشاعر أية لفظـــة تـــدل علـــى تراجع أو نكوص أو هزيمة أو استكانة ، حقاً أن شاعرنا يـــصوغ أنـــشودة العـــزة بالحـــان الصمود،وقاموس النصر المبين، من قلب الفاجعة ، ويعزف لحن الخلاص من أتون الـــسجون ومن تحت سياط السجان:

أطبق الصمت واستبد الظـــلام وتمادى العدى وطال انتظـــاري
فانبرى فتية الرســـول بعـــزم من صهيب ومصعب وضرار[2]

هذا ما أراده الشاعر لهذه الأمة المقهورة والشعب الأسير ، وهذا ما طمح له وقـــصر عليه قصيده وشعره .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 207 .

(2) السابق، ص 207 .

المرأة في أتون النكبة

المرأة في موكب الجهاد :

لم يغفل العظم دور المرأة في المجتمع ، وكبير جهدها في إعداد الرجال ، وعظيم مكانتها التي حباها إياها الإسلام العظيم ، فخصها في شعره بالعديد من القصائد والأشعار ، إيمانامنه بكبير مكانتها وعظيم شأنها، فتحدث عن الأم ومكانتها والأخت واحترامها والمرأة المجاهدة والمرأة الفلسطينية في أتون النكبة .

يقول العظم في رسالة إلى " المرأة الفلسطينية في موكب الجهاد المبرور " بعنوان وسطري صفحة للمجد زاهية .

المرأة الفلسطينية في مسيرتها الربانية وتحركها نهو أهدافها النبيلة بناء وعطاء ، تسهم في تدمير العدو وتحرير المقدسات ، هذا نمط فريد من التعامل مع أعداء الله الغاصبين! لقد انطلقت تواجه أعداء الخير والبر والمرحمة بالحجارة و_ تلطم بالكف المخرز _ ولا تبالي أن يسيل دمها على الكف الطاهر والوجه الناصع النقي في دنيا الجهاد المبرور .. وهي أنموذج فذ في الشموخ مستعلية على الباطل .

إليها حيثما كانت على أرض الفداء والعطاء أبعث بتحية من يحب فلسطين ويهون فيها عواصف التصدي والجهاد ونسمات الحرية والاستشهاد[1] .

هذا خطاب العظم للمرأة في فلسطين ، وتلك كلماته تنم عن إكبار عظيم وتقدير كبير للمرأة المجاهدة المصابرة .

خوضي غمار الردى أختاه وانطلقي ... وبددي ظلمة المحتل والغسق
ورددي آية أضحت لنا أملاً ... تجتث منا جذور الخوف والقلق
إن تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا ... واستبشروا فحليف النصر كل تقي
واستلهمي من رحاب الخلد ملحمة ... منها يفوح عبير طيب العبق
وسطري صفحة بالنور زاهية ... على أديم سماء المجد والورق
وحدقي في جبين الشمس شامخة ... وعانقيها بوجه مشرق ألق

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 218 .

وانظر : – عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر ص 372 .

– نجيب الكيلاني : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1981 ، ص 78 .

أما الأم : فقد كان لها في نفسه غظيم المكانة وعظيم القدر ملتزماً تعاليم الدين الحنيف ووصايا المصطفى صلى الله عليه وسلم بالإحسان للوالدين وعظيم وصيته بالأم.

أدرك العظم وبامتياز أهمية تلك الوصايا وطبق ما جاء فيها واقعاً في حياته ، وسجل ذلك أشعاراً وقصائد مليئة بالوفاء والعرفان للأم من شاعر وفي ذي حس مرهف وقلب حي بالإيمان واليقين.

مثّلت الأم للعظم منبع النور ومنبع الحنان ومنهل الحب الذي لا ينضب وهي صاحبة كل فضل وكل نعمة يرفل الشاعر فيها، مادية كانت أو معنوية :

قالوا حياتك نور قلت يرسله ... قلب كبير يشع النور مذ كانا
قالوا حياتك حب قلت واهبه ... من هدهد القلب إشراقاً ووجداناً
قالوا حياتك عطر قلت مصدره ... من أنبتت في حنايا القلب ريحاناً[1]

بهذه المشاعر الدفاقة والكلمات الرقراقة والألفاظ الرقيقة البراقة تتبدى مكانة الأم في نفس الشاعر، والذي أبى إلا أن يخصها بقصائد عديدة وكلمات تحمل محبة ظاهرة أكيدة ؛ من ذلك القلب الدفاق بالعرفان للأم وعظيم جميلها .

وبكل فخر يملؤه التواضع ورقة تملؤها المحبة، ينسب العظم كل فضيلة تحلى بها وكل الشمائل التي زينت فؤاده وقلبه إلى أمه عرفاناً منه ووفاءا :

قالوا حياتك بر قلت صانعه ... صدر كبير غدا للبر عنوانا
قالوا حياتك نبع قلت فجره ... من فاض من موطن الإيمان إيمانا
قالوا فمن تلك في دنياك تملأها ... عطراً ونوراً وإلهاماً وإحساناً
فقلت أمي التي هامت بها كبدي ... في برها أنزل الرحمن قرآناً[2]

الأم ملهمة وواهبة وصانعة ومربية ومعلمة، ولها يرجع كل ذاك الفضل وكل العطاء، الذي أفاض على الشاعر كل الشمائل والفضائل فلزم الشاعر أمر ربه ووصية نبيه فكان نعم الابن ونعم الوفي البار .

وأما ذاك الحنان الذي نلمسه بين كلمات الشاعر وتلك المشاعر الرقراقة فقد كانت الأم هي الواهب الأول والمنهل والمنبع الدفاق الذي أفاض على الشاعر عظيم الحب والحنان :

لولا حنانك أمي من يعلمنا ... حباً ويملأ بالتحنان دنيانا
أنت التي كابرت في حملنا زمناً ... وأرضعتنا لبان الخير ألواناً
جزاك ربك يا أماه مغفرة ... وجنة الخلد تكريماً ورضواناً[3]

وأراه رحمه الله بارا بأمه كل البر محسن كل الإحسان فهو،فاضل بطبعه ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 82 .

وقد إلتزم العظم البر بوالدته ووالده قولاً وعملاً سراً وعلانية محققاً قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف " عن أبي أُسيد قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من بني سلمة، وأنا عنده، فقال : يا رسول الله، إن أبوي قد هلكا، فهل بقي لي بعد موتهما من برهما شيء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عُهُودهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة رحمهما التي لا رحم لك إلا من قبلهما، قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه! قال : اعمل به"[1].

يختم العظم بهذه الدعوة الكريمة والرجاء الرقيق قصيدة تحمل في مضامينها أعظم معاني الحب وأجل معاني العرفان والوفاء لأمه التي كانت منبع حنان دثر فؤاده ، وعطر زين دنياه، ولحن جمل حياته، فكانت الأم أعظم واهبة وأغدق معطاءة غمرته بكريم خصالها وعظيم عطائها ، فتحدر ذلك من فؤاده. حباً لأمته ووفاء لأمه وانتماء لأمته وإخلاصا لبلده ، فكانت نعم الأم ، واهبة له كل معاني الحب والوفاء معلمة إياه كريم البذل والعطاء ، غارسة فيه خصال الكرم و صادق الانتماء.

"**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**" تلك آية زين بها العظم قصيدته من ديوانه "قناديل في عتمة الضحى"، قدم له العظم بقوله[2]: "... أما عتمة الضحى فهي في الأعماق أبشع ظلمة وأشد عمى، حيث لا تنفع معها كل مصابيح الكون ولا شموع العالم ولا شمس الضحى التي تملأ أرجاء الأرض نوراً... ذلك أن عتمة الضحى ظلام في القلب وعمى في البصيرة... ومن هنا فإن الكلمة المضيئة وحدها هي تنتصب معلماً مشعاً في جنبات الطريق تقود الحائرين وتبصر الضائعين من أين يسلكون وأنى يتوجهون لأنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" ! .

أما عن غاية العظم من هذه الكلمات المضيئة والعبارات الوضيئة فأراها غاية عظماء المصلحين الناصحين الذين أرادوا الخير للأمة والعزة لأبنائها لأنهم أدركوا أن الأمة لا تقوم لها قائمة إلا بحسن الخلق ، وأن أولى خطوات التقدم نحو الحضارة هي محاسن الأخلاق وذلك حق لا مراء فيه وغرة ذلك ومستهلة بر الوالدين ولا مراء .

يقول العظم[3] : " وقد جاءت قصائدي هذه " قناديل في عتمة الضحى " لتسهم مع صناع الكلمة المضيئة الهادفة وحملة مشاعل الفكر النير في صنع فجر صادق في عصر أطبقت فيه الظلمات على إشراقة الضحى تخنقها ، لعلي أكون بذلك قد أوقدت شمعة أستمد

---

(1) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (162/2)، ذكر وصف بر الوالدين لمن توفي أبواه في حياته (418)، محمد بن حبان بن أحمد التميمي أبو حاتم الدارمي، البستي (ت 354)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار النشر : الرسالة، بيروت، 1414هـ-1993)، الطبعة الثانية.

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 155 .

(3) السابق، ص 156 .

ضياءها من قول ربي سبحانه : " **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** " (النور : 35) .

كبيرة هي غايات الكبار كبر آمالهم ، عظيمة عظم طموحهم ، صادقة صدق كلماتهم، ومواقفهم .

والعظم فارس في ميدان الشعر فارس في ميدان النصح والإرشاد للأمة ونشئها وأبنائها ، هاله ما أحاط بالأمة من دمار وانحدار فانبرى ناصحاً ومرشداً في كل ميدان، وفي كل حين يسدي لأبنائها النصح والإرشاد، والأمل يحدوه ، أن تنهض الأمة من كبوتها وتقال من عثرتها ، ليكتب قصيدتين "أمك" ثم "أبوك" ، ينكر على بعض الأبناء بعضاً من قصورهم نحو الأمهات ونسيانهم أو تناسيهم لفضل الوالدين ليتحدث فيهما للولد عما يختلج في قلب أمه من رقيق الشعور نحو ولدها الذي يقسو عليها وينكر جميلها :

أتلقاها بوجه غير طلق ... وقلب لا يرق ولا يلين
وتمنحها من الدنيا فتاتاً ... وتحسب أنك البر المصون
يطوف فؤادها في كل مشوى ... تحل به وترعاك العيون
فكم ضحكت لكي تبقى سعيداً ... وبين ضلوعها قلب حزين[1]

وكأني بالعظم وهو يخاطب أبناء الأمة ويلامس بنصحه جوهر قضيتها ، فقضية الأمة بعامة قضية أخلاق وتربية ،و لا أقول إنها أفلست من كل خلق بل إن أعداء الأمة قد مسخوا شمائل أبنائها وبدلوها بسلوك مشين زائف .

وفي ميدان المقاومة والجهاد تعرض العظم للمرأة، ودورها في ذاك الميدان وتعرض كذلك لما لاقت من ويلات وأحزان ، وتحدث بلسانها واستنطق فؤادها المكلوم الجريح :

حدثتني حرة في المجلس ... بحديث الطهر عف النفس
تسأل الغادة عن أيامنا ... عند يافا عند باقي القدس
في غد يشرق فجري ضاحكاً ... ويذيب النور ليل الغلس
إن لقيتني في عريني أسداً ... فاطمئني لخلاص المنكس[2]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 174 .

(2) السابق ص 97.

لقد لاقت المرأة من الويلات ما لاقى الرجال ، ولعل الرجال قد خلقوا لـذلك ، أو أن الصعاب قد خلقت لهم ؛ فماذا عن القوارير تلكم المخلوقة الرقيقة مادة ومعنى ؟ وهل تـورع المحتل عن إلحاق شديد الأذى بهن ؟ أم هل في شرعته ما يردعه عن ذلك ؟ أو في قاموسـه ذكر لرأفة أو رحمة بأم أو طفل ؟

إن التاريخ يندى جبينه عندما تفتح صفحات المذابح والمجازر التـي اقترفتهـا أيـدي الصهاينة بحق الشعب ، بل إن هؤلاء المارقين ساموا المرأة الفلسطينية سوء العـذاب ، وذلـك خلافاً لكل الشرائع السماوية والقوانين الأرضية التي حرمت التعرض للنساء أثنـاء الحـروب ، وتحت حكم الاحتلال تلك حقيقة دونتها كل تواريخ الأرض .

لقد ارتكبت إسرائيل بحق المرأة جرائم وجرائم سجلتها صفحات التاريخ منذ عام 1969 حين أصيبت بغزة (95) فتاة نتيجة لإطلاق النار عليهن من جنود الاحتلال . وفي خان يـونس بتاريخ 1969/2/11 أصيبت (70) سيدة استشهد منهن عشرة . وفي 1969/3/15 ألقيت قنبلـة بجوار مدرسة هاشم بن عبد مناف فجرح (18) طالبة[1] .

ومسلسل جرائم الاحتلال ممتد حتى يومنا هذا ضد المرأة الفلسطينية قتلاً وسجناً وإبعاداً وحرماناً ، سواءا كان في داخل فلسطين أو خارجها .

يتحدث العظم بلسان إحداهن تروي قصتها في بيروت :

ذبحوني مـن وريـد لوريـد	وسقوني المر في كل صـعيد
مزقوا زوجي فلم أعبـأ بهـم	ومضوا نحو صغيري ووحيدي
غرسوا الحربة فـي أحـشائه	فغدا " التكبير " أصداء نشيدي
دمروا بيتي ... وهل بيتي هنا	إن بيتي خلف هاتيك الحـدود
وتلفـت فلـم أعثـر علـى	غير أبناء الأفـاعي والقـرود
أين نفط العرب ؟ مذخور لمن؟	أين أبناء الحمى درع الصمود؟[2]

وأصداء هذا التساؤل المرير ما زال يتردد في كل أرجاء الأرض وكأن العظم يـستنطق آلاف الأفواه المغلقة ويستخرج كلماته من بين ضلجات تلك النفوس .

وصمود المرأة ما كان أدنى درجة ولا أقل شموخاً من صمود الرجل، بل إن الأم كانت مدرسة للصمود تغرسه في قلوب الرجال :

ولـوائي فـوق هامـات الـورى	يتحـدى فـي العلـى كـل البنـود
قـل لمـن يلهـث فـي غفلتـه	ينـشد الـسلم تمتـع بالـصديد
إن فـي يافـا مواعيـد لنـا	وربـى القـدس لنـا بيـت القـصيد

---

(1) عارف العارف : غزة نافذة على الجحيم ، ص 702-704 .

(2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 124 .

وعلـــى شـــطآن حيفـــا موعـــد كيف ننسى في الحمى خضر الوعـود[1]

إنها رسالة المرأة وغايتها، وأراها لا تقل درجة عن غايات كل رجال فلسطين وكل أبناء القضية؛ ولا غرابة: فهذا ما تغرسه الأم في نفوس أبنائها وما ترضعهم إياه منذ نعومة أظفارهم، فإن كانت نساء فلسطين على تلك الدرجة من الصمود والكبرياء لله دارها صانعة الـنشء مـن الأبناء .

وترفع المرأة المسلمة الملتزمة بدينها ترفع صوتها مجلجلاً بأسمى الغايـات، وأبلـغ الكلمات، على نقيض تلكم النساء اللاتي خضعن بالقول من مغنيات وغانيات ،كن سـبباً فـي ضياع الأمة وضياع المقدسات ، فقد صدحت المرأة المجاهدة بأبلغ الكلمات و أقوى العبارات التي لم يصدع بها حكام ولا أمراء :

قل لمـن يحـسب أنـا أمـة أنكرت أمجـاد سـعد ووليـد
نحن شعب لم يعد يخشى الردى أو يبـالي برصـاص وحديـد
قطـع العهـد وفـي أعماقـه دعوة التوحيد والدين الرشـيد
كلمـا أطفـئ منـا قـبس أشرق القرآن بـالفجر الجديـد
قـد رجعنـا رايـة زاحفـة بعـد أيـام ضـياع وشـرود
ومضينا نحـو آفـاق العلـى يـسلم الرايـة جـد لحفيـد
إنهـا الجنـة تبغـي ثمنـاً عَزّ إلا من شرايين الـشهيد[2]

هذه رسالة سامية سمو الرسالة الراشدة، وامرأة تسير على خطا الخنساء وسمية ونسيبة؛ يلخصها العظم في أبيات معدودة تبرز مهارة فائقة وإدراكاً واسعاً من هذا الشاعر العملاق بأبعاد قضيته وصواب فكره ورشاد دعوته .

وما كان العظم ليبدع تلك الأبيات من قليل تجربة، أو من ضئيل خبرة ودراية ، بـل إن العظم محارب وفارس عاصر ملمات فلسطين وكان جهاده بلسانه وسنانه .

والشاعر العظم ملتزم تعاليم دينه داعية للالتزام مجاهد داع إلى الجهاد ، فقد طرق فـي أشعاره موضوعات متنوعة، فنظم شعره مفعماً بالتجربة الصادقة والفكر النير الذي يحمل[3].

إنه يؤازر الأم والمرأة الالتزام تعاليم الدين الحنيف كلما لاحت أمامه فرصـة لـذلك أو واتته لحظة ، فهو معلم مفطور وشاعر غيور وداعية إلى الجهاد وداعية إلى الالتزام .

وفي أتون الحملات التي تتعرض لها المحجبة والمنقبة ، انبرى العظم مدافعاً ، عن تلك الفتاة الملتزمة :

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 124 .

(3) عبد الخالق محمود عبد الخالق : سيكولوجية الإبداع في الشعر الصوفي ، مؤتمر النقد الأدبي ، جامعـة البحرين 1993 ، ص 3 .

صوني خمارك لا تهـابي وتـدثري عـف الثيـاب
وامضي على درب الهـدى واستلهمي نهـج الكتـاب
أتقى من المـاء الطهـور يسيل من مزنٍ عـذاب[1]

وأستلهم من شعر العظم ودعوته لالتزام مقاومة الفكر الغربي الذي يدعو إلـى تحريـر المرأة ، وتلك المؤامرات التي يحيكها الغرب ضد كل ما هو إسلامي ، حرب فكرية[2] ، حرب يراد من خلالها مسخ الأمة وتغريبها وصدها عن دينها وردائها ، حرب على القيم الإسـلامية ، والتعاليم الإسلامية، والأرض والمقدسات :

وحضارة الغـرب الحقـود تلوح فـي أفـق الـسراب
لا تخدعي فـالظبي يـأبى أن يكـون مـع الـذئاب
تلك التـي ضـلت ومـز قت الحياء بكـل نـاب[3]

والشاعر العظم يطمح طموح الغيور على أمته ، الذي يريد لها أن تعود إلى صـدارة الأمم وسيادة الشعوب ، تلك المكانة التي تبوأتها الأمة لما التزمت تعاليم الدين الحنيف وسـنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما يعمل الأعداء للحيلولة دون وصول الأمة إليه .

ليقوم عصر زاهر بالطـ هـر مخـضر الاهـاب
أختاه أنت جناحنـا الثـاني يحلـق فـي الـسحاب
ويرد فـي الجيـل المنـى لينمو ويزهر في الروابـي
وتحـدثي بـرؤى العقيـدة والحقيقـة لا تحـابي
فالـضائعون تـشرذموا بين الموائـد والـشراب[4]

ودعوة العظم للفتاة التزام طريق الحق والصواب جاءت من إدراك العظم لحجم المؤامرة الغربية على المرأة المسلمة ، وحجم الحرب التي يشنها الغرب على القيم والشمائل الإسلامية ، إلى جانب الحرب العسكرية والسياسات الغربية التي تكمل دور هؤلاء المتآمرين.

المرأة في نظر العظم ، جناح ثان تحلق به الأمة نحو السماء ، وتطاول القمم العلياء، فهي أم مربية معلمة ، وهي موصية وملهمة .

زنبقـة الإبـاء والـشمم تطاول العلياء فـي القمـم

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 322 .

(2) انظر : محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، الطبعة التاسعة ، دار الرسـالة ، الـسعودية 1993 ، ص 358-359 .

(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 322 .

(4) السابق ص 321 .

وتملأ الأجواء مـــن عبـــق بعطرها الزمـــان كـــالحلم
حمامة في قربهـــا ســـكنى قد أقبلت من ساحة الحـــرم
ما أروع العينيـــة ملهمتـــي إذ تبعثان الروح في قلمي[1]

إن المرأة عند العظم أكثر من ملهمة وشريكة مقدمة ، إنها الأخت التي مثلت ضـــياء الفجر ، والمرأة التي ألهمته عذوبة الشعر ، وهي منية الروح التي تسري في مناحي جسده :

يا منية الروح أنت الحب في كبدي وأنت التـــي يبـــرأ بهـــا جـــسدي
وأنت أنت التي طابـــت شـــمائلها والحب عندي حتماً صار معتمدي
يا حاضراً راق لي حبـــاً وتكرمـــة وبسمة الحب صار بـــسمة لغـــدي
جهان أنت التي والعقـــل جـــوهرة من حازه حاز أحباباً بـــلا عـــدد[2]

هذه هي صورة المرأة عند العظم وتلك هي مكانتها التي حازت في نفسه ، والعظم في كل ذلـــك منطلق من شريعة الإسلام الغراء ملتزم تعاليمها السمحة ومبادئها الراشدة ، التي حكمت علاقته بأهله وأبنائه وجيرانه وأمته وحتى أعدائه ، فلم يكن العظم معتدياً ولا متعدياً ، وما كانت أعماله تحمل روح الانتقام أو التشفي بل ترفع رفعة المنهاج الذي حمل والفكر الذي قال ففعل من ذلك كله فقد نبعت تجربته وتلك مشاعره نحو أمه وأخته وابنته ، من رحم الألـــم وأتـــون النكبـــات وعصف رياح الحروب والنكسات .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 124 .
(2) السابق، ص 413 .

الفصل الثاني

الموقف العربي في ظل القضية الفلسطينية

" موقف ورأي "

العرب والمسلمون في أجواء النكبة

لم يشهد التاريخ الحديث نكبة حلت بشعب أعزل مثل تلك التي حلت بشعب فلسطين ، فقد طالت الأرض والإنسان ، وما شهد تاريخ البشرية صمتاً وتخاذلاً مزرياً ومخجلاً مثل الصمت العالمي عامة والعربي والإسلامي على وجه الخصوص ، صمت يزيده قبحاً، روح التآمر والخيور، التي لطخت تلك الزعامات الزائفة والهوان والاستخذاءالذي عاشته الشعوب المغلوبة أو الغائبة عن ما يحيك لها العدو من مؤامرات ودمار[1] .

وما كان للشعراء، وما ينبغي لهم، أن يغمضوا عن تلك المؤامرات عيونهم أو أن يغفلها شعرهم ، وأخص بالذكر شعراء الدعوة الإسلامية والذين تجلت في أشعار كثير منهم هموم الأمة وآلامها ورسموا طريق خلاصها وفكاك أسارها، والأمل يحدوهم، أن تتحقق آمالهم، وقد ظهر ذلك جلياً في جل أعمالهم وكتاباتهم[2] ، وعلى رأس تلك الكوكبة من الشعراء يتربع شاعر الأقصى د. يوسف العظم رحمه الله تعالى .

أجل ؛ لقد سحق الألم قلب الشاعر وأدمى فؤاده، ما تعرض له الشعب الفلسطيني من ويلات النكبة وأحداثها المروعة، وجرائم اليهود وفظائعهم ، بنفس القدر الذي هاله صمت الزعماء وتآمرهم ، فكتب ذلك شعراً وصوره في صدق وواقعية مؤثرة، لينقل للأجيال ويسجل للتاريخ صورة بشعة من صور الخيانات التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً بمختلف عصوره .

وما غاب عن الشاعر أبي جهاد أن ينقل تلك الصور المروعة، في حيادية والتزام مبعثه أخلاقه السامية، التي تحلى بها، وتصوير شعري ملتزم يبين في صورة بهية خلق الشاعر المسلم الغيور ، وصدق المؤمن الصبور ، فما وجدت في ديوانه سباً ولا شتماً لأحد ، ولا اعتداء ولا افتراء على زعيم أو قائد ، إلا تصويرا لحقيقة العدو الحاقد ونقل أمينا لسلوك ناقض أبسط قواعد الدين والوطنية من تلك الزعامات الخائنة .

وبالرغم من كل تلك الصور المروعة ، والمشاهد المرعبة ، يبقى الأمل يحدو الشاعر المؤمن بنصر ربه والواثق بتأييده ، والطامح لعود أمته إلى طريق النصر والتمكين ،

---

(1) انظر عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، الطبعة التاسعة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1985م .

(2) انظر أحمد الجدع وحسني جرار : شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1984م .

طريق التحرير والخلاص ، على أيدي الجيل المؤمن الذي يلوح فجره في قلب الشاعر ، ليبعث الأمل في الأمة من جديد بعدما استحالت جسداً بلا روح .

حقاً إنها أمة الأصنام التي وقفت مذهولة أو مذعورة أو متخاذلة أمام صلف العدو ، مقهورة أمام جبروته ، ممزقة ذليلة :

قد حطمت بالجهل أقلامها ... وقطعت بالحقد أرحامها
وبعثرت رايات أمجادها ... ونكست في العار أعلامها
واستسلمت للكفر مذعورة ... وضيعت في التيه إسلامها
وألّهت جلادها وانثنت ... تسجد للسوط الذي سامها
فكيف نرجو النصر في غفلة ... يا أمة تصنع أصنامها ؟[1]

إنه يستفز الأمة ، ويعدد أسباب الهوان ، فيذكر إضافة إلى ما ذكره في الأبيات السابقة استسلام الأمة لقياداتها الفاسدة ، ثم لا يرى أن حال الأمة أفضل من حال قادتها ، فيذكر بُعدها عن الدين، وانشغالها باللهو في الوقت الذي ينشغل فيه عدوها بالعلم، ويستثمر منجزاته في إعداد آلات الحرب ، يقول :

يمضي بنا العمر في لهو وفي عبث ... والعمر رغم امتداد العمر ساعات
تقود أمتنا للحرب غانية ... والجيش والزحف قد ألّهته مغناة
وكم لعوب تهاووا عند أرجلها ... كما تهاوت على نار فراشات
الزق والرق والمزمار عدتنا ... والخصم عدته علم وآلات[2]

والشاعر أبو جهاد دامي القلب ، كليم الفؤاد ، قلق مما آلت إليه أحوال الأمة التي كان من الأجدر بها أن تعرف عدوها وتقارعه بنفس السلاح ، لا أن تلهو بين طبل ومزمار وكأس وغانية ، سكرى في عالم المجون لا تدري ما يحاك لها ولا ما يحيق بها ، وقد هجرت كتاب ربها وفارقت منهاج نبيها ، واستبدلته بمنهاج يعتريه القصور ومآله الفشل .

ويعقد الشاعر مقارنته بين عدة الأمة وعدة خصمها، ودستور الأمة ودستور خصمها، في ألم وحسرة ظاهرين ، تتجلى فيهما مشاعره وقد أغرقتها الآلام وجللتها الأحزان :

وشرعة الله في القرآن نهجرها ... وشرعة الخصم : تلمود وتوراة
وعدة الخصم صاروخ وطائرة ... ونحن عدتنا الكبرى قرارات
عدونا وحّدوا أشتات باطلهٍ ... وشعبنا رغم نور الحق أشتات[3]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 45 .
(2) السابق ص 75 .
(3) السابق ص 76 .

وهذا هو بيت القصيد حين يضع الشاعر يده على موطن الضعف الحقيقي وعلة الهزيمة المنكرة التي حاقت بالأمة ، إنه البعد عن كتاب الله ، ولهاثها وراء المناهج الوضعية الزائفة وانشغالها بالتفرق عن الوحدة ، يقول :

سفينة الشعب ضلت لا شراع لها — والشعب حار وما للشعب منجاة
وفلكه فوق أمواج تقاذفه — من الضلالة قد عازته مرساة
وجيلنا ضاع في تيه يمزقه — ودربه ضل قد دكته مأساة[1]

ويصور الشاعر ما آلت إليه أحوال شعوب هذه الأمة من خبال وضلال وتمزق وانحلال ، حتى فقدت الأمة ربانها ، وتقاذفتها أمواج عاتية من الضلال والتمزق ، وضاعت أجيال وأجيال ، وبدا الشعب في ظاهره سعيداً فرحاً ، ولكن باطنه ممزق مسحوق تائه لا يعرف طريق الحق ولا سبيل الرشاد :

الجهل والفقر والطغيان يسحقه — والكأس والجنس مسلاة وملهاة
وباطن الشعب : آلام مبرحة — وظاهر الشعب : أفراح وزينات
قد هده الجوع وانهارت عزيمته — وقادة الشعب بالأكباد تقتات[2]

وما اقتصر حال الأمة في نظر الشاعر على الفُرقة أو التمزق ، لكن ما زاد المأساة ألماً وضاعف من وطأتها أن يزّيف الناس مشاعرهم أو يزيفها الحكام ، فيظهرون في مظهر السعيد الفرح المنتشي[3] .

إن الزعامات هي علة بؤس الأمة ، فهي في السلم تبدد أموال الرعية. على الليالي الحمراء والسكر والعربدة ، أما في الحرب فليست إلا بيانات كاذبة وحروب كلامية تزيد من ضياع الأمة في متاهات الكوارث والمصائب ، يقول :

كم بددوا المال هدراً في مباذلهم — وفي ليالي الخنا ضاعت مروءات
في السلم : كأس وسيجار وغانية — وساحة الحرب في الهيجا إذاعات
وفي كل يوم متاهات تضيعنا — وفي الكوارث تطوينا متاهات[4]

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 76 .

(3) وقد سبق إبراهيم طوقان إلى انتقاد خلافات الزعماء وتنازعهم وتشرذم أحزابهم واقتتالها قبل حدوث النكبة الكبرى، انظر : إبراهيم طوقان : ديوان إبراهيم طوقان ، الطبعة الأولى ، دار الشرق الجديد ، بيروت 1955م ، ص 40 .

(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 76 .

يرسم الشاعر صورة الواقع الأليم والحال المرير للأمـــة ، فتبديـــد المـــال وانتـــشار للفواحش على مستوى القيادات والزعامات ، سكر وعربدة وكؤوس تـــدار وغـــوانٍ تعـــزف ألحان الهزيمة .

وفي ساحات الحرب إذاعات كاذبة تنشر الأراجيف والأكاذيب عن انتصارات وهمية ومعارك خيالية وإنجازات زائفة ، توقع الشعب في وهم كبير وألم عظيم ، ويـــصور العظـــم نتائج ممارسات الحكام العرب فيقول :

في كل وقت متاهـــات تـــضيعنا ... وفي الكوارث تطوينـــا متاهـــات
شعارنا الحرب والتحرير نرفعـــه ... وهل يحـــرر أقـــصانا شـــعارات
ودعوة الحرب من منا يـــصدقها ... إذا تعالت بـــلا حـــرب هتافـــات
كـــان اليمـــين لنـــا ذلاً يمزقنـــا ... وفي اليسار لنا بؤس وويـــلات[1]

تنقل عدسة الشاعر حال الأمة في متاهات الخديعة ، وفي شـــعارات الزيـــف التـــي يتشدق بها الزعماء، لقد ملأت إذاعاتهم الدنيا كذباً وخـــداعاً ، والأمـــة تتقاذفهـــا الـــشعارات الزائفة، فتارة تميل نحو اليمين في ذل يمزق القلوب ويفرق الجموع ، وتارة تميل نحو اليسار في بؤس وويلات واندحار :

وقادة الشعب أموات بـــلا كفـــن ... فهل يحرر أرض القدس أمـــوات
يا سوأة العمر في تـــاريخ أمتنـــا ... لقد بدت مـــنكم للعـــين ســـوءات
حتى تروا ويحكم عنوان نكبتنـــا ... أما لديكم بـــرب البيـــت مـــرآة[2]

ويخلص الشاعر إلى الحقيقة المريرة والنتائج المخزية، فالقـــادة أمـــوات فـــي صـــورة الأحياء، وأما النكبة فيراها الشاعر (سوءة العمر) ووصمة التاريخ بل إنها ســـوءات ووصـــمات لطخت جبين الأمة في ذلة ظاهرة ، وقد غفل عنها الحكام فقد عميت قلوبهم والأبصار ، وتاهت الأمة في ضلال وخبال، جسد الشاعر هولهما في قصيدته التالية ، فعنونها (ضلال وخبال) :

كسرنا قوس حمزة عن جهالـــة ... وحطمنـــا بـــلا وعـــي نبالـــه
فمزقنـــا العـــدو ولا جهـــاد ... وشـــردنا الطغـــاة ولا عدالـــة
وباتت أمـــة الإســـلام حيـــرى ... وبات إيمانها في شر حالـــه[3]

وما من أمر أرّق الشاعر أبا جهاد وأدمى قلبه بعد نكبة فلسطين إلا حال الأمة وما آلت إليه أمورها من تشتت وضياع وتيه بلغ مداه .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 76 .

(3) السابق ص 77 .

ومما زاد الأمر مرارة وأسى ما أصاب الشعوب من خور وتراجع ، وما أصيبت به الأمة في دينها فما عادت تنكر منكراً ولا تعرف معروفاً، وأصبحت الأمة في حال صدق فيها قول القائل :

لا يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم

أما أبو جهاد فقد طعنه ذلك الأمر في مقتل وأصاب فؤاده في سويدائه ، فقال :

فلا الصديق يرعاها بحزم ولا الفاروق يورثها فعاله
ولا عثمان يمنحها عطاء ويرخص في سبيل الله ماله
ولا سيف صقيل من علي يضيئنا إلى " عدن " ظلاله
ولا زيدٌ يقد الجمع فيها لحرب أو يعد لها رجاله
ولا القعقاع يهتف بالسرايا فتخشى ساحة الهيجا نزاله
ولا حطين يصنعها صلاح طوى الجبناء في خور هلاله[1]

هذا حال الأمة في غياب زعامات راشدة تأخذ بيدها نحو المعالي، بينما تتقاذف الأمة أهواء زعماء لا أمانة لهم، ولا يرعون حق أمتهم، ولا يهمهم أمرها، ولا يعنيهم مصالحها، فالأرض سليبة، والمقدسات مدنسة، والشعوب سكرى، والعدو متربص بها في مكر ودهاء مدمرين، يقول:

سرى صوت المؤذن في حمانا وقد فقدت مآذننا بلاله
وأقصانا يدنسه يهود ويعبث في مرابعه حثاله
نشد رحالنا شرقاً وغرباً وأولى أن نشد له رحاله
وشعب ضائع في كل أرض وجل مناه أن يرضى جماله
وراعي الشعب سجان غشوم وسفاح يسن له نصاله
وحادي الركب بوم أو غراب وقد قاد الجموع أبو رغالة[2]

وما أشبه اليوم بالبارحة ، فحال الأمة في ضياعها وتشتت أبنائها ما زال حتى يومنا هذا هو العدو الأول للأمة وسبب دمارها وضياع مقدساتها[3] .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 77 .
(2) السابق ص 78 .
(3) انظر ما قاله شعراء فلسطين في تشتت الأمة العربية وضياعها في :
- ديوان إبراهيم طوقان ص 47 .
- عبد الرحيم محمود : ديوان عبد الرحيم محمود ، طبعة دار العودة ، بيروت 1987 ، ص 120 .
- نبيل أبو علي : قطوف من الأدب العربي ، طبعة دار المقداد ، غزة 2005 ، ص 137 .
- كامل السوافيري : الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، دار المعارف بمصر 1977 ، ص 154 .
- عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) : ديوان أبي سلمى ، طبعة دار العودة ، بيروت ، 1989 ، ص 156 .

وزعماء الأمة الذين بهم تنهض وعليهم تعتمد في أوقاتها العصيبة وفي هول المعـارك وأيام المصيبة، هم منبع مصائبها ، ونواب عدوها بل هم الذين يقدمون لأعدائها الدور المكمـل لدورهم، من تدمير للأمة وتجهيل لأبنائها وتقتيل للأحرار وسجن لهم وغفلـة عـن المقدسـات والحرمات :

يرمرم من فتات الكفـر قوتـاً ... ويلعق من كؤوسـهم الثمالـة
يقبل راحـة الطـاغوت حينـاً ... ويلـثم دونمـا خجـل نعالـه
فيرتـع فـي مرابعنـا دخيـل ... يطارد في حضارتنا الأصالة[1]

وكان أبو جهاد يقول في تصريح لا يؤديه تلميح، أن هـذه الزعامـات هـي العـدو الأخطر على الأمة، وهم أسباب موتها وأزلام ضياعها، نظراً لما آلت إليه أحوالهم من غرق في العمالة حتى الثمالة ، وتقبيل لراحة عدوهم ويديه التي ولغت في دماء الشعوب ، ودمرت حضارته وأصالته:

إذا سـأل الـزعيم مزيـد ذل ... لـشعب لا يـرد لـه سـؤاله
وإن نصح الحكيم فـلا سـميع ... ولا قلب يعي صـدق المقالـة
وهمّ الجمع ثـوب أو رغيـف ... و"صك" من رصيد أو "حوالة"[2]

لقد بلغ حال الزعامات في نظر شاعرنا درجة من الذل لا مثيل لها ولا نظيـر فـلا تجلب هذه الزعامات لشعوبها إلا مزيداً من الذل والخضوع والخنوع .

أما النصح ، إن نصح أحد أو أراد بالأمة خيراً فلا أحد يـسمع لـه ولا يجيـب ولا يصدق مقاله ، فهمّ الجميع حينها اللباس أو الطعام أو حوالة مالية ، وفي تصوير مخيف لحال أمة كانت يوماً تقود الأمم وضربت في مجدها أروع الأمثلة وأنصع الأمجاد يـسخر الـشاعر في مرارة وألم ظاهرين من تلك الألقاب والنعوت الجوفاء التي يتشدق بها الزعماء ، فيقول

" سعادته " شـقاء فـي شـتاء ... وقد رفعت معاليه " الـسفالة "
" سيادته " يقيم علـى هـوان ... " سماحته " يعيش مع الضلالة
" فخامته " هزيل ليس يـدري ... بأن الناس قد فضحوا هزالـه
و" دولته " يعيش مع الأمـاني ... ويخشى أن تفاجئـه الإقالـة[3]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 78 .
(2) السابق ص 118 .
(3) السابق ص 78 .

وتصل ذروة الألم والحسرة بالشاعر أعلى درجاتها وأقسى صورها حينما يترك فراغاً لبيت لم ينطق به معلقاً في أسفل الصفحة بقوله : بيت سجين في زنازين الإرهاب الفكري في السجن العربي الكبير[1] .

ثم يعود الشاعر على ما بدأ به قصيدته ليصور جهل هند حينما مضغت كبد حمزة ليسقط ذلك على غباء الأمة في تعاملها مع أحرارها وانكفائها على ذاتها :

مضغنا قلب حمـزة وانثنينـا نذوق المر أو نجنى وبالـه[2]

مـؤامرة يـدبرها يهـود ويرعاها عميـل لا أبـا لـه

وهذا ما خلص إليه الشاعر من نتائج لحالة الانحطاط والانهزام التي طالت زعماء الأمة وقادتها،ليصور ذلك أدق تصوير ويتحدث عن ذلك الواقع المرير، فالمؤامرة يدبرها يهود وينفذها عملاؤهم الذين جاءوا بهم من زنادقة السياسة والرياسة ، ليقودوا وينفذوا خطة العدو الغادر .

إن شاعرنا يؤمن برسالة الفن ووظيفته في المجتمع ، إنه أداة تنوير وتثـوير ، وهـو جلاء للروح ، يقيل عثراتها ، ويحول بينها وبين السقوط في أتون اليأس والاستسلام[3] ، أمـا أن يتخذ وسيلة لتخدير الشعوب وتمرير الهزائم فهذا ما لا يرضاه العظم ، يقول :

" ما أصابتنا كارثة أو حلت بنا مأساة إلا وقفت تغني لليل والخمر والحب الضائع ... حتى في أعقاب الكارثة المدمرة في الخامس من حزيران ،وقفت تغني للمترفين والدم البريء يسيل على كل رابيه ... والعار الأسود يجلل جباه المخدرين والمخدرات ممن راحت تـصفع وهم ولا يشعرون .. هذه ليلتي وحلم حياتي ! "[4] .

هذا رأي شاعرنا في الفن عندما ينحرف عن مساره ويوجه في غير وجهته ، فمـاذا لو استغل الغناء أو النشيد في صالح الأمة وابتغاء يقظة ضميرها، ولعلاج مشاكلها وقضاياها، ألم يكن ذلك أجدى وأنفع ؟.

ويضيف شاعرنا : " لعل هذا الضياع الذي أصاب الأمة ... وهذا الخدر الذي سرى في أعصابها هو الذي دعا صحفياً إلى القول في صحيفته البيروتية مباهياً دون خجل : "إني أعرف مكانة أم كلثوم عند العرب... وأعرف كذلك أن حب الكثيرين لها يوازي حبهم لفلسطين"[5].

هكذا كان حال العرب عندما حلت بهم النوائب في خدر وسكر وضياع أو ذهول عما حل بهم ، يقول :

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 78 .

(3) انظر وظيفة الأدب ومهمته في الحياة : محمود ذهني : تذوق الأدب ، طبعة مكتبة الأنجلـو المـصرية (د.ت) ، ص 21 .

(4)، (5) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 79 .

"كوكب الشرق" لا تذوبي غراماً ودلالاً وحرقـــة وهيامـــاً
لا ولا تنفثي الـضياع قـصيداً عبقريـاً أو ترسـلي الأنغامـا
فدماء الأحباب في كـل بيـت تتنـــزى وتبعـــث الآلامـــا
وجراح "الأقصى" جراح ثكالى ودموع "الأقصى" دموع اليتامى
أيها الشعب خدرته " الليـالي " مـثقلات تفجـرت آثامـاً[1]

يصور الشاعر حال الأمة في هذا الخضم من الآلام والويلات، وألحان الغناء تعـزف على أوتار الهزيمة الصاعقة والدماء النازفة ، والأشلاء الممزقة ، إضافة إلى عظـيم الأثـم الذي ينال هؤلاء السكرى عن حقوق أمتهم ، وكان هدف الفن في ذلك الوقت مبتغـاه إلهـاء الأمة عما حل بها ولفت أنظار نشئها وفتيانها عن الجهاد والاستـشهاد لينـشغلوا بالموسـيقى والغناء عن جوهر قضيتهم ، يقول :

فعـن الحـق تـارة يتلهـى وعن النـور تـارة يتعـامى
يتهاوى علـى ذراع طـروب أو لعوب في حضنها يترامـى
وأنين الكمـان صـار أذانـاً في حمى البيت والنديم إماماً[2]

هكذا استبدلت الأمة مشاعرها وضيعت مبادئها ، وانحرفت الزعامات بشعوبها إلـى مهاوي الردى ، ومستنقعات الهوى والجهالة ، وتاهت سفينتهم عن وجهة الحـق ، وتعامـت عن منابع النور تتهاوى من دركة إلى دركة في سقوط مخيف وانحدار مفزع ، فماذا يرتجـى من أمة صار أنين الكمان أذانها ، والنديم إمامها .

ويتساءل أبو جهاد في مرارة ظاهرة وحسرة قاهرة عن جدوى الجهاد تساؤل الساخر في مرارة ، فيقول :

فإلام الجهاد "يا كوكب الشرق" وما بالنـا لا نهـز الحـساما
لم تغني يـوم التـشرد حزنـاً لا ولم تدخلي علينـا الخيامـا
أو تغني لشعبنا برقب الفجـر ويفري براحتيـه الظلامـا[3]

إن الفن في نظر الشاعر أبي جهاد رسالة ، لها هدف وغاية سامية ، هذا مـا يعرفـه أصحاب الضمير اليقظ والإدراك السليم ، الفن ينبع من قلوب يقظة واعيـة فيـشحذ الهمـم ويوقظ القلوب وينبه العقول ، ولعل هذا ما أجاب به الشاعر بعد تساؤله فقال :

لا تغني الخيام يا كوكب الشرق وتسقي من راحتيـه المـداما

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 79 .

(2)، (3) السابق ص 80 .

ففلسطين لا تحـب الـسكارى ... وربى القدس لا تريـد النيامـا
ولو أن الخيّـام يبعـث حيـاً ... هوت الكأس من يديه حطاماً[1]

ويضع الشاعر يديه – كما الطبيب الحاذق – على علة وسبب من أسباب انهزام الأمة وتراجع شعوبها حين يقول :

كوكب الشرق ضاع قومي لما ... تاه في حبك القطيـع وهامـا
لو دعوت العربيد للزهد لبـى ... أو دعوت الزنديق للنسك صاما
قد أطاعوا الهوى فضلت دروب ... سلكوها وقد أباحوا الحرامـا[2]

وينكر الشاعر أشد الإنكار على مَنْ دانوا للحب الحرام وأصـبح الهـوى شـرعتهم، ومنهاجهم ، واستسلموا بكل ضعف وخور لغناء خامر العقول ففعل به فعل الخمـور ، فقـد أطاعوا الهوى وضلوا سبيل الرشاد وسلكوا طرق الحرام وذهلـوا عـن جـادة الـصواب ، فضيعوا وضاعوا وسكروا وأسكروا وضلوا وأضلوا ، يقول[3] :

منحوك الإعجاب يا ويح قومي ... وعلى الصدر علقوك وسـاماً
ناوليهم من راحتيـك كؤوسـاً ... وامنحيهم من ناظريك ابتـساماً
واجعلي الفـن ردة وضـياعاً ... لا أحـساسيس أمـة تتـسامى
ودعيهم في كـل وادٍ يهيمـون ... سـكارى ونكـسي الأعلامـاً
خدريهم يـا كوكـب الـشرق ... وصوغي من لحنك استسلاماً[4]

هذا ما ضاعف من حسرة الشاعر وأدمى فؤاده ، فبعدما ضـاعت المقدسـات وسـالت الدماء وسجن المجاهدون أو علقوا على أعواد المشانق ، تقف أم كلثوم لتكمل رسـالة الهزيمـة وتضع عليها آخر اللمسات بتلك الصيحات والآهات ، فتتمايل معها العقول سكرى والقلوب غلفاً.

إن للفن رسالة سامية وللشعراء كما للزعماء دور في إدارة المعركة ، وما حسان عنـا ببعيد ، فالشعر وقود يحرك القلوب ، ويوقظ الضمائر ، ويشحذ الهمم ، وينادي الأمم . إن كـان أصحابه من ذوي العقول والألباب ، وإن كانت قلوبهم عامرة بالايمان، مستيقظة لما يحاك للأمة من مؤامرات ودسائس، توردها موارد الهوان:

أيهـا الـسادة الكبـار سـلاماً ... قد قتلتم في كل نفـس سـلاماً
مذ بنيتم عشرين عاماً حـصوناً ... من رمـال تبـددت أوهامـاً
وصنعتم مجداً من الزيف زوراً ... فأماطت عنه الليالي اللثامـاً[5]

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 80 .

(4) ، (5)السابق ص 81 .

والفن الزائف ينبثق عن قلوب خربة ويصنع أمجاداً كاذبة زائفة ، فما كان للفن الزائف أن ينطلق، إلا عندما تشدقت الزعامات بانتصارات زائفة ومعارك وهمية ، وإذاعات غوغائية ، وقد وصل الزيف للقيادات ، كما وصل إلى الفنانين والفنانات مروراً بالمذيعين والمعلقين ، فأغرقوا الأمة في أوحال الهزائم ، وكانت تلك أعظم الجرائم :

يا فلسطين يا صروح المعالي كنت للمجد والهدى إلهاماً
قتلوا في حماك كل كريم وأقاموا على الدنيا لئاماً
كلما الشعب للجهاد تنادى ألقموا الشعب في الجهاد لجاماً[1]

وليت الأمر قد انتهى عند ضلال الحكام ولهو الشعوب، وتلكم الحالة من التراجع والانهزام ، بل تبع ذلك صد عن طريق الجهاد وانشغال عن مقومات النصر انشغال مزر فاضح لتلك الوجوه المكفهرة والعقول اللاهية .

مما حدا بالشاعر أن يطلق صرخته المدوية لتحمل رسالته السامية إلى فلسطين الغالية، يقول :

يا شباب الإسلام يا عدة النصر فداءا وتضحيات جساماً
حاذروا شرعة الطغاة طريقاً وارفضوا الذل والهوان مقاماً
فدماء الشهيد في كل روضٍ فمن رباكم تفتحت إسلاماً[2]

إنها رسالة الشاعر الذي أضناه حال الأمة حتى بلغ به الحزن مداه ، فحذر وأنذر من الانجرار إلى مهاوي الطغاة ومستنقعات الهزيمة وأوصال الخيانة ، فحذر من ذلك شباب فلسطين خاصة ومن خلفهم شباب الأمة ، وحثهم على العودة إلى شرعة الإسلام، والبعد عن مرابع الذلة والانهزام .

وتظل روح الشاعر ثائرة وقلبه خفّاق يكاد يمزق صدره، من تلك الحالة المزرية والمناظر المخزية التي قد تمر على الكثيرين دون أن تحرك إحساسهم أو تنبه ضمائرهم .

يقول في رباعية بعنوان " صفعة " !! :

أين من يبصر أو من يسمع وطن يسبى وشعب يصرع
مزق الغاصب روضي عندما شطر الروض قطار مسرع
بصق الغاصب في حقلي فهل أدرك العربيد ماذا يصنع
لست أدري غير معنى واحد كل وجه في دياري يصفع[3]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 81 .
(2) السابق ص 95 .
(3) السابق ص 100 .

لقد بلغت الوقاحة باليهودي في نظر الشاعر مبلغها عندما بصق ذلك العفن على أرضه ، وما كان ليفطن إلى تلك الإهانة إلا قلب أدماه الأسى و الألم والحسرة وعلا هامته العزة والكبرياء ، فلا يرضى هذا الفعل إلا من ديست كرامته وطأطأت هامته .

ويهاجم الشاعر الأبي مَنْ يزعم أنه مسلم ويلتقي باليهود في القدس ، ويتلقى اليهود منهم التحية ، مستنكراً ذلك أشد الاستنكار رافضاً أن يسمي ذلك الزعيم مسلماً لأنه صافح اليهود وحياهم في القدس وهي في الأسر :

أيها المسلم ماذا قد دهاك ... تمنح الأعداد روحاً ودماً .. ؟
كيف ترضاه " إخاء " خاسراً ... تزرع الشوك ونجني العلقما
يا لعارٍ أنت عنوان له ... في ربا "الأقصى" تحيي المجرما
نحن لا نرضى على طول المدى ... أن يكون النذل فينا مسلماً[1]

يرفض الشاعر هذه الفعلة النكراء من هذا الزعيم الذي نأت به فعلته عن أن يكون مسلماً يقود شعب الموحدين .

ويثور قلب الشاعر ثورة المسلم الغيور، وتلتهب مشاعره في ويشتد أوارها حينما يتحدث عن شموخ غزة فيقول[2] :

قد هزمنا كل جبار عنيد ... وكتبنا صفحات من خلود
وغدت غزة رمزاً للفدا ... بوسام سال من صدر الشهيد
وغدا العدوان في " طغيانه " ... لعنة الأجيال في كل صعيد
فلتذل راياته ولتندحر ... دول البغي وأعلام اليهود

إن الشاعر حُرّ في قلبه حرّ في لسانه ، وتتجلى روعة الحرية في قلمه الذي يرفض رفضاً مطلقاً تلك الوقائع التي يفرضها واقع الأمة من تراجع ونكوص واندحار ، لكنه يأبى أن يستسلم أو أن يحني هامته فهو شاعر مجاهد لا يعرف سنانه ولا بنانه الانحناء ولا الانثناء أبداً ، فهذا درب الشعراء الأحرار الذين حملوا هم الأمة ودافعوا عن حرماتها بألسنتهم وأقلامهم، وأججوا روح الجهاد في نفوس الشباب، ليكونوا مبشرين بانبعاث الأمل من جديد ، وإشراقة الفجر الموشح بالنصر الأكيد ، وبعدما تتزاحم أسباب الهزيمة على الأمة وتلوح في الأفق معالمها تأتي الصرخة المدوية، صرخة الحق الماجد والجيل الواعد لتمزق جلابيب الظلم والظلام وتهز عروش الظالمين اللئام :

فعلت صيحة تجوب الفيافي ... ونداء في الخافقين تسامى

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 100 .

أن يعود القرآن في الناس حكماً ... من جديد وشرعة وإماماً
ويقيم الإسلام دولة عدل ... تمنح الكون راحة وسلاماً
بعد أن عاش في حماه سكارى ... وتمادى في جانبيه الندامى
كم بنى الظالمون للبغي صرحاً ... من ضلال في غفلة الحق قاما
ووعى يقوم أثر وعي ... وغشوم عن الهدى يتعامى[1]

إنها صرخة الشاعر الغيور، صاحب القلب الكبير، والضمير اليقظ ،يأبى أن يظهر الجور على العدل والباطل على الحق ، فيرسل الصرخة تجلجل في الفيافي والأصقاع لتذكر بحقيقة قرآنية وصورة عدل إلهية لتأذن بقيام دولة الإسلام بعدما دالت للظلم دولته، وصالت له صولة، فللحق صولات وجولات، وما كان للباطل أني يصول إلا في غفلة الحق وإغفاءة من أهله، أما الحقيقة الراسخة والناموس اللألهى أن العدل، هو صاحب البقاء وأهله هم الأتقياء فمتى وجدوا وجد .

لقد ولدت تجربة الشاعر أبي جهاد من مكابدة آلام النكبة فصاغها شعراً وقصيداً ، وجاشت نفسه ألماً لما سجن الأقصى، فانطلق فؤاده يبث في الآفاق صرخات تهتز لها الجدران والأركان ، وتمزقت نياط قلبه لما تآمرت الزعامات، وتراجعت وانهزمت الأمة شر هزيمة بفعل هذه القيادات العميلة ، فتارة يبوح الشاعر بآلام روحه وتارة يسقط تلك الآلام على مقدسات ديست ، وكرامات أهينت ، وكان ذلك كله يعتصر فؤاده ويهز أركانه :

لكأني بمسجد القدس يدعو ... وينادي أما سمعتم أنينه
كيف نرجو الخلاص والنصر ممن ... ختم الذل والهوان جبينه[2]
إنما الحرب عدة وجهاد ... لا خطاب منمق تلقونه

يرفض الشاعر تلك الترهات التي يظن أصحابها أنها عدة الحرب والتحرير شعارات جوفاء وخطب عصماء .

ويرى الشاعر أن ما حل بالأمة من انحلال وانسلاخ عن حصن عزتها وقلاع كرامتها هو نتيجة لبعدها عن دينها، واستسلامها للسلطان الظالم ، وعدم اكتراثها بمن يحكمها، يقول :

قد هجرنا منابع الخير فينا ... وارتوينا من كل نبع مكدر
وطمسنا مشاعل النور جهلاً ... وتبعنا الضلال ينهى ويأمر
لا تبالي إن ساد فيها لئيم ... أو تمادى منافق أو تجبر[3]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 169 .
(2) السابق ص 29 .
(3) السابق ص 30 .

يرفض الشاعر هذا التقهقر المذل والتراجع المضل، فيصوغ في حرقة الأبي الثائر تلك الزفرات لهيباً يحرّق الأعداء، ومن سار في ركبهم ،ومن انطلت عليهم خديعة العدو وساروا في ركبه دون تفكير أو وعي ، يقول :

ضاع قومي في الحادثات وذلوا وتمادوا في خسة وصغار
بين ذل يمليه سوط يمين وهوان يمليه سوط يسار
أسكرتهم خمر الضلال فباتوا في " ضياع " بصحبة الخمار
وطووا راية الجهاد سكارى وتلهو بالطبل والمزمار[1]

لقد أصاب شاعرنا ذهول مفزع ، فما أطاق أن تركع الأمة لحفنة الأوغاد ، وتغيب عنها راية العز وآيات الجهاد ، فغدا يصرخ في كل أفق وواد، يستثير العزم في قلوب القوم ويبعث فيهم روحه لهيباً تدك أوكار الفساد .

وغدت دموع اليتامى وآهات الأيامى تمزق صدره وتؤرق قلبه ،غيرة وحسرة على ما حل بالأمة من ترك الجهاد ، فقال :

لا تلمني إن مس عقلي ذهول أو تداعى تحملي واصطباري
فدموع الأيتام عبر الحنايا سلبت في الخطوب كل وقاري
وجراح الأقصى تمزق صدري وعدو الإسلام يحتل داري
لو تداعى قومي لساح جهاد مثلما أقبلوا لرمي الجمار
لهزمنا العدو في كل أرض ودحرنا جحافل الكفار
ولبات الأقصى عزيزاً يباهي هامة النجم أو عروس النهار
ولسدنا في الكون نعلي صروحاً شامخات من عزة وفخار[2]

إن بواعث التحرير التي يؤمن بها الشاعر، تنبع من إيمان قوي، وعقيدة راسخة بوجوب جهاد الأعداء في كل جبل وواد ، وسلاح الوحدة الذي ينادي به لم يكن دربا من الخيال ، بل إنه الإسلام الذي يوحد المسلمين في صلواتهم وطاعاتهم ، وفي نسكهم وعباداتهم من حج وصيام ،لهو الأقدر على جمع كلمتهم وتوحيد صفهم إذ الوحدة والاعتصام عبادة بل ولا يقبل عمل جماعي دعا إليه الشرع، في صورة فردية .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 63 .

ومن هنا فقد كان الشاعر وحدوياً ، يدعو للوحدة حتى في ضمير الجمع الذي استخدمه وتكرر في جميع قصائده ، وكأنه يرسخ مفهوم الوحدة قولاً ويدعو إليه بضميره حتى غدا ضمير الجمع يغطي جل قصائده .

وتثور ثائرة الشاعر وتزداد دهشته حينما تتبدل مشاعر الأمة فيعزف في مآتمها العازفون ويغني في نكباتها مغنون ، ويرقص على جراحها أبناء جلدتها في جهالة مخيفة ، وحفلات ماجنة سخيفة ، ومما زاد دهشته واستغرابه تشدق أولئك المزيفين، أن الفن سلاح يقاومون به الأعداء أو وسيلة من وسائل المقاومة والفداء ، فما أجهل أمة استبدلت منهاجها ونسيت أمجادها ، وبدلت عزتها ، فغنى مغنٍ في عزائها وعزف عازف لحن انهزامها .

يقول عن ذلك في أبيات تقطر مرارة وحسرة وتفيض بمشاعر دافقة من قلب اعتصره الأسى والحسرة :

" انطلق الصوت يغني للهوى ... والليل ... والحرمان ! "

وحملت شاشة التلفاز مشهد صبايا يتمايلن وفي أيديهن دفوف ولا حرب .. وسيوف ولا جهاد ! فكانت هذه الومضة الشعرية في دروب الظلام :

نحن يا فيروز ما عاد لنا	أذن تهفو وللحن تحن
كل ما فينا جراح ودم	نازف من كبد حرى تئن
إنما تطرب أذن حرة	وإنما يسعد قلب مطمئن
أتغنى للهوى في مأتم	ولنا من دمنا كأس ودن
وسيوف الحرب لا نصقلها	وسيوف الرقص للرقص تسن
وطبول الحرب لا نقرعها	وطبول الفن في الساح مجن
أيظن الخير فيمن حكموا	وأذلوا الخير فينا أيظن
وطني يحميك نار ولظى	ليس يحميك من الغاصب فن[1]

وتأبى أذن الشاعر المرهفة الحس أن تستمع للألحان، ولا يتحرك قلبه لها بعدما أثقلته المآسي والأحزان ، وفارقت محياه الابتسامة بعدما حل بأمته من أهوال وهو في ذلك منكر أشد الإنكار لتلك الاحتفالات والمهرجانات ، فالذي يحمي وطنه هو الجهاد وصور البطولة لا الفنانون والفنانات .

لقد أثقل قلب الشاعر بأحزان عظام وأحداث جسام، زاد من وطأتها وضاعف حدتها ما ابتليت به الأمة من سكر وذهول عن قضاياها، والتفات إلى هابط الفن من رقص وغناء .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 71 .

واستبدلت الأمة وغيرت تاريخها العريق بواقع رث صفيق ، فما عاد الأذان يحـــرك فيها عزة المسلم وإباء المؤمن وإنما حل محله لحن هابط ومغن ساقط :

كان لحـــن الحيـــاة فينـــا أذان ... يتغنـــى بـــه الأبـــاة الـــصيد
يملأون الوجود بـــراً ونـــوراً ... حين يصحو على الأذان الوجود
وإذا اللحن صيحة مـــن رقيـــع ... وإذا الترس في المعامع عود[1]

مزق هذا الواقع المر فؤاد الشاعر ، وزلزل مشاعره ، وأجج أحاسيـــسه ، فمـــا مـــن مصيبة حلت بالأمة بعد ضياع مقدساتها أنكى من مصيبة ضياع دينها ومبادئها ، ومـــا مـــن دمار حل بها أشد من دمار أخلاقها وسيادة الرويبضة لأمرها ، حيث قاد الأمـــة العربيـــد ، وغاب عنها القائد الصنديد والرجال الصيد :

فغدت أمتي مع اللحن ســـكرى ... يرسل اللحـــن فـــاجر عربيـــد
كان أمس الأباة مشرق مجـــد ... وإذا اليوم في حمانـــا اليهـــود
ســـادنا قـــادة الهزيمـــة زوراً ... كيف نرضى واذلنا أن يسود[3]

والشاعر إذ يصور هذا الواقع المرير ويكابد هذا الألم الكبير لا يفوته أن يعود بالأمة إلى ناصع تاريخها وصنّاع أمجادها الذين ما عرفت الأمة مجداً إلا على أيديهم ، عله في ذلك يستنهض الهمم ويثير العزائم .

ليس فـــيهم قتيبـــة أو صـــلاح ... أو هشام وليس فـــيهم رشـــيد
هجروا المصحف الطهور وحاروا ... وابـــن دايـــان قـــاده التلمـــود
فـــأذل العـــدو منـــا جباهـــاً ... وتلاشى من أراضينا الحديد[4]

ولم يكن ذلك مجرد استلهام للماضي، بقدر ما هو استنهاض للحاضر ، وإنمـــا يهـــدف الشاعر منه أن يذكر الأمة بماضٍ عريق ، ويضع يدها على علة تراجعها وأســـباب هزيمتهـــا ، وهو بعدها عن كتاب ربها وسنة نبيها ، وكانت لهذه الهزيمة أبواق تروج بضاعتها ، وتـــسوق هزيمتها وكأنها تتساوق مع دور المحتل الغاشم .

مسخوا الحق والحقيقيـــة لمـــا ... صار صوت الإعلام فيهم سعيد
يزرع البحر والهواء وعـــوداً ... لا يبـــالي ألا يكـــون حـــصيد
شرعة الزور والضلال مـــذيعاً ... أن يوم الهـــوان والـــذل عيـــد
ووجوه الطغاة بالـــشر بـــيض ... ووجود الهـــداة بـــالحق ســـود
ذل من يزعم الهزيمة نـــصراً ... تتهاوى من راحتيه البنـــور[5]

---

(1)، (2)، (3)، (4)، (5) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 72.

والشاعر ثائر على كل أزلام الانهزام، من أصحاب البزات الكاذبة والإذاعات المرجفة والألقاب الجوفاء والزعامات العمياء ، لأنه يرى فيها علة الأمة وعنوان الهزيمة ، وما حل بالأمة ما كان إلا مما جنت أيديهم وحاكت عقولهم ، أو من عظيم ما اقترفوا بأهوائهم وشهواتهم ، فقد كانوا في ذل فاضح وانحلال واضح ، وأصبحت الأمة بعدهم كقطيع مزقته الذئاب ، يقول الشاعر في مرارة مريرة :

ويح قومي باللعوب تباهت ... وغدت فارساً بغير حسام
تتهاوى بين المعازف نشوى ... وعلى ثغرها هزيل ابتسام
وتغني لليل والخمر سكرى ... وتباهى أترابها بوسام[1]

هذه الحالة من التراجع والغفلة والانحطاط ،كانت كفيلة وحدها بتأجيج مشاعر أبي جهاد وإلهاب فؤاده ، وكانت مصدراً من مصادر إلهامه ليصور بقلمه تلك الحال المزرية ، التي أودت بالأمة إلى مهاوي الردى . حسب رؤية الشاعر لواقع الحال يعلل ذلك الانحطاط وأسباب حالة الانهزام إلى غياب روح الجهاد عن الأمة وغياب الفوارس الذين صنعوا أمجادها في صفحات تاريخها المشرفة :

يا بلاداً عز الفوارس فيها ... وخلا ساحها من الضرغام
مذ تولى فرسانها عن حماها ... وتباروا في ساحة الآثام
اتخذ الذل من عرينك داراً ... بعد أن كان موطناً للكرام
واستبد البغاث في ذروة النسر ... وقاد الأسود سرب النعام[2]

ويمضي الشاعر في وصف دقيق لتلك الحالة التي أصابت الأمة ، فأقعدت رجالها عن الجهاد والاستشهاد وثقلت بهم الأثقال عن النفير والإعداد ، واستبدلوا ساح الجهاد ذلك بساح من اللهو واللعب أو الزنا والخنا حيث دارت كؤوس الخمر وتمايلت اللعوب برؤوسهم :

ليس فيهم من الرشيد مضاء ... أو إباء يهزهم من هشام
أمة العرب في العراق وفي مصر ... ونجد في ربوع الشام
وعلى المغرب الكبير جراح ... نازفات من حرقة الآلام
وضفاف الأردن جفت من الزهر ... وكانت تفوح بالأكمام
وفلسطين في وشاحٍ حزين ... ذبحوها ... وتاجروا بالسلام[3]

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 73 .

ويرثي الشاعر الأمة رثاءً مريراً ، فالشاعر كبير القلب مرهف الحس ، ينتمي لأمة ذات مجد ، ولها مع العزة عظيم عهد ، عز عليه ما آل إليه حالها ، وما يصير إليه مآلها ، في مرارة ظاهرة وحسرة قاهرة :

في الجبال الشماء في كل واد ... في البوادي في موطني المترامي
عربدات من الطلى ورؤوس ... غارقات في سكرة الأحلام
وضلال عن الهدى وضياع ... وانحراف عن دربه المتسامي[1]

وكل هزيمة يرجى في نظر الشاعر برؤها، إلا هزيمة الفكر وكل عثرة لها مقيل إلا عثرة النهج ، وانسلاخ الأمة عن مصادر قوتها واستبدالها لدستورها وعامل عزتها كان في نظر الشاعر هو علة الدمار ومعول الانحدار الذي قادها إلى سجن الهوان :

أمة العرب ما دهاك لتمسي ... أمة الشرك في الهوى والظلام
بعد أن كنت مشعلاً ومناراً ... يغمر الكون من سنا الإسلام
نام فيك الرعاة حتى استكانوا ... فهنيئاً لعصبة النوام
وأقاموا على الهوان وذلوا ... يا لقومي من ضيعة الحكام
سامها الغاصب الدخيل دماراً ... وسباها العدو بالأوهام[2]

والشاعر عميق الانتماء إلى أمته، مولع بتاريخها المجيد شامخ بفكرها الرشيد ، يعيش حاملاً لهمومها منشغلاً بحالها مذهولاً لما أصابها في موطن عزتها، وما حل بعرين كرامتها ، ومن أشد ما آلمه وانفطر له فؤاده وما اعترى الأمة من حالة من التشرذم والانقسام واللهاث خلف مناهج من التراهات والأوهام إلى أن أمست كقصعان النعاج أو الأغنام :

قسموها قطعان ذل مهين ... ورموا جمعها بشر سهام
فقطيع " لينين " يحمي حماه ... وقطيع يعتز بالعم سام
وقطيع بات الرغيف هواه ... شارد اللب حائر الأفهام
ليس يدري من أمره غير دنيا ... ملئت بالطبول والأعلام
والزغاريد في الكوارث تعوى ... والهتافات في الليالي الدوامي
والسياط الحرى تمزق شعباً ... صار جلاده الزعيم العصامي
كم شهيد ذاق المذلة فيها ... وخسيس قد تاه في الإجرام
علقت في الجبال " سيد قطب " ... ورمت بالرصاص قلب الإمام[3]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 73.
(2)، (3) السابق ص 74 .

يصرخ أبو جهاد واصفاً حال الأمة في تشخيص الشاعر الحاذق والمفكر الملهم متحدثاً في مرارة ، عن تلك الحالة من التشرذم والخنوع الذي استعصى برؤه . ويمضي مع ما تتوالى به النكبات والمصائب ليتحدث عن أمر عظيم أصاب أمته لم يعرف له تاريخها مثيلاً ، حيث كان حادث اغتيال الأحرار وشنقهم واعتقالهم، باعثاً من بواعث صرخاته وكانت تلك دركة من دركات الردى التي هوت إليها الأمة في صفحات تاريخها الأسود الذى صنعوا .

فكان مصير الأحرار مشانق ورصاص ومصير السكارى قيادة وزعامة ، ورتب وبزات وأوسمة منحت إليهم لا لنصر حققوه، أو وطن حرروه إنما لفساد أفسدوه، ولتاريخ بالهزائم والنكبات وسموه .

لقد عاش الشاعر منغمساً في قضايا أمته حاملاً لهمومها معتزاً بتاريخها متغنياً بأمجادها، وقد آلمه ما ألم بها ، وكان دائم التذكر لآلامها وآمالها ، وقد ساءه ما آل إليه حالها حيث مج الحديث عن مسقط رأسه وقد حل بالقدس ما حل:

ماذا أحدث عن عرار ... والقدس في ذل الإسار
والغاصب المحتل يسقي أمتي ... كأس الصغار
ويسومها خسفاً ويغرق ... ساحة الأقصى بعار[1]

ثم يقول في ألم كبير وحسرة ظاهرة :

ماذا أحدث عن عرار ... وبما يدور من الحوار
في مجلس لم يستطع ... حتى الإدانة بالقرار
والحق أبلج واضح ... قد ديس في وضح النهار
نسفته أمريكا بفيتو ... فوق مائدة القمار
وجموع أمتنا بلا ... وعي تسير إلى دمار
ما بين عبد لليمين ... ومن تزندق لليسار
والكل يعبث لاهياً ... والعلج قد سلب الديار
والحر من هول المصائب ... صار مسلوب الوقار

ماذا أحدث عن عرار[2]

هكذا بدا الشاعر مذهولاً مندهشاً لما أصاب الأمة من ذل الصغار ، وهاله ما آل إليه حالها من ضعف وخور، وأمريكا ترفض حتى الإدانة بالقرار ، فيرثي الشاعر لهذا الحال فالعرب والمسلمون ما بين شجب واستنكار باتوا مسلوبي القرار ، خائرة قواهم إلى حد أذهل الأحرار .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 127 .

يصف الشاعر هذا الحال ويقف عند أدق التفاصيل مبيناً أسباب هذا الانحطاط والانحدار في ألم وحسرة عميقين :

حياة قومي هوان مؤرق ... وعيش بين قومي مع الذل مؤسف
أقلب طرفي علّني ألمح المنى ... وسمعي لصوت الحق والخير يرهف
جموعهم صدت عن الدين والحجا ... وفي موكب الطغيان والذل تزحف
كأنهم القطعان ضل دليلها ... ومن مذود الإلحاد والكفر تعلف
يتيهون في واد غريب عن الهدى ... يقودهم حاخام إفك وأسقف
فكم حاولوا تبديل دين محمد ... وكم من معاني الحق والخير حرفوا[1]

هكذا تتضح معالم تجربة مريرة خاضها الشاعر ، وتبرز مواطن مأساة ضاعت معها أحلام الأمة وآمالها ، وتراجعت الأمة واستبيحت كرامتها ، وأهينت عزتها ، كل ذلك علته غياب المنهاج الواضح وتنكب الأمة لطريق الحق وجادة الصواب ، فأصاب الأمة ما أصابها وحل بها من المصائب ما غير حالها ، وبدد قوتها ، وأذلها بعد عزة .

والشاعر بعد كل هذا الألم والحسرة القاتلين ، لا يفقد الأمل ولا تفتر عزيمته أو تخور قوته ، فهو بعزيمة المؤمن بربه والمؤمل بنصره وعزته ، يصرخ في ثقة وعزيمة بالغين ، مبشراً الأمة بفجر جديد وعود حميد إن هي التزمت طريق الحق وسبيل الصواب ، مبشراً بنصر جديد حين يقول :

أمة الحق أي هول دهانا ... قد حرمنا رغم المصاب الكلاما
رحم الله شاعر العرب شوقي ... وهو يشدو ويرسل الأنغاما
أحلال على الغراب التغني ... وغناء الهزار أضحى حراما
فعلت صيحة تجوب الفياني ... ونداء في الخافقين تسامى
أن يعود القرآن في الناس حكماً ... من جديد وشرعة وإماماً
ويقيم الإسلام دولة عدل ... تمنح الكون راحة وسلاماً
بعد أن عاث في حماه السكارى ... وتمادى في جانبيه الندامى
كم بنى الظالمون للبغي صرحاً ... من ضلال في غفلة الحق قاما
ووعي يقوم أثر وعي ... وغشوم عن الهدى يتعامى[2]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 160 .

(2) السابق ص 167 .

هذا إيمان الشاعر يتبدى في أبهى صوره ،إيماناً بنصر ربه وصواب دعوته وعدالة قضيته، وكبير أمله في أن تعود الأمة إلى عنوان عزتها وصائب رشدها ، أن تعود الأمة إلى كتاب ربها وسنة نبيها ، عندها فقط تعود للأمة كرامتها السليبة وتدول دولتها وخلافتها الرشيدة .

لقد تجلي في قصائد الشاعر عظيم تجربته وعميق انتمائه لأمته ووطنه وبالغ تأثره وألمه لما أصابها ، وإن غفل عن ذلك الغافلون أو تغافلوا ، فالشاعر مرهف الحس يقظ الضمير ، ثوري الروح ، حر الفكر ، لا يأبه بكل تلك القيود الظالمة والعقبات والأهوال المظلمة القاتمة .

فمن وسط ذلك كله ينبعث أمل المؤمن وإيمان الواثق بأن دولة الحق هي الأجدر بالبقاء إن قامت على منابع الحق ومدارج النقاد :

وضياء الإصباح لاح بعيني ... يتحدى في المشرقين الظلاما
قد عشقنا الإسلام حتى انتشينا ... بلظى الحب وارتضينا الغراما
مذ عرفنا الحياة براً وتقوى ... وعينا نحو المعالي كراماً
واعتصمنا بحبل دين متين ... صار شرعاً وعزاً اعتصاماً
ولواء الجهاد والعدل فينا ... قد حملناه مصحفاً وحساماً[1]

هذه رسالة الشاعر ، وهذه إيمانه وهذه عقيدته باعثة الأمل والنور من جديد .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص168 .

الموقف العربي في ظل القضية الفلسطينية (موقف ورأي)

الموقف العربي المنشود

نبع موقف الشاعر تجاه أمته من إيمانه بخيرتها وأهليتها لقيادة سائر الأمم ، ولم يكن مبعث ذلك إلا حقائق قرآنية، وسنة نبوية، وأمجاد تاريخية ،وسيرة كانت الأمة فيها خير مثال للأمم وعنواناً للعدل واحترام سائر الديانات والملل ، نعمت فيه البشرية بحكم إسلامي راشد وخلافة إسلامية رشيدة .

وقد انطلق الشاعر من تلك الحقائق ، ومن وحي تلك الأمجاد والصفحات التاريخية المشرقة، ليؤكد على حقيقة نظرته وصواب ظنه في أمته ، وأنها في طريقها إلى إعادة ذلك المجد التليد والخلافة الراشدة ، هذا ما نتبينه في مثل قوله :

يا درة في جيد تاريخنا ... رباك من كل الربا ألطف
كم قد مشت أكبادنا فوقها ... من كل روض زهرة تقطف
وكم سقينا تربها أنفساً ... أنقى من الياقوت بل أشرف
يا قدس مهما باعدوا بيننا ... ففي غدٍ جيش الهدى نزحف
كتائب الإيمان قد بايعت ... لا فاسق فيها ولا مترف[1]

والشاعر صادق الانتماء إلى أمته فخور بأمجادها وتاريخها، بالرغم مما يعتريه من حسرة وألم ، إنه على يقين بانبعاث الأمة من جديد وعودتها إلى منهاجها الصائب ، وهو مؤمن بأنها على موعد مع النصر الأكيد ، أما عن رجال العودة وصناع ذاك المجد فهم الذين يتبعون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الأطهار ، قال :

وعلى الرغم من جراح الضحايا ... لم يلن عزمه ولم يحن هامه
عمري الأمجاد غير جزوع ... فيه عزم من خالد وأسامة
يصنع الموت أويخوض المنايا ... وعلى ثغره الوضيء ابتسامة
فشرحبيل في دماه تلظى ... ومعاذ ما زال يرعى مقامه[2]

لكأني بالعظم يقصد من ذكر تلك القمم الشامخة في تاريخ الأمة الصفحات المشرقة التي سطروها في العدل والجهاد والاستشهاد ، القول : هذه هي الأمثلة وهؤلاء هم الرجال

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 67 .

(2) السابق ص 20 .

فأين هم السالكون وأين هم المقتدون ؟ وما هو الموقف المنشود ؟ وما هي سمات السالكين ؟ وما هو عتادهم وعدتهم ، هذا ما نراه في قول العظم :

أين رايات خالد وصلاح ... وزحوف لطارق وأمية
وعلي يزجي الصفوف ويعلي ... في ذرى المجد راية هاشمية
أين عهد الفاروق غير ذليل ... عف قولاً وطاب فعلاً ونية
وجيوش قد أشرعتها سيوفاً ... وقلوب نظيفة وتقية
في المحيط اللجي قد سقنا سفيناً ... وعلى الأرض كم بعثنا سرية
تنشر العدل والرخاء وتبني ... بأكف الهدى صروحاً علية
ذاك سر الفوز الذي نرتجيه ... وهو مفتاح نصرنا للقضية
ما يغبر السلاح في غير تقوى ... والليالي عربيدة خمرية
يا شهيد الجنان طبت مقاماً ... وتمتعت بالحياة الرضية[1]

يؤجج الشاعر مشاعر المجاهدين بتلك المعاني السامية ، والذكريات العاطرة المشرقة ليعزز صمودهم ، ويبشرهم بغد يشرق بنور الإسلام والحرية ، كما يبشر الشهداء منهم بجنة الخلد ، فيقول :

قل للذين أرادوا هجر شرعتهم ... النصر في الشرعة السمحاء لو عقلوا
فإن خطرت بساح العز متصلاً ... أو جنة الخلد فاهنأ أيها البطل[2]

ويهتف الشاعر مستصرخاً المجاهدين لنصرة المسجد الأقصى ، ويحثهم على رفض الذل والهوان ، والتأسي بسيرة المجاهدين من السلف الصالح[3] ، فيقول :

لكأني بمسجد القدس يدعو ... وينادي أما سمعتم أنينه
كيف نرجو الخلاص والنصر ممن ... ختم الذل والهوان جبينه
إنما الحرب عدة وجهاد ... لا خطاب منمق تلقونه
ابن سعد وخالد والمثنى ... كلهم بالدماء ينصر دينه
والسرايا يقودها ابن زياد ... ركب البحر لا يهاب سفينه
وصلاح كغرة الصبح يرجو ... أن تعيدوا وتبعثر حطينه[4]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 22 .

(2) السابق ص 23 .

(3) كأنه هنا يتمثل ما قاله الشعراء إبان الحروب الصليبية حينما وقع الأقصى في قبضة الصليبيين ، انظر الأشعار التي قيلت إبان ضياع الأقصى مائة على تحريره، نبيل أبو علي : الأدب العربي بين عصرين ، الطبعة الأولى ، غزة 2008 ، ص 154 وما بعدها .

(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص29.

ما كان لهذه الأمة أن تذل أو تهون، إلا عندما تنكبت سبيل كرامتها وتخلت عن أسباب عزتها، فتخلت عن دينها، وفارقت شرعة ربها، واستهانت بسنة نبيها ورسولها ، هذا ما ألمحه في قول العظم :

يا لقومي ماذا دهانا لنمس ... أمة همها الفتات المبعثر
لو سلكنا درب العلا لبذرنا ... وزرعنا في كل أرض غضنفر
وحمينا العرين من كل ظلم ... ودحرنا العدوان والظلم يدحر
ولماجت ساحاتنا بالسرايا ... يحمل الراية المنيعة جعفر[1]

إن للشاعر مرجعية دينية، وتاريخا عريقا مشرقا، يطل علينا به كلما أظلمت حولنا الخطوب، وادلهمت، ليرسم بقلمه طريق الخلاص طريق العزة، التي بها تعود الأمة إلى مضمار عزتها وحصن كرامتها ، لقد شهد لها العدو قبل الصديق ، إنها كانت منارة الأمم ، يقول :

سائلوا الكفر الذي أنكرني ... ورماني بسلاح مجرم
يوم كان الذل في هاماته ... موطني كان جباه الأنجم
يوم كان الجهل في ساحاته ... كنت أستلهم وحي القلم
يوم كان البدر من كفي له ... كنت لا أعرف طعم السقم[2]

إنها رسالة الإسلام السامية، يلوح بها الشاعر في وجه كفر، عنيد جاحد متغطرس معتدٍ يقارعه الشاعر بكل ثقة واعتزاز ويفاخر بأمجاده، يوم كان الكفر يرزح في ذله ويغرق في هوان الجهالة التي يبوح بها التاريخ .

وإن صاحب القلم الحر، والقلب الثائر يقارع عدوه بحنكة الفارس وروح المقاوم الباسل ، ويذكي في قلب الأمة روح التضحية والفداء وهو يصور ثورتها المنشودة وغيرتها المعهودة، في وجه أعدائها فيسطرها بكلمات ويرسمها لوحات من الفن الإسلامي الهادف الراقي ، يقول :

يا مسجد الخيف في الأقصى أحبتنا ... وفي الخليل وفي حيفا وبيسان
تهفو قلوبهم للزحف منطلقاً ... يحرر القدس من ظلم وعدوان
وراية الحق تعلو في مرابعنا ... تطهر القدس من رجس وأوثان
وتمسح العار من ساحات مسجدها ... وتغرس المجد فيها بالدم القاني
لقد أثرت دموع الشوق والهفى ... يا مسجد الخيف قد حركت أشجاني[3]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 31 .
(2) السابق ص 39 .
(3) السابق ص 60 .

إن عودة العزة والكرامة الغائبة، حلم يراود الشاعر في منامه وقيامه، وحله وترحاله، فنراه لا يكل من تقريع المتخاذلين وحثهم على رفض الذل والهوان ، هذا ما نراه في مثل قوله :"زحف يمزق عن الأمة سرابيل الهوان وقيود الانهزام فإما أن تبقى ترفل فيهما أو أن تهب نحو العلا وتترك الأوهام وكثير الكلام":

أمة الذل والمهانة قومي ... وعلى الذل والمهانة نامي
أو أفيقي وحطمي القيد حتى ... تتهاوى معاقل الأصنام
فيعود الضياء في أفق ... المجد مشعاً على مدى الأيام
وتعود الريات في راحة الحق ... مضاء ووثبة للأمام
نحن كنا وسوف نصبح يوماً ... قبس الكون قادة للأنام
بالحضارات والمكارم سدنا ... لا بتنميق خطبة وكلام
أمتي أمة الكرامة والمجد ... إذا عدت للهدى لن تضامي[1]

هذا الذي يحمله الشاعر لأمته ، والشاعر كبير حلمه ،عالية كبيرة همته ،عظيمة عزته، وليس ذلك غريباً ولا مستغرباً ، فهو سليل أمة عظيمة في مجدها...في منهاجها في تاريخها، وحق لها أن تبعث في نفس نشئها روح التضحية والفداء وتكسر عن معصميها قيود الذل والهوان.

وما أغفل الشاعر منهاج أمته ولا غفل عنه ، وما غاب عنه بلسم الشفاء من مرضها، إنه بالعودة إلى كتاب ربها وسنة نبيها .

والشاعر ثائر ثورة الأحرار شاعر بهموم أمته شعورا مزق صدره ، واكتوى به قلبه، وانخلع له فؤاده ، فهو ثائر في سكوته ، ثائر في همساته ، ثائر في كلماته ، حامل لهم الأمة منغمس بويلاتها ، تثور ثائرته شعراً فتنساب كلماته براكين ثورة وغضب .

يقول في رباعية بعنوان " همسة ثائرة " : " وحملقت في عتمة الليل .. فتحدتني من بعيد أضواء سيارة عسكرية للعدو " :

أنا في جوفي نار ولهب ... أنا في صدري حقد وغضب
فمتى يلفظ جوفي لهباً ... عندما يخجل حكام العرب
ومتى ينفث صدري غضباً ... عندما يصمت "سحبان" الخطب
عندها نسحق أعداء الحمى ... ونباري في العلى هام الشهب[2]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 62 .

(2) السابق ص 95 .

لئن كان للمقاتل سلاحه وللمقاوم رشاشه ، فللشاعر أيضاً قلمه وكلماته يقذفها ملتهبة مستعرة في خضم هذا الصراع التاريخي المصيري الذي تتصارع فيه الحضارات ، وتدور رحاها ضروساً، يخوضها الشاعر صاحب التجربة بكل جرأة وإقدام . فالكلمة في شرعتنا أمانة ومسئولية أمام الخلق والخالق ، أدرك الشاعر ذلك من وعي ديني إسلامي خالص فكانت كلماته سائل للأمة ولأبنائها وقصائده دعوات مفتوحة للقيادات والشعوب ، وهو في ذلك يحقق صورة الشاعر المنتمي إلى أمته وقضيته ووطنه الحامل لآلامها والداعي لتحقيق أحلامها .

وما اقتصر حب الشاعر لفلسطين ولمقدساتها فحسب بل اتسع قلبه حبا لكل مدن العالم الإسلامي ، وخاطب أمجادها واستثار عزيمة رجالها في كلماته وقصائده ،على اتساع الوطن ورحابته وامتداد جذوره الضاربة عمقا في تاريخ الإنسانية جمعاء.

والذي أرى فيه وتجسيدا تحقيقا لوحدة كان ينشدها ، وفكرة جاهد من أجلها، إذ أنها الوسيلة لخلاص القدس من أسرها ، وخلاص الأمة من مصابها، فخاطب الجزائر وثورتها والأردن وتاريخها ، وخاطب في قصيده –حنين إلى دمشق– أمجاد الشام وصفحات عزها ، وكأنه يصوغ الموقف العربي المنشود شعراً عله بتجربته وشعره يضع لبنة من لبنات الوحدة، ويفتح أفقاً من آفاق الاعتصام ، من ذلك قوله :

دمشق الأباة الصيد عهدي بصيدها ... رجالاً أباة الضيم والعهد مبرم
كماة حماة بايعوا المجد فاهرعي ... لكل كمي صادق العهد منهم
وقومي لشهباء المعالي لعلها ... تمد يداً في الله تقسو وترحم
وهزي بيداء الشآم أسنة ... لعل البوادي يا دمشق تدمدم
تموج بجنب الحق في الزحف ظافراً ... يقود جنود الحق للحق مسلم
غداً تلتقي الآساد في جحفل الهدى ... فيحزن باغ في الشآم ويندم
تفرقنا الأهواء بعثاً وعفلقاً ... ويجمعنا القرآن والحق والدم[1]

امتاز شعر العظم بهذا العبق الإسلامي الخالد وهذه الدعوة الراشدة لاستعادة الأمجاد الغابرة ، فكان شعره إسلامي المنطلق ، ثوري الروح ، وحدوي التوجه ، مقدسي الانتماء ، أردني الجنسية ، عروبي الإيقاع .

لقد خبر العظم مكر اليهود وعَلِمَ دهاءهم ، وفضح ذلك في شعره في غير موضع ، وعرف الطريق الأمثل لقطع دابر خداعهم ، فما خنع بعد هزائم العرب أمامهم ، وما استكان ولا لانت له قناة ، يقول :

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 206 .

إن غدر اليهـود مـا زال رمـزاً لجبـــان مقـــامر غـــدار
وارفعـي رايـة الجهـاد وقـولي قد علت همتي وعيل اصـطباري
إننـــي غـــزة التـــي لا تبـــالي أو تهاب الردى وقد عـز جـاري
علمتنـــا الأيـــام أن التنـــادي للمنايـا يـدير خيـر حـوار[1]

عشق العظم الحق ، وامتشق سلاحاً يقارع به فيالق الباطل ، قولاو عملا، فالجهاد سبيل الأمة الأوحد للذب عن حياضها والدفاع عن مقدساتها ، والزحف المقدس حلم الـشاعر صـوره بكلمات تنطلق من فؤاد جريح يحث على استلهام انتصارات، وأمجاد شهد لها التاريخ، يقول:

متى تسير إلـى الأقـصى جحافلنـا ويلتقـي فـي حمـاة قـادة الفـرق
يـستلهمون خطـا حطـين يرسـمها على الجباه كـريم النـزف والعـرق
أخا الجهاد بـلا ضـعف ولا خـور سيف الجهاد ورمح المصطفى منشق[2]

هكذا يريد العظم للأمة أن تزحف نحو القدس في وحدة جامعة ،وتحت رايـة واحـدة وعلى خطا حطين ، فهويريد لصوته أن يمازج هدير المدافع بل ويعلوهـا ، و قـد تـسامت روحه فوق الهزائم بل وتخطاها ، فكان شعره سلاحاً مشرعاً في وجه أعداء أمته، وصـوته مدوياً في قلوب أبنائها، بل ومتحدياً لعدوها :

لنا يا رموز الظلم والكفـر موعـد نطاردكم في الأرض والدهر قلّـب
وترصدكم فـي كـل واد كتيبـة عليها فتى في الحرب كالليث أغلب
لأن عرين الحق مـا زال زاخـراً ونبع الفدا في حقلنا ليس ينـضب
غداً ترفع الرايات والساح مـشرقاً بنور العلى والمجد يـدنو ويقـرب
لنغسل أرض القدس من رجس غاصب وليس لنا غيـر الكرامـة مطلـب
ألا يا حشود الحق سيري عزيـزة إلى الوطن المحتل والحشد يُرهب[3]

وما ضعف العظم وما ينبغي له أن يضعف أو يستكين ، فهو صوت الأمة الـذي بـه تصول وتجول ، والأمل ما زال يراوده بل وكله أمل بعود عزتها ، لكن ذلـك لا يكـون إلا بوحدتها التي ارتجاها من خلال كلماته وتكرار نداءاته ، فالوحـدة سـر كرامتهـا ، ودرب عزتها، ودرع تتقي به مكر عدوها ، وسلاح تقارع به المتربصين بها .

وأما الجهاد فهو السبيل لتحقيق النصر ، ومسح صفحات الهزائم، وما غفل الـشاعر عن البون الشاسع بين آلة الحرب العاتية بيد عدو غاصب، وبين سلاح المجاهدين المتواضع،

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 208 .
(2) السابق ص 219 .
(3) السابق ص 354 .

لكن سلاح الإيمان الذي امتشقه العظم هو الأمضى والأنكى في العدو ، فقوته تنبع من قوة الإيمان ورسوخه ونبل الهدف ورفعته ، تلك عقيدة صدع بها قائلا :

زحوف العلى يزهو بها كل ماجد ... ويرمي جموع النصر ليث مجرب
يؤجج نار الثأر زيد وجعفر ... ويذكي لهيب الشوق للحرب يعرب
وسيف سعى لله والنصر خالد ... يطل على ساح الجهاد ويرقب
وحوض الردى صفو لدين نصونه ... وإن حياض الموت لله تعذب
سيوف المنايا للجهاد تأهبي ... فلله والإسلام يحلو التأهب[1]

هذه العزة وهذا الشموخ، استلهمه الشاعر من عزة الأمة عبر تاريخها ، هذه الأمة التي انتمى لها الشاعر أصدق انتماء وأخلص لها أيما إخلاص ، وفلسطين جرح نازف في جسدها والأقصى الأسير يذبح كل يوم ، وأبناء فلسطين يرتقون كل ساعة على مذابح الحرية، فماذا عساه الموقف المنشود ، وما هو الرادع لهذا العدو الغاشم الحقود .

أدرك العظم أن الجهاد والجهاد وحده هو سبيل الأمة للخلاص عدو لا يملك إلا القوة المادية ويخلو واقعه وتاريخه من أي قوة روحية أو إيمانية ، والأمة تملك ذلك كله، تملك الإيمان ، تملك الرجال الصادقين ، تملك الحق ، تملك التاريخ ، تملك الإرث الحضاري الذي يؤهلها لريادة الأمم ، وتظل هذه أحلامه وطموحاته، وحدة الأمة حصن عزتها ، ودرع حربها ، والجهاد عدتها والرجال المغاوير سطروا تاريخ شموخها ، وضربوا لها أروع الأمثلة في التضحية والفداء. إرضاء لخالقها ونصرة لسنة نبيها وتحقيقا لاستقامة منهاجها .

والحرب ليست غاية ولا هدفاً ينشده العظم ولا يسعى إليه ، وإنما هو ديدن الأمم لاسترجاع الحقوق ، وتحرير المقدسات ، وردع العدو وإقامة دولة الحق ، فما كانت له دولة دون قوة ولا صالت له صولة دون جهاد ، ولا انتصرت أمة دون توحد واعتصام هذا ناموس كوني لا ينكره إلا جاهل .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 354 .

سلام أوسلو في ميزان الإسلام

تملكت العظم روح قتالية عالية، ميزته عن كثير من الشعراء، تبدت ملامحها من بين أبيات قصيده ومعاني أشعاره، تنم عن مضمون مقاوم كبير، فقد برز العظم في شعره رافعاً لواء الجهاد، مشهراً سلاح الصمود والعناد، في وجه أنواع القهر والاستبداد كافة، كان ذلك أثراً مباشراً لما عايش الشاعر من آلام وويلات كابدها بكل تفاصيلها، سيطرت على كل مشاعره وأحاسيسه. وعلى عادته كان واضحاً في معانيه، قوياً في مبانيه، جاء شعره منسجماً مع الجماهير التي عاش بين ظهرانيها، والشعب الذي انتمى إليه، استنطق فيه الشاعر أفواه الشهداء، وتحدث بلسان أسرى الحرية، وأسرى الكلمة، وترجم آهات الجرحى، ودموع الثكلى، وأنات المرضى، وأحزان الأيتام، شعراً دفاقاً، جزلاً قوياً، لا يعرف الانحناء، ولا الانثناء، أو الانكفاء، فلم يجد غير شعر المقاومة، ورفض المساومة. فهو شاعر فارس صال بشعره وجال صعوداً وصموداً لا يعرف التراجع أو المحال.

ولا شك أن الشاعر رحمه الله، كان صاحب رؤية ورأي في كل منعطف مرت به قضيته وفي كل السبل والشعاب التي سلكها شعبه عبر مسيرته صوب الحرية والاستقلال، منطلقاً في ذلك من عقيدة راسخة، وإيمان عميق، لا يعرف التذبذب ولا التردد، في إطار رؤية واضحة، ورأي ثاقب وصائب صواب الإسلام الحنيف الذي دان به الشاعر و إليه انتمى.

مرت القضية الفلسطينية بمراحل من المد والجزر، والكر والفر مع عدو غاشم لا يرحم، وتحت قيادات تولّت وولّت عن درب الجهاد والمقاومة، عازفة عن الحرب عزوف الشاعر عن الاستسلام، عازفة ألحان السلام بمزامير يهود وألحان الغرب الذي صنع دولة الكيان.

والعظم فطن نحرير، خبر مكر يهود، وخبث مرادهم، وتاريخ خياناتهم ونقضهم العهود والمواثيق منذ عهد النبوة، على صاحبها أفضل صلاة وسلام.

السلام : كلمة من صميم شرعة الحق جاءت به ، وهدف سام من أهدافها فالسلام لم يعرف طريقه للبشرية إلا في ظلال الإسلام الراشد، وأول ما عرفت البشرية من سمات الإسلام السلام، عرفته واقعاً معاشاً، عرفت ملامحه ومواطنه وأسسه، عرفت حرية العبادة وحرية الرأي والتعبير في حدود منظمة منضبطة.

جاء الإسلام بالسلام للبشرية جمعاء، في ظلها عاش المسلم وغير المسلم حراً كريماً سيداً في أرضه ووطنه، دون إكراه على اعتقاد أو إجبار على اعتناق.

فماذا أراد أدعياء السلام وماذا يقصدون من دعوتهم للسلام؟ يرد العظم في سرعة واختصار، وإلمام واقتدار، على تلك المؤامرات القذرة التي تسمى مؤتمرات، وتلك المواثيق وزائف المعاهدات:

مالي أرى الغرب يسعى في مـــؤامرة والشرق مضطرب في الملتقى حـــذر
تعانقـــا رغـــم خلـــف قـــام بينهمـــا مستعصياً ولدحر الحق قـــد مكـــروا
وضمهم مجلس التطبيق فـــي شـــطط وقـــام مـــؤتمر يتلـــوه مـــؤتمر[1]

والأمر لم يكن مقتصراً على زعماء الغـــرب، ومكـــرهم بالمـــسلمين إذاً لهـــان الأمـــر واستوعبته العقول، أو الفطرة السليمة، إذ العداء أزلي مستحكم. أمّا وقد شارك في المؤامرة أبناء الأمة ذاتهم، وتساوقوا مع الغرب الغاصب، فكان الأمر يستدعي كثيراً من الأسى والألـــم الـــذي مزق فؤاد الشاعر:

مالي أرى في الحمى قامت مـــؤامرة قد أعدها طغمة من دينهم ســـخروا
أكلمـــا ضـــمنا جمـــع لنـــصرتنا يحـــف بـــالملتقى مـــستنفع قـــذر
ينفـــذون سياســـات لهـــم رســـمت ومن كؤوس العدى بالخمر قد سكروا[2]

أدرك العظم أن وعود الغرب غرضها إما سلب الحق أو مؤامرة على المقاومة لإجهاض قوتها:

قولوا لمن قد تنـــادوا فـــي مـــؤامرة ليجهضوا الحق في ساحاتنا قولـــوا
لقد مضى زمن التخـــذيل فـــانطلقي يا قدس ولى زمان فيـــه تخـــذيل[3]

والشاعر العظم متفائل تفاؤل الواثق بربه، المؤمن بعادل قضائه وقدره، المتـــيقن مـــن صواب منهاج الرسالة، حاول الغرب تغييبها لكن الحق يأبى النسيان ولا يضيع أو يسقط عبـــر السنين والأزمان، فالمقدسات باتت قطعاً من جسد الشاعر وقلبه وفؤاده:

لست أرضى بغير يافا ديـــاراً وربا القـــدس قبلـــة ومـــزاراً
بعد أم القرى وكعبـــة روحـــي في حماها نلقى الهدى والوقارا
ففلسطين قطعة مـــن فـــؤادي كيف أرضى مع العدو حواراً[4]

فلسطين قطعة من فؤاد الشاعر وكعبة روحه، فكيف يقبل الحوار أو الحديث عن حـــوار يقتطع هذه البقاع من أرض الإسلام والمسلمين، لقد اكتسبت فلسطين قدسيتها من كتاب الله تعالى، فمنذ فجر التاريخ كانت فلسطين على موعد مع الإسلام الحنيف.

جاء في الحديث الصحيح: "عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أي مـــسجد وضع في الأرض أول، قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما؟ قال: أربعون سنة وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد"[5].

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 418 .

(3) السابق ص 206 .

(4) السابق ص 301 .

(5) صحيح مسلم (370/1) (5) كتاب المساجد ومواضع الصلاة (520/1).

ثم أكرم الله الأقصى بمعجزة الإسراء والمعراج، التي كانت بمثابة عهدة في عنق أمة الإسلام وعهدة في أعناق حكام المسلمين إلى قيام الساعة.

من أجل ذلك يرسل العظم ببرقية مستعجلة إلى مَنْ يهمه الأمر يوجز فيها موقفه من كل تلك المؤامرات:

دولة الخمس من فلسطين ولي ... وتلاشي من فكرنا واضمحلي
إنما الدولة التي نبتغيها ... في رحاب الأقصى كيان يصلي
ينشر العدل في جميع فلسطين ... وفيها للدين اسمى محل[1]

والوفاء وصدق الانتماء، ليست كلمات أو شعارات جوفاء، أو خطب نارية عصماء، بل هو عهديقطعه الشاعر على نفسه إيماناً منه بصدق وعدالة قضيته وأحقية أمته في أرضه:

قولوا لمن خانوا العهود ... وعصبة الشر الوبيل
لن نستكين ولن نذل ... ولن نهون ولن نميل
عن درب تحرير الجليل ... ولن نحيد عن السبيل
عهداً ثورته الأباة بأر ... ضنا جيلاً فجيل
للثورة الشماء ترفع ... راية الهدف النبيل
للفتية الأحرار نشعل ... من شرارتها الفتيل
لا لن يحل بأرضنا ... صلح ولا سلم هزيل

هذا هو الموقف الذي يجاهر به الشاعر ومن أجله يواصل ويقاتل، وينكر الشاعر على الصامتين صمتهم المريب وكذلك على المتشدقين كلامهم وخطابهم المعيب:

قد ملأتم رحب الفضاء كلاماً ... وأثرتم من الحديث شجونه
ومضيتم لمجلس الأمن ضعفاً ... وهواناً وذلة ترجونه
أن يدين العدو يا لهف نفسي ... كيف نرجو عصابة أن تدينه[2]

وينطلق الشاعر في موقفه الرافض للخنوع والخضوع والذي يسمونه السلام؛ من موقف قوة لا موقف رفض لمجرد الرفض، فالشاعر ينتمي إلى أمة تاريخها حافل بالانتصارات والبطولات التي لا تستقيم معها التنازلات ولا تتساوق المؤامرات.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 302 .

(2) السابق ص 28 .

التخاذل العربي والإسلامي من منظور الإسلام

إن من يتأمل شعر العظم ويدرس مقدمات مجموعاته الشعرية وقصائده وكلماته يرى أن العظم مرهف الحس مكلوم الفؤاد مستفز المشاعر بفعل ما حل بالأمة على وجه العموم، وبالمقدسات على وجه الخصوص وعلى رأس تلك المقدسات المسجد الأقصى المبارك.

وبموازاة تلك المآسي كان العظم نازف المشاعر تجاه حال الأمة وحال قياداتها التي تولت أمرها فأوردتها موارد الهزيمة والانكسار فكان العظم في قصائده مستشعراً هول المصاب مستشرفاً ظلمة المصير الذي ينتظر الأمة إن هي سكتت على زعاماتها العابثة بمقدراتها واللاهية عن مصالحها وأمجادها.

وكعادته كانت عناوين مجموعاته كما قصائده متحدثة عن مضمونها تبوح بما يحمل العظم في صدره وما يجيش بمشاعره ويلهب فؤاده ويحرك أركانه.

وتبلغ تلك المشاعر ذروتها وتتفجر قريحة الشاعر عن مكنونها في قصيدة شاعر باع نفسه لأولئك النفر الذين مزقوا الأمة وأهدروا طاقاتها منكراً عليه أشد الإنكار أن يكون عبداً للخنا والخنوع.

فأولئك القوم لا يستحقون المدح أو الثناء بقدر ما يتوجب على الشاعر هجاؤهم وفضح خسيس أفعالهم، ليس شهوة يشتهيها الشاعر ولكنه واجب تمليه عليه وطنيته ومبادئه:

تبكي على الوطن الحزين وتنحني ... للظالمين تدوسك الأعقاب
وطن يمزقه النفاق تصوغه ... شعراً ليهتف بالنعيب غراب
وطن أبو جهل يسوس أموره ... واللات قد حفت بها الأنصاب
أبوابه مفتوحة لغزاته ... والحر توصد دونه الأبواب
والغاصبون لهم خلاصة خيره ... والمخلصون بشرعه أغراب[1]

يدخل العظم حصن المقاومة والجهاد من أوسع أبوابها فالمقاومة عنده ليست مقاومة المحتل في الميدان فحسب ، وإنما مقاومة في شتى الساحات والميادين ، مقاومة فكره ومقاومة منظريه ودعاته ، مقاومة المنافقين الذين باعوا للعدو أنفسهم ، مقاومة الخمول والدعة والسكينة ، مقاومة دعاة الفرقة والتمزق وإن تشدقوا بأنهم دعاة وطنيون .

إن العظم مقاوم في شعره وفكره ومشاعره مقاوم في كيانه وكلماته وقصائده مقاوم في تربية النشء، مقاوم للتخاذل والتراجع، مقاوم للتنازل:

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، ص 129 .

وطن يعبث البعث في أرجائـــه والبطش فيه يشيع والإرهـــاب
ميشيل رائده يخطـــط حاقـــداً والتـــابعون جمـــيعهم أذنـــاب
ما بين جـــلاد يتيـــه بـــسوطه ومغامر فـــي فكـــه أنيـــاب[1]

وما كره الشاعر ولا أنكر على الأمة أمراً أشد من إنكاره لتخـــاذل حكامهـــا وتبعيـــة شعوبها وصمت أغلبيتها على حكام ساموها سوء العذاب، والعظم حر القلب والفـــؤاد، حـــر الشعور والمشاعر، حر الفكر والانتماء، ما قبّح شيئاً تقبيحه للتخاذل والخضوع وهما أمـــران يتناقضان وروح الإسلام الذي يدين به الشاعر، الإسلام الحر في مضمونه وشكله:

قد طأطأوا الهامات في ساح اللقـــا هربـــاً وذلـــت للهـــوان رقـــاب
أسد أمام الشعب أما فـــي الـــوغى فأرانـــب وثعالـــب وكـــلاب
والحكم فيكـــف "الـــدخيل" مهنـــد والحزب في جنب العميل قراب[2]

إن هذه الحال من التردي والخنوع والخضوع المتغلغل في نفوس الأمة ما كانـــت إلا صناعة أولئك الحكام الخونة والأمراء العملاء والأتباع الدهماء الذين ارتـــضوا لأنفـــسهم أن يكونوا أدوات للغرب وأحذية له ينتعلهم وقتما شاء ويقذف بهم إلى مزابل التاريخ وقتما يشاء:

يا شاعراً "للبعث" صار منافقـــاً أتباع حزبك في المعامع خابوا
ما دام دين الجاهليـــة ديـــنكم فجهنم يوم الحـــساب عتـــاب
وإذا "أبو لهب" علا مـــستكبراً فشبابنا عنـــد اللقـــاء خبـــاب
وحياتهم نور يـــضئ طـــريقهم وحياة مثلك ظلمـــة وســـراب
قد عاهدوا الرحمن رباً واحـــداً وتعددت في حزبك الأرباب[3]

والعظم في إنكاره تلك الأوضاع التي آل إليها حال الأمة انطلق من بواعث الإســـلام الذي يدين به والدعوة التي حملها بين جنبيه والتي يعمر بها فؤاده وينشرح بها صدره.

إن الإسلام في كله دعوة للحرية ونقيض للتبعية وإلغاء الذات فهو الدين الوحيد الـــذي يدعو حرية الفكر وحرية التعبير في ضوابط وحدود ما وضعت لتقيد العقل أو تكبـــل الفكـــر بقدر ما تتيح له ممارسة الحرية المنضبطة الواعية البناءة، في حدود شرعها العلـــيم الخبيـــر بمصلحة الإنسان وبما يضمن له الحياة السعيدة السليمة والآخرة القويمة.

والإسلام هو بارقة الأمل التي تراود الشاعر كلما تسلل إلى نفسه اليـــأس أو نهـــشت فؤاده الآلام فروح الإسلام لا تعرف الاستسلام ولا تؤمن بالدعة والسكوت:

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 130 .

الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الدوريات والمخطوطات

حيـــاة بنـــي قـــومي هـــوان مـــؤرق وعيش بني قومي مع الـــذل مؤســـف
أقلب طرفـــي علنـــي ألمـــح المنـــى وسمعي لصوت الحق والخير يرهف[1]

يبدو العظم حزيناً مؤرقاً لما أصاب الأمة من ذل وهوان حائر العينين مشنف الأذن عله يستمع إلى صوت يجمع الأمة أو يوحد صفها أو يلم شعثها بعدما حل بها من تشرذم وتفرق.

وقد عنون العظم قصيدته "ضراعة مؤمل ... وحسرات محزون" كان ذلـــك قبـــل أن ينقل إلى غرفة العمليات وقد هاجمته هذه الخواطر وتملكت فؤاده تلك الأماني وهذا الرجـــاء. ولعل ذلك يبين بوضوح حجم المشاعر الدفاقة التي حملها الشاعر فلم تكن تفارق فؤاده.

ولئن كان الطبيب حاذقا عارفا بمرض العظم فالعظم حاذق عارف بمرض الأمة علـــيم بعلاج أمراضها ذو فطنة وذكاء أهله أن يشخص حالتها وأن يصف علاجها بكل مهارة ودراية:

جموعهم صدت عن الدين والحجـــا وفي موكب الطغيان والذل تزحف
كـــأنهم القطعـــان ضـــل دليلهـــا ومن شدو الإلحاد والكفـــر تعلـــف
يتيهون في واد غريب عن الهـــدى يقودهم حاخـــام إفـــك وأســـقف[2]

إن ما تتعرض له أمة الإسلام عبر تاريخها إنما هو محاولات أعدائها سلخ الأمة عن دينها ومسخ أهدافها وتبديل معتقداتها لا لشيء إلا لأن هذا الدين هو عصمة أمرها و حـــصن وحدتها وسر قوتها، خبر ذلك أعداؤها وعلموه وبذلوا جهودهم كيما يحرفوا الأمة عـــن ذلـــك عبر العصور وعلى مر الأيام:

فكم حـــاولوا تبـــديل ديـــن محمـــد وكم من معاني الحق والخير حرفوا
ولكـــن ديـــن الله تحميـــه عـــصبة يطاردهم في الكون باغ ومرجف[3]

وتظل عزة الإسلام وكرامة المسلم عنواناً يلوذ به العظم كلما تكالبت عليـــه الهمـــوم وتراكمت عليه الآلام، وتزاحمت في ذهنه المصائب وتراقصت على جراحه النوائب، فيلـــوِّح العظم بالبلسم الذي يشفي الأمة من أسقامها ويعيد الريادة لأصحابها وذلك شـــأن الأمـــة فـــي جميع كبواتها وعلى مر تاريخها:

مددت يدي للجيل جيـــل محمـــد لعل يدي من روضه البر تقطف[4]

هذا هو علاج الأمة وعلاج مرضها الذي فت في عضدها وثلم ســـيفها وأدار عليهـــا دائرة النوائب والأيام.

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 160 .

(3)، (4) السابق ص 161 .

124617

ولعل صور التخاذل العربي ومعالمه قد بدت واضحة في جسد الأمة فالأمة هجـرت دينها الذي وحد صفها وتفرقت أحزاباً وجماعات وفرقاً ومزقاً، وتركت عنوان قوتها ورمـز عزتها، تركت تعاليم دينها وكتاب ربها وانبرت إلى مناهج وضعية وقوانين غربية احتكمـت إليها وانتمت، فغدت ممزقة الأوصال مشتتة الكلمة هزيلة الموقف، وما كان ذلك إلا بعـد أن هجرت عنوان عزتها وتنكبت طريق إسلامها.

والعظم يرقب كل ذلك في حسرة وألم وقد استبيحت الأمة في كلها ولم يبق لهـا إلا طريـق واحد يجمع راياتها في راية واحدة ويلم شعثها ويرص صفها.

الفصل الثالث

تحرير فلسطين – رؤيته ورأيه

الإعداد الإيماني للنشء

أدرك شاعرنا رحمه الله، أهمية العلم ودور العلماء في حياة الشعوب ورفعة الأمم ، وما لذلك من أهمية عظمي في صون حريتها واستقلالها والذود عن كرامتها ورفعتها ، فأجلّ رحمه الله المفكرين والعلماء في قصائده وكتاباته ومكبرا المفكرين والمعلمين والأدباء .

وما اقتصر ذلك منه على قول فقط بل حققه واقعاً عملياً في حياته كلها ، فإلى جانب عمله كمعلم ومربٍ ، فقد أنشأ رحمه الله تعالى سلسلة مدارس الأقصى بادئاً إياها ببراعم الأقصى في مطلع الستينيات ، " لئلا تبقى نظريته في التربية حبراً على ورقة تناقلها الأجيال مثلما تناقلت نظريات كثير من الفلاسفة ، فقد نزل بها إلى حيز التطبيق العملي ، فأنشأ مدارس الأقصى التي نزل بها إلى الواقع في مطلع الستينات منشئاً الحلقة الأولى التي سماها (براعم الأقصى)" [1] .

وهذا شأن المفكرين العاملين الطامحين إلى مستقبل زاهر لأمة ذات تاريخ عريق ومجد تليد ولاغرو فالعظم سليل مدرسة الفكر العملي المعطاء لا النظري الأجوف.

" كانت (براعم الأقصى) روضة أطفال صغيرة في منطقة العبدلي بعمان ، وفي مبنى مشيد بالحجر الوردي ، دخلناها فرأينا أطفالاً ينشدون هنا وأطفالاً يلعبون هناك ، وطائفة منهم تزرع الشجر والورد أو الزيتون في المساحة الترابية التي تركت لذلك ، كان المنشدون يرددون":

روض الأقصى ما أحلاه
أنا برعوم فوق رباه
جيش الأقصى ما أقواه
أنا جندي أحمي حماه
ترب الأقصى ما أغلاه
روحي فداه روحي فداه[2]

هذا النشيد العذب الهادف نشيد براعم الأقصى ، وهذه رسالة المعلم لهم ، وهذا طموح يغرسه في أرواحهم منذ الطفولة ، لأنهم، طموح الأمة وحلمها في تخليص الأقصى والمقدسات من يد المحتل .

---

(1)، (2) د. عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم ، مرجع سابق ، ص 158 .

وبهذا يحقق حلمه الذي طالما راوده منذ أن كان طالباً جامعياً ثم طالباً في الدراسات العليا بجامعة عين شمس (1953) ، قال أبو جهاد : " فعملت في شتى الميادين وكتبت في شتى الموضوعات ، وقد مَنّ الله عليّ بفضله ، فتدبرت أمر الناشئة المسلمة في حياتهم اليومية بين البيت والمدرسة والمسجد والسوق[1] " .

هذه هي رؤية الشاعر المسلم لما ينبغي أن ينشأ عليه النشء ، لقد حمل ديوانه للجيل أشعاراً بسيطة في ألفاظها ، عظيمة في معانيها ، سهلة في أوزانها ، قيّمة في رسالتها ، تغرس فيهم حب الجهاد والدفاع عن الإسلام ومقدساته ، وتبذر فيهم فداءه وصدق الانتماء إليه ، والتفاني من أجله[2] .

هكذا صاغ يوسف العظم لأطفال الأمة أشعاراً فيها البساطة ، وفيها الأمل ، وفيها تذكير بالأقصى قبلة المسلمين الأولى ، لقد نظم لهم نشيد (البنفسج) ونشيد الورد ، ونشيد (الريحان) أيضاً ، بعدما نظم نشيد (أمي) ، ونشيد (أبي) ، بعد نشيد (الله الخالق)[3] .

لقد عاش شاعرنا كبيراً مع الكبار ، عظيماً مع العظماء في عطائه في شعره وفي نثره وفي عمله كدأب الشعراء الكبار أصحاب الرسائل الكبيرة ، لكنه ما نسي أن البداية تبدأ مع الجيل منذ الطفولة ، يقول : " عشت مع الصغار ... ولهم .. أرقب همس الشفة .. ورعشة الجفن .. ووميض البراءة في العيون النقية الصافية .. ومن لثغات الألسن .. ورعش الجفون .. وبراءة العيون انطلقت أكتب لأجيال الغد المؤمنة : عقيدة ... وعبادة ... وتراثاً... وسلوك حياة ، وما من شيء أبتغيه ... ولا غاية أرتجيها سوى رضوان الله "[4] .

هنا تكمن أهمية الشاعر وعظمة رسالته ، لقد كان مرهف الحس رقيق المشاعر ، ثاقب الرؤية كبير القلب ، صاحب رسالة عظيمة عِظَم الدين الذي يدين به والحلم الذي يحمله والطموح الذي يرنو إليه وترنو إليه الأمة معه .

ولم يكن ذلك في حياته كلاماً نظرياً يتشدق به ، بل واقعاً ملموساً قدمه أعمالاً للأجيال تحمله جيلاً بعد جيل .

وما نسي الشاعر أن يفاخر الأمة بإسلامه ويغرس ذلك في نفوس أبنائها بقوله : " أنا يا قوم مسلم " .

---

(1) د. عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم ص 158 .

(2) انظر : طلعت سقيرق : الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1993 ، ص 27 وما بعدها .

(3) د. عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم ص 159 .

(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، ص 277 .

إنه الجديد الذي جاء به الشاعر ، ولعل هذا ما يشير إليه في ديوانه وما نراه في قصائده للجيل المسلم حين يقول[1] : " إن في هذه المجموعة من الأناشيد شيئاً جديداً بل أشياء... والجديد فيها لا أدعيه ادعاء ، ولكنها حقيقة واقعة يلمسها المطالع لها إذ يصدر لأول مرة في المكتبة العربية مجموعة من الأناشيد والأغاريد الدينية للطفل المسلم ابتداء من الصف التمهيدي حتى الصفوف الإعدادية ، إذا استثنينا مجموعة القصائد الدينية التي أصدرها من قبل الأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا ، ولكنها لم تكن شاملة تستغرق ما استغرقته هذه المجموعة ، كما أن عددها كان يتجاوز أصابع اليد الواحدة بقليل " .

ويوضح الدكتور يوسف رحمة الله عليه الجديد في ما كتبه في هذه القصائد قائلاً :

"الجديد في المجموعة جوانب عدة :

الأول : عددها الذي جاوز العشرين .

الثاني : شمولها لكثير مما يجب على الطالب المسلم أن يلم به ويعرفه على صورة أغرودة أو نشيد . من العقيدة القائمة على " لا إله إلا الله محمد رسول الله " إلى خلق المسلم وسلوكه النابع من عقيدته الصافية .

الثالث : الأسلوب الذي كتبت به المجموعة ونظمت به جاء في معظم القصائد سهلاً ميسوراً يستطيع معه الطفل أن يردد في رقة وإشراق قصائد عذبة اللفظ رقيقة الأسلوب ، سهلة التناول .

الرابع : الانفعال الصادق والحقل التجريبي الذي ولدت فيه المجموعة حيث ترددها الآن مجموعة تخطى عددها الآلاف من " براعم الأقصى " ، وغيرها في الأردن ، إلى الأعداد الأخرى التي تلقفت القصائد في كل من الكويت ولبنان والعراق والمملكة العربية السعودية وغيرها من ديار الإسلام "[2] .

يشار هنا إلى أن هذه الأغاريد طبعت أربع مرات وكانت كل طبعة منها تنفذ من المكتبات كما أشار إلى ذلك يوسف العظم في ديوانه[3].

وقد جاء اهتمام د. يوسف بالجيل الناشئ لعلمه اليقين وإدراكه العميق بمدى أهمية إيلاء هذا الجيل اهتماماً خاصاً ورعاية عالية .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، مرجع سابق، ص 378 .

(2) السابق ص 379 .

(3) السابق ص 382.

وقد أشار إلى ذلك أحمد محمد عبد الله في مقدمة وضعت في أول الديوان قال فيها : " ولقد التفت لهذه الظاهرة رجل مسلم حركته تلك البراعم التي عاش بينها زمناً ، فأصر على أن تتلقى هذه الورود اليانعة مياه الغرس صافية لا تشوبها أخلاط فكر مسموم "[1] .

والملاحظ في الأغاريد أن الكاتب رحمه الله قد قدم لكل أغرودة أو أنشودة بآية كريمة من كتاب الله تعالى أو ضمنها معانٍ سامية من تعاليم الإسلام الحنيف في كل بيت أو شطر من أبياتها ، هادفاً من ذلك ترسيخ معنى و غرس خلق أو إحياء سنة أو تعليم أدب .

ففي قصيدة " الله ربي " يقول :

إن سألتم عن إلهي فهو رحمن رحيم
أو سألتم عن نبي فهو إنسان عظيم
أو سألتم عن كتابي فهو قرآن كريم
أو سألتم عن عدوي فهو شيطان رجيم[2]

يسعى الشاعر إلى تعليم النشء الصغير بعض صفات الخالق عز وجل ، وأهم صفات المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثم تعريفه بكتابه السماوي ، وعدوه الدائم ... بكلمات بسيطة ، وأوزان سهلة الإيقاع حفظها وترديدها ، ثم ينتقل لتعريفه على أهمية الصلاة، فيبدأ قصيدته الموسومة بـ " الوضوء " بحنو بالغ رقيق ، يقول :

بني توضأ وقم للصلاة وصلّ لربك تكسب رضاه
إذا رضي الله عن مسلم ينال السعادة طول الحياة[3]

وفي معنى رقيق عذب يدفع الشاعر الطفل للوضوء ، الذي هو شطر الإيمان ، والصلاة هي الطريق لمرضاة الرب سبحانه وتعالى حتى ينال العبد السعادة طوال حياته وبعد مماته ، فيقول :

بني توضأ وقم للفلاح ففي طاعة الله سر النجاح
إذا رضي الله عن مسلم بدا مشرق الوجه مثل الصباح[4]

وفي تكرار توضيحي يرسخ الشاعر في نفس الأطفال القيام للوضوء والصلاة تلبية لنداء الأذان الخالد ، والذي فيه طاعة الرب وفيها سر النجاح المنشود .. تتكرر دعوة الشاعر " إذا رضي الله عن مسلم " وجواب ذلك " بدا مشرق الوجه مثل الصباح " .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 384 .

(2)، (3)، (4) السابق ص 385 .

في هذه المعاني الوارفة، يدعو الشاعر النشء للحفاظ على الصلاة ، منـذ الـصغر تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم " علموا أولادكم الصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعـشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع " ، يقول العظم :

بني توضأ بمـاء طهـور فماء الوضوء لوجهك نور
إذا رضي الله عـن مـسلم أتاه الهناء ونال السرور[1]

والماء الطهور شرط لصحة الوضوء، فهو يكسو الوجه رونقاً وجمالاً مادياً ومعنوياً.

انها معان رقيقة وفوائد دقيقة للوضوء وللصلاة يبرزهاالشاعر من خلال كلمات سهلة اللفظ موحية المعاني مشرقة في مضامينها حاثًا على بالوضوء وضرورته ، وموجها الانتبـاه إلى ضرورة الحفاظ على الصلاة في أغرودة أخرى – قصيدة الصلاة – عملا بقوله تعـالى: " **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** " (النور : 31) ، فقال العظم :

كلما نادى المنـادي هاتفـاً الله أكبـر
خمس مرات نصلي بخـشوع وتفكـر
فـي قيـام وقعـود ما أحيلاها صـلاة
وركـوع وسـجود نبتغي عفو الإلـه[2]

والشاعر في رقة وحنو يحث النشء ويحضهم على أقامة الصلوات الخمس داعياً إيـاهم الحرص على حضور القلب والفكر في صلواتهم حتى لا تغدو مجرد عادة أو حركات بلا مضمون، ويتحدث الشاعر عن أركان الإسلام الخمس في مقطوعات شعرية معبرة وسهلة تقطـر حنانـاً، كحبات الندى من أفواه النشء وهم يترنمون بها لترسّخ فكراً إيمانياً طاهراً ، فيقول في الزكاة :

ابذل من مالـك مـسروراً قمحـاً ونقـوداً وحريـراً
واحفـظ مـسكيناً وفقيـراً وتجنـب ويـلاً وسـعيراً
واطلب من خالقك الرحمة[3]

انه كلام رقيق سلس سهل في شرح أركان الإسلام ، فالبذل ينبغي أن يكون عن طيب نفس وعطاء، عن سعادة وسرور ، اعترافاً لله تعالى بفضله وشكراً له على نعمه .

وابذل من مالـك لا تنـدم فزكاة المـال بهـا تغـنم
وارحم إخوانك كي تـرحم في يوم الحشر غداً تسلم[4]
من نار جهنم والنقمـة

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 385.
(2)، (3)، (4) السابق ص 386 .

والبذل لا بد أن يكون عن نفس راضية ويقين صادق بالغنم بعد الإنفاق .

وامتثالاً لحديثه صلى الله عليه وسلم؛ عن عَدي بن حاتم رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اتقوا النار ولو بشق تمرة "[1] .

ابذل من مالك فرحاناً واحفظ بزكاتك إنساناً
واقرأ في بيتك قرآناً واطلب من ربك رضواناً
واشكر مولاك على النعمة[2]

فالبذل يدعو إلى عزة وفرح بما أعطاك الله ، لذلك عليك أن تسعد بذلك .

كما أن الإسلام حث على التكافل والتعاضد ؛ قال عبد الله بن ساور سمعت ابن عباس يخبر ابن الزبير يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع"[3] ، ومصداقاً لقوله تعالى: "**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**" (سبأ: 13) ، فإن البذل والإنفاق شكر عملي يرسخه الشاعر في نفوس النشء لينشأ على حب العطاء وليتأهب لمرحلة قال سبحانه وتعالى فيها : " **لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** " (التوبة : 88) .

لقد انطلق الشاعر في كلماته من آيات قرآنية عطرة ، ومبادئ إسلامية عالية ، وقيم إيمانية سامية مبتغياً في ذلك حسن التنشئة واستقامة النفس على الجادة ، لينشأ الجيل القادر على التحرير، المترفع عن الرذائل والدنايا في كل مراحل حياته ، منطلقاً في ذلك من المنهاج الذي تربى عليه العظم ، ثم الفكر الذي أحياه الإمام الشهيد وبعث فيه روح الجهاد[4] .

والصوم كذلك كان له نصيب في الأغاريد ، فهو مدرسة الصبر وعنوان يقظة الضمير ، ورفعة الروح ، وتهذيب النفس ، وكبح جماح شهوات وهو مشاركة للفقراء والمساكين في ضيقهم ومشاركة المسلمين بعضهم في عبادتهم .

رمضان هل هلاله فاستبشروا بطلوعه
وبصومه وصلاته وبذكره وخشوعه

---

(1) صحيح البخاري مع الفتح، (283/3) (24) كتاب الزكاة، (10) باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة (1417).

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 386.

(3) الأدب المفرد للبخاري (ص53)، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم مولاهم الجُعفي (ت226)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1409هـ-1989م، الطبعة الثانية.

(4) انظر : علي أحمد الخطيب : قطوف من ثمار الأدب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1997 ، ص 14-15 .

فاضـــت علينـــا رحمـــة بـــالخير مـــن ينبوعـــه
قد عـــاد يـــشرق بالهـــدى يـــا مرحبـــاً برجوعـــه[1]

والصوم مدرسة الصبر و رمضان شهر العبادة والمراقبة ، بـشر الـشاعر بقدومـه وطاعاته وصلواته ورحماته وخيراته بشرق على الأمة ليهذب أخلاقها ، وينقي روحهـا مـن عوالق الشهوات وأدران الشبهات في أجواء إيمانية راسخة ومدرسة تعبدية شامخة .

وأما العيد فما ابتعد فيه الشاعر عن حبيبته الكبرى فلسطين أو عـن درتهـا المـسجد الأقصى المبارك، في دواوينه السابقة وأغاريده اللاحقة ،فما غابت عن ذاكرته، ومـا أخرجتـه فرحة العيد من أحزانه على فلسطين ، الدائمة الحضور والملهمة الأولـى للـشاعر المؤججـة لمشاعره، خاطبها في العيد خطاباً مفعماً بالأمل موشحاً بالفرحة وإن كانت بعيدة بعيدة :

يـــا فلـــسطين اســـتعدي واخلعـــي ثـــوب الحـــداد
كلمـــا الأقـــصى دعانـــا كلمـــا نـــادى المنـــاد
أحـــسن الأعيـــاد عيـــد فـــي ميـــادين الجهـــاد
عنـــدما نظفـــر بالنـــصر علـــى كـــل الأعـــادي
خيـــر أعيـــاد بـــلادي أن أرى عـــز بـــلادي[2]

أدرك شاعرنا ما يحاك للأجيال في دهاليز السياسة وكيف يراد لها أن تكون ، فـانبرى فارساً يدوي صوته في قوة وثقة ، ليعلمهم أصول دينهم وأغاريد عزتهم ، ويعزف ألحان العودة على أوتار قلوبهم .

أما ركن الإسلام العظيم ومعلمه القويم، فكان له حضور يناسبه في شعر شاعرنا وهـو الذي بادر أباه بالسؤال عن الحج ، وكأنه يغرس في تلك الأفئدة الغضة الشوق لتلك الديار المقدسة:

قد سار أبي ومضى يومـاً فسألت أبي عـن مقـصده
فأجاب أبي أنـوي حجـاً لرحـاب النـور ومولـده
وأزور نبيـــي منـــشرحاً وأنـــا المـــشتاق لمـــسجده
فحضنت أبي مـا أطيبـه ولثمت المسك على يـده[3]

وقد حرص العظم على تعريف النشء على مقدساته، وعلو شأنها فقال عـن الكعبـة أقدس بقاع الأرض وأقدم بيت وضع للناس ، والتي يتجه إليها المسلم في صلواته الخمس:

قبلتي الكعبة ما أبهى ضـياها
ملأ الإيمان والنـور رباهـا

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 387.

وخليل الله قد أعلـــى بناهـــا
في بلاد طهـــر الله ثراهـــا[1]

تعلق فؤاد الشاعر بعقيدته أيما تعلق، وعشق مقدساته كل العشق ، وأجلها وتغنى بها، وقد دفعه ذلك إلى تعليم النشء أركان دينه ، وأن يغرس فيه حب العقيدة السمحة ، وتعظـيم شعائر الدعوة " **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** " (الحج : 32) .

وتأخذ ليلة القدر بلب العظم، وتأسر فؤاده فنراه في غير موضع يتحدث عنها، وعمـــا يحب غرسه في نفوس النشء من قيم وتعاليم إسلامية ، من ذلك ما نراه في حديثه عن بداية البعثة النبوية ، ونزول جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة القـــدر ، ساعياً إلى إظهار فضل هذه الليلة المباركة ، يقول :

هجر الأصـــنام وفارقهـــا ... لـــم يعبـــد إلا مـــولاه
وأتـــى جبريـــل يخبـــره ... أن الـــرحمن ســـيرعاه
النور تلألأ فـــي الـــصحرا ... ومحمد يهتـــف مـــا أقـــرا
وإذا جبريـــــل يبـــشره ... في غار حـــراء بالبـــشرى
فـــي ليلـــة آيـــات القـــدر ... وســـلام الله إلـــى الفجـــر
نـــزل القـــرآن يـــشرفه ... في أعظـــم أيـــام العمـــر
اقـــرأ والله هـــو الأكـــرم ... خلق الإنسان مـــن العلـــق
ومضى جبريـــل يودعـــه ... وتوارى في جوف الأفـــق

ثم ينتقل للحديث عن معجزة الإسراء والمعراج فوق كل طاقة ، فيوجز شاعر القـيم، أحداثها في براعة ظاهرة ووضوح يتناسب وحال المخاطب ، وقـد تناولـه الـشاعر بيـسر وسهولة بالغين ، متحدثاً عن هدية السماء لأهل الأرض والتي قال العلماء إن معجزة الإسراء كانت من أهم دواعيها فريضة الصلاة التي كان الاستدعاء الإلهي للنبي صلى الله عليه وسـلم من أجلها ، يقول :

قد عـــاد يحمـــل فرضـــاً ... خمـــساً مـــن الـــصلوات
ويمـــنح الأرض فيـــضاً ... خيـــراً مـــن البركـــات
وعـــاد فـــوق البـــراق ... مـــن فـــوق ســـبع طبـــاق
يـــدعو لمـــن صـــدقوه ... بـــالفوز يـــوم التلاقـــي

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 388 .

ويعكس تعرض الشاعر لأكثر الأحداث عظمة وأهمية في مسيرة الدعوة، مدى اعتنائه بالنشء واهتمامه به ورعايته له ، ومن أجل ذلك تناول الشاعر في رسالته لهم أحداثاً غيرت مسار التاريخ وصنعت سيرة الدعوة، فكانت بمثابة منارات للجيل على طريق العلم والمعرفة.

ويذكر من هذه الأحداث الهجرة إلى المدينة ، وما تنطوي عليه من دروس وعبر ينبغي أن يعلمها النشء منذ نعومة أظفارهم ، ورسالة وجب على المربين أن يعلموها لهم .

فقد انطوت على أعظم الدروس وأنبل المضامين التي ما زال جمهور المسلمين يتفيأ ظلالها ويستخلص عبرها ودروسها جيلاً بعد جيل وعصراً أثر عصر دون أن ينضب معينها أو أن تخبو جذوتها ، يقول :

الهجرة رحلة هادينا حمل الإسلام لنا دينا
فسلام الله على الهادي والكون يردد آمينا[1]

إن أبا جهاد يرسخ في النشء معنى وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم تجشم عناءا كبيرا لكي يصل هذا الدين إلى جميع أصقاع الأرض فكانت الهجرة المباركة ، يقول :

رحل الصديق عن الدار في صحبة خير الأبرار
صلوات الله تباركه ملأ الدنيا بالأنوار[2]

وأما الحماية الإلهية فقد تجلت في أبهى صورها – بعد حسن الأخذ بالأسباب – في الإمام علي كرم الله وجهه وبنت الصديق ذات النطاقين ، حيث كان تفانيهما في خدمة الإسلام ومساندة النبي صلى الله عليه وسلم درساً في التضحية والفداء ، قال العظم :

وصل المختار إلى طيبة والكفر تراجع في خيبة
وجنود الله تحيط به من نور الإسلام الهيبة
بالروح سنحمي المختارا ونقاتل عنه الكفارا
عهداً لله نبايعه جنداً لله وأنصاراً[3]

والعظم رحمة الله عليه ما غاب عنه أزلية الصراع بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، فهو يعد الجيل ويؤهله لذلك ، ويغرس فيه عشق المصطفى صلى الله عليه وسلم والاستعداد للتضحية من أجله بكل غالٍ ونفيس ، عملاً بالحديث القائل : عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[4] .

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 390 .

(4) صحيح البخاري مع الفتح (58/1) (2) كتاب الإيمان (8)، باب حب الرسول من الإيمان (15).

هذا عهد العظم يقطعه صادقا ، ودين يدين به لله جندياً من جنود الدعوة، وداعيا الى الله تعالى ، وهو بذلك يصنع جيلاً بملامح إسلامية وقيم إيمانية أصيلة .

والعظم فارس في ميدان الشعر يجري ولا يجرى معه ، يمتطي صهوة الشعر البطولي والأدب الإسلامي الراقي ، وهاهو يحدث النشء عن بطولات أذهلت وانتصارات أشرقت على جبين التاريخ، مجداً تليداً عز نظيره بين الأمم .

والشاعر في ذلك ينقل للجيل حسن السيرة وشيق الأحداث وكأنه يرسم له طريق الخلاص مما آل إليه حال أمته ، من ذلك حديثه عن يوم بدر حيث التقى الجمعان ، يقول :

في بدر عز الإسلام	وهوت للباطل أصنام
وتعالت راية خالقنا	وتراجع عنها الإجرام
قد قاد القلة مؤمنة	للنصر رسول وإمام
فتعالى الله يؤيده	وعليه صلاة وسلام
بدر يا يوم مفاخرنا	تزهو بعلاه الأيام

يؤرخ الشاعر للنشء شعراً ونشيداً ،يثير فيهم نخوة العروبة وعزة الإسلام ومنعته ، وما كان ذلك تسجيلاً رتيباً لأحداث أو أيام ، ولا تنغيا ببطولات زائفة ، أو قصص من بنات الأفكار ، بل كان بعثاً وإحياء لأمجاد غفل عنها المربون في زحمة النكبات والنكسات ، وانشغلت عنها بقصد أو غير قصد بمناهج زائفة ، فقد درس النشء أخبار الفراعنة والقياصرة والحضارات البائدة لهدف لا يخفى مقصده ، ولا يؤمن مكره ،وفي الوقت ذاته ما صرف الشاعر عن مقصده صارف، فقد انبرى ليبث الحقائق دامغة دون إفراط أو تفريط ونقل أحداثاً سجلها التاريخ دون تزييف أو تزوير .

وما كان حديث الشاعر إلا عن أيام فُرضت فيها الحروب على الأمة أو دافعت فيها الأمة عن ذاتها ومقدساتها وحماها .

فمن حروب الردة، إلى حرب خيبر إلى اليرموك مروراً بالقادسية وحطين وعين جالوت، حروب هن أمهات الحروب ، وقائع سجلها التاريخ بمداد من ذهب ، فما طغى فيها جند الحق وما ذبحوا ، ولا هتكوا الأعراض ، ولا استباحوا المقدسات ، على عكس من حاربهم وعاداهم ممن طغت جيوشهم وبغت وذبحت ودمرت واستباحت ، فخيبر كانت فتحاً ودرساً لليهود الذين خانوا العهود وأمراً إلهياً من الرب المعبود ليمضي صلى الله عليه وسلم لتأديبهم .

ومسيلمة الكذاب يذكره الشاعر في حديث حروب الردة في إشارة واضحة لموقف أبي بكر الصديق منه ومن الذين منعوا الزكاة ، يقول :

ومسيلمة الكـذاب سـعى في الناس فساداً وضـلالاً
وبدا كالليـث أبـو بكـر حزمـاً ومـضاء وجـلالاً
سأقاتل مـن يرتـد ولـو منعـوني حـبلاً وعقـالاً
وبـسيف الله تحـداهم وأراهم منـه الأهـوالا[1]

وعزة الإسلام التي ينشدها الشاعر ويبعث ذكراها في النفوس هي تلك التي زلزلـت إيوان كسرى وقضت على عبدة النار ، يقول :

قد ضل الفرس وقد عبدوا مـن دون الله النيرانـا
وتراجع رستم في عجـب ليلاقـي كـسرى جروانـا
فعلـت رايـات محبتنـا وملأنا العـالم إحـساناً[2]

ويغرس الشاعر في نفوس النشء عنصر المحبة والعدل والحرية زاهية من روح دعوة الإسلام ومن أرسخ قواعده وأساس دعوته ، داحضاً بذلك فكرة الإرهاب التـي يـصمون بهـا الإسلام والسيف الذي يقرنونه به .

والعظم شاعر هادف صاحب رسالة سامية أراد للنشء أن يعرف أمجاد أمتـه ليـزرع بذلك الثقة في أنفسهم، ويحضهم على التأسي بالسلف الصالح من أجل النهوض بأمتهم وإعادتهـا إلى صدارة الأمم وقيادة الشعوب[3] .

لقد نوّع الشاعر في رسالاته التربوية للنشء تنوع أغراض التربية ومراميها ، فتحـدث بداية عن أركان الإسلام وأخلاق المسلم ، ثم عن تاريخ الأمة وصفحاته المـشرفة ، ثـم نـراه يطرق باباً مهماً من أبواب النشء الصالح وهو باب بر الوالدين ، منطلقاً في ذلك من كتـاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأمة الإسلام هي الوحيدة بين الأمم اليوم التي ما زالت ترعى حقوق الوالدين وتحـض عليها ، فتحدث الشاعر عن بر الوالدين ، ذكّر به الكبار وأغرى به الصغار ، قال :

في حضنها الأمـان في صدرها الحنـان
في قلبهـا الإيمـان في كفها الإحـسان

أمي ... رعاها الله

إن لفنـي الظـلام في حـضنها أنـام
أو مـسني سـقام في كفهـا الـسلام

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 392 .
(2) السابق ص 393 .
(3) انظر : عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر ، الطبعة الثالثة ، دار الفكـر العربـي ، القـاهرة 1966 ، ص 408 .

أمي حماها الله

كلامهـــا غنـــاء وهمـــسها شـــفاء

وعطفهـــــا دواء وعيـــشها وفـــاء

طابت بها الحياة[1]

جعل العظم لازمة القصيدة دعاءً رقيقاً يردده الطفل في براءة ويسر ، وهذا من صميم ما دعا إليه الإسلام ، أن يدعو الولد لوالده بعد مماته والعظم يغرس ذلك في نفس الطفل منذ صغره .

وللأب عند العظم مكانة عظيمة ، لذلك نراه يدعو إلى بره في أغرودة رقيقة ذات معانٍ سامية وعبارات حانية ، يقول :

أبي دعـاني إليـه والخير ملء يديـه

وضـمني بحنـان والرفق في ساعديه

سلام ربي عليه

بروحـــه يفـــديني وصـــدره يحميني

وكلمـا قلـت بابـا بعطفه يرضـيني[2]

أبي سلام عليه

تبدى في شعر العظم وكلماته عميق الانتماء للعقيدة الإسلامية والاعتزاز بها ، ورفض كل ما عداها من مناهج وضعية دمرت الأمة وفرقت جمعها ، وهو في قصيدة " أنا يا قوم مسلم " يغرس حب الإسلام في نفوس النشء بكلماته اليسيرة السهلة ذات المعاني الكبيرة الهادفة :

أنا أحببت خـالقي ونبيـي ومـصحفي

حين آمنت بالهـدى وبـدينٍ مـشرف

أنا يا قوم مسلم

أنا طفـل مرتـب وسـلوكي مهـذب

وثيـابي نظيفـة وكلامـي مهـذب

أنا يا قوم مسلم[3]

ويرسخ العظم شمائل الإسلام واضحة جلية في نفوس النشء ، فالنظافة عنوان حضاري واضح المعالم ، وتهذيب اللسان أيضاً سمة الشخصية المسلمة ، عن أبي هريرة

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 394 .

(3)، (3) السابق ص 396 .

رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[1]، وفي السلوك القويم يقول :

أنا لا أقذف الحجر وبه أقتل الطيور
أنا لا أقطع الشجر أنا لا أسحق الزهور
أنا يا قوم مسلم[2]

يلقن العظم النشء فضائل الأخلاق، ويهذب سلوكهم ويغرس في أفئدتهم الأخلاق الحميدة والصفات الرشيدة، وهو بذلك ينهي أبناء الأمة عن سيء الأخلاق بهذه العبارات السهلة الهينة :

قلت للجار مرحباً بيتكم قرب دارنا
قد جعلناه ملعباً فسلام لجارنا
أنا يا قوم مسلم[3]

ويمضي الوالد يوسف العظم مخاطباً النشء في حنان غامر ووضوح باهر مرشداً وموجهاً ومربياً، حتى ينشأ الطفل على تلك المبادئ السامية والأخلاق الحميدة نشأة تؤهله لقيادة الأمة والنهوض بها من دركات الهزائم ومهاوي النكبات .

ثم يمضي العظم في ثقة بالغة وانتماء واضح للقدس والأقصى ،فيصيغ حبه انتماءه شعراً وقصيدا يتعلمه النشءً، لأن الأقصى يحتاج لرجال نشأوا على عشق التضحية وأشربوا الفداء في قلوبهم، واكتحلته عيونهم منذ نعومة الأظافر ، لذلك كان الأقصى أغرودة يترنم بها النشء ، ولها يعدون ، ومن أجل خلاصها يضحون ويستعدون ، يقول :

روض الأقصى ما أحلاه
أنا برعوم فوق رباه
جيش الأقصى ما أقواه
أنا جندي أحمي حماه
ترب الأقصى ما أغلاه
روحي فداه روحي فداه[4]

ونشيد الزنبق يترنمه الشاعر وبصحبته براعم الأقصى ، براعم الحق وباقات البطولات الماجدة :

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري، (445/10) (78) كتاب الأدب (31)، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (6018).
(2)، (3)، (4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 396.

في ربى الأقصى نبتنا نحن باقات الزنابق
ومع الحق ثبتنا نتحدى كل مارق
قادنا للفتح يوماً خالد سعد وطارق[1]

هذه زنابق القدس ليست كباقي الزنابق ، وبراعم القدس ليست كسائر البراعم ، إنها زنابق أشربت ماء العزة ، بعظم رسالتها وعراقة منبتها ، وكبير شعورها بواجبها نحو قضيتها ، فقد ولدت كبيرة وحملت هماً كبيراً وينتظرها فجر كبير، انه جيل فذ لا يعرف النكوص ولا الانحناء .

هكذا مضى العظم ، مربياً عظيماً ، وموجهاً خبيراً، لنشء الأمة وذخرها، بعبارات قوية مؤثرة ، ومعاني سامية منيعة ، يظهر براعة فائقة في وضوح الفكرة ، وإيجازها وبساطتها، بساطة عقول المتلقين بصورة مباشرة ، بساطة لا تنقص من قدرة الشاعر على الإيحاء وحسن التصوير واستلهام الآيات الكريمة والأحاديث النبوية ، وأكثر ما ميز العظم في خطابه للنشء انطلاقه من تلك العقيدة الإسلامية السمحة ، وإدراكه لدور النشء في حمل هم الأمة ، ثم ما ينبغي لهذا الجيل أن يعلمه عن تاريخه المجيد ، وصفحاته المشرفة وما يناط به من عظيم الآمال المعقودة على الأجيال القادمة من تحرير للأمة وتخليص لها من قيد المحتل الغاصب .

لقد أبدع العظم أغاريده منسجمة مع عقيدة الشبل المسلم ، وسمته وصحيح نشأته ، فكان بعيداً عن كل معنى سطحي أو كلمة هابطة ، بل وكان في إيقاعه يميل نحو الجدية والبعد عن الميوعة وركيك اللفظ .

إن الشاعر الذي يعد النشء لأمر عظيم وقد أدرك أن خلاص الأمة آتٍ على يد جيل حر نشأ في أحضان تربية إسلامية راشدة .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 397 .

الجهاد وصور البطولة

مشرقة هي صفحات الجهاد في فلسطين ، إشراقة شمسها ، عبقة عبق تاريخها ، مقدسة طاهرة كمقدساتها ، عطرة عطر روابيها وأزهارها، خلابة خلبت قلب شاعرنا الكبير.

غدا أبو جهاد مكبراً الجهاد ، معلياً من شأنه ، رافعاً من قدره ،فقد نبعت كلماته عن الجهاد من قلب حي وروح عالية،و استلهمت علوها من تاريخ أمتها المجيد، وإسلامها العظيم. والعظم مقاوم بطبعه فقد مارس المقاومة قولاً وفعلاً حين مول المجاهدين في فلسطين وساعدهم في شراء السلاح[1].

لقد تجلت الشهادة في شعر يوسف العظم في أبهى صورة ، وبرز الشهداء في أجمل موكب، فللشهادة والشهداء ظهور في تسعة عناوين ، والمفردات تظهر في كثير من القصائد.

وللمجاهد منزلة لدى العظم ، لا تعد لها منزلة. فالإمام المجاهد الساعي إلى تحرير الأقصى ، وهو من يستحق المديح عنده[2] .

يا باذل النفس يا أمل ... سل أدعياء الوغى في الساح كم بذلوا
لك الوسام على صدر يزينه ... دم الجراح بنار الثأر يشتعل
زرعت درب العدا بالموت فاضطربت ... أنفاسهم كلما حلوا وارتحلوا
يا أكثر الناس إقداماً وتضحية ... وأطيب الناس أعمالاً إذا عملوا
وأكرم الناس عند الله منزلة ... كما تحدث من عزت به الرسل[3]

مدح العظم المجاهدين، وخصهم بما يليق بمقامهم من جميل الوصف ، ورفيع المديح، فللمجاهدين في نفسه مكانة لا تعد لها مكانة العظماء ولا الأمراء ، وما استحق المجاهدون مديحه إلا لمكانة الشهداء في نفوس كل المسلمين ، فهم الأمل ، وهم عدة الأمة ، وقادتها الذين يأخذون بيدها نحو العزة ، وما توانى العظم أن يجاهر بإعراضه عن مديح الأمراء والعظماء والملوك والرؤساء فهؤلاء لهم أزلامهم ، والمتكسِّبون بشعرهم يأنف الشاعر عملهم ولا يعنيه أمرهم .

قال له أحد السفراء مداعباً : " ما رأيك في أن تمدح الأمير بقصيدة ... لعله يغمرنا وإياك بعطفه .. وقد حسب صاحبي أن كل الشعراء بشعرهم يتكسبون "!!

---

(1) عاطف عدوان : الشيخ أحمد ياسين حياته وجهاده، ط1، 1991، ص 114.

(2) عبد الله الخباص ، ص 66 .

(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 23 .

قال لي صاحبي بسوق عتابـاً ... قاسي القلب ، أنت غير ودود
لم لا تمـدح الأميـر بـشعر ... أو تلاقـي ركابـه بقـصيد
قلت شعري عرائس من ضياء ... كيف يرضى الضياء قلب العبيد
ليس في موطني الكبير عظيم ... يستحق الثنـاء غيـر شـهيد
أو إمـام يقودنـا لجهـاد ... في رحاب الأقصى لدحر يهود
عندها تشرق العوالم بـالنور ... ويناداح فجـر يـوم جديـد[1]

الشهداء هم الذين تشرفوا بالجلوس على ناصية قلب الشاعر، فتملكوا قلبـه وأسـروا فؤاده ، وهم في الحقيقة من يستحقون المدح ، أولئك الذين يؤمـون الأمـة نحـو عزتهـا ، العاملين من أجلها ، الحالمون بتحرير مقدساتها ، ذاك هو المجاهد الحق ، الذي يستحق مـدح العظم لانه بذل روحه رخيصة فداء للوطن ، فعاش في كهـوف الجهـاد ، أو فـي هجيـر الصحاري ، هجر الدنيا بلذاتها وأعرض عن لعاعاتها ، قال عنه : " إلى الذي هجـر رغـد العيش .. وأغفل من حياته الثروة والمكانة والجاه .. وعاش في كهف من كهوف الجهاد بقلب طهور ويد متوضئة وعينين لن تمسهما النار أبداً بإذن الله ، عين بكـت مـن خـشية الله ... وعين باتت تحرس في سبيل الله " .

بارك الله في الجهـاد خطـاه ... حين لبى الفـداء لمـا دعـاه
ففلـسطين دربـه للمعـالي ... وحمى المسجد الطهور حماه
طاهر القلب والـضمير تقـي ... صادق العهد بالـدما يرعـاه
فإذا أقبـل الزمـان تـوارى ... وإذا زاغـت العيـون تـراه
لو لغير الإلـه ذلـت جبـاه ... لانحنت عند راحتيه الجباه[2]

سافر الشاعر إلى بلاد شتى ، وتنقل في رحلات عديدة وسافرت القدس فـي قلبـه ، وبين أضلعه ، بل وأثار السفر في نفسه كثيراً من معاني الجهاد عندما نزل بـبلاد المـسلمين التي حررها المجاهدون ، فهو في الجزائر يذكر ثوارها ، وفي مصر أبطالها ، وهنـاك فـي أرض الحجاز في أطهر البقاع وأشرف الأصقاع ، وهو في موسم الحج الأكبر ، يـرى تلـك الجموع فتحاصره الأماني وتلاحقه الذكريات :

لو تداعى قومي لساح الجهاد ... مثلما أقبلوا لرمـي الجمـار
لهزمنا العدو في كـل أرض ... ودحرنـا جحافـل الكفـار

---

(1) يوسف العظم ، الأعمال الكاملة، ص 69 .
(2) السابق ص 27 .

ولبات الأقصى عزيزاً يباهي هامة النجم أو عروس النهار
ولسدنافي الكون نعلي صروحاً شامخات من عزة وفخـــار[1]

يرى العظم أن في الأمة رجالاً يسمعون نداءه[2] ، وشباباً تزينهم الهمة العالية فيثيـــر فيهم العزيمة ، ويشحذ الهمم ، برغم ما يسود حال الأمـــة مـــن ســـواد وتراجـــع وهـــوان ، فيستحضر رموزاً للجهاد ، كتبت اسمها على صفحات من نور في دعوة إلى النهوض :

يا قدس أين صلاح الدين يبعثها حطين تفتك بالباغين ويلهـــم
إنا على العهد لن ننساك فانتظري يوماً يخر له الطاغوت والصنم[3]

ولا ينفك العظم عن الدعوة إلى الجهاد ، ورفع رايته ، وعقد لوائه ، فهو طريق الأباة السابقين ، الذين به دالت دولتهم ، وعظمت مكانتهم ، منكراً ومستنكراً في الوقت ذاتـــه مـــا اعترى الأمة من تخاذل ونكوص وتراجع :

أحباب قومـــوا للجهـــاد وأقبلـــوا عليه وحيـــوا بيـــنكم كـــل مقبـــل
وسيروا إلى أرض الشهادة والفـــدا وموعدنا في القدس غير مؤجل[4]

دعا أبو جهاد للجهاد في غير موضع ، وفي غيـــر مناســـبة ، دعـــا إليـــه تلميحـــاً وتصريحاً، وحث عليه في مناسبات عديدة وكثيرة ، فالتحرير واجب ، والجهاد بـــات فـــرض عين على الأمة ، التي استبيحت حماها ودنست مقدساتها ، فلا يـــرى بـــداً ولا حـــلاً ســـوى "سيوف الإيمان":

حي الجهاد سيوفاً للعلى امتـــشقت وحي أسد الشرى في غابهم نفروا
فوق السحاب تساموا دونما خـــور وفي رحاب جهاد صادق صبروا
روح النبي تباهت فـــي مـــسيرتهم يحدوهم الحق والأمجاد والظفـــر
قد قام بينهم الصديق رمـــز تقـــي وسدد العدل في ســـاحاتهم عمـــر
وراية الحق في كف الإمام علـــت والبر والجود من عثمان ينهمـــر
وخالد في سبيل الله ســـيف هـــدى ومصعب في رحاب الحق مؤتزر
وجعفـــر بجنـــاح النـــور منطلقـــاً يختال في جنة تزهو بها الحجر[5]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 63 .
(2) انظر : جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأســـد وإحـــسان عبـــاس ، دار العلـــم للملايين ، بيروت ، 1978 ، ص 16.
(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 32 .
(4) السابق ص 260 .
(5) السابق ص 416 .

يستعر العظم حماساً ، ويلتهب فؤاده فتلتهب الكلمات ، ويشتد أوار القصيد حينما تتوارد هذه القمم الشماء وهذه الأعلام الخافقة في سماء الجهاد والاستشهاد ، وتتوالى سير الأبطال العظماء الذين بهم ظهرت دولة الإسلام وصالت كتائب الإيمان ، تزرع الحق والعدل أينما حلت وحل رجالها ، وكأني بالعظم ، وهو يستحث الكرام على باب من أبواب الجنان الذي جعل الله تعالى مفتاحه السيف ، وألبس صاحبه لباس العزة ورفع قدره في الجنان درجات عالية .

يفاخر العظم بالجهاد والمجاهدين كما لم يفاخر بشيء سواهما، ويصف درجاتهم ، من واقع آيات كتاب الله تعالى، وما أعده الله لهم من عظيم الأجر وطيب الجزاء في دعوة ظاهرة ، وترغيب واضح للشباب، إقبالاً على الجهاد الاستشهاد :

جهادهم في سبيل الله مفخرة ... وذكرهم في ركاب المصطفى عطر
من خرّ منهم شهيداً طاب مسكنه ... في جنة الخلد قد حفت به السرر
طعامهم من طيور طاب مأكلها ... ومشربهم من ثمار الخلد يعتصر[1]

ويحلق العظم في ساح الوغى ، هناك فوق ساحات الأقصى ، وقد قارع الفلسطيني آلة العدو ، بحجره ومقلاعه ، وبإيمان الواثق بالحق الذي ينشده والنصر الذي يحلم به :

أحبة القدس في قدس العلى خبر ... فاستبشروا قد أتانا العلم والخبر
إن الأحبة في درب الجهاد مضوا ... سلاحهم في الحمى "المقلاع" والحجر
وأنهم سطروا في الساح ملحمة ... قدزاغ من هولها في الملتقى البصر
واليوم رعد وبرق لاح فانتظروا ... سيتبع البرق في أفق العلى مطر[2]

آمن العظم بالجهاد –سبيلا للأمة نحو التحرير– إيماناً راسخاً لا يتزحزح ، وأيقن أن الأمة فيها من الخيرية ما يؤهلها لذلك فما توانى عن الدعوة للجهاد والحث عليه :

لو لداعي الجهاد لبت صفوف ... مثلما قام للصلاة صفوف
لتهاوت للظالمين صروح ... وأُذلت للغاصبين أنوف
ولعشنا في ظل عدل وتقوى ... ولساوى القوي فينا الضعيف
ولقام الجهاد يعلي منارا: ... راية للعلى ودين حنيف[3]

ويتنسم العظم نسمات الجهاد التي عطرت فؤاده من حبيبته الكبرى القدس ، التي عشق أقصاها ، وأدناها ، وسافرت معه في حله وترحاله ، وملأت عليه فؤاده في يقظته ومنامه ، وللجهاد المقدس مكانة متميزة ومرتبة عالية في نفسه عكستها مرآة شعره :

---

(1) يوسف العظم ، الأعمال الكاملة ص 417 .
(2) السابق ص 420 .
(3) السابق ص 421 .

نـــسمات الجهـــاد هبـــت علينـــا من ربا القدس هل وعظنا بـــدرس
آن أن نمـــلأ الفـــضاء زحوفـــاً ونلاقـــي العـــدو فيهـــا ببـــأس
نبئـــــوني بـــــربكم نبئـــــوني كيف تحلو الحياة من غير قدس[1]

يستعذب الشاعر الموت في سبيل الله والجهاد سبيله إلى ذلك ، ويرد حياض الردى ، صافية بعدما يحلوا التأهب ويقترب اللقاء :

وحوض الردى يصفو لدين نصونه وإن حيـــاض المـــوت لله تعـــذب
ســـيوف المنايـــا للجهـــاد تـــأهبي فلله والإســـلام يحلـــو التأهـــب[2]

ذاك إيمان العظم بواجب الجهاد ، وهذه عقيدة يباهي بها الـشاعر الـدنيا برمتهـا ، وشعار حركته التي التزمها منذ نعومة أظفاره وأمل الأمة التي انتمى إليها :

قد عشقنا الإسلام حتـــى انتـــشينا بلظى الحب وارتـــضينا الغرامـــا
مذ عرفنـــا الحيـــاة بـــرأ وتقـــوى ورعينـــا نحـــو المعـــالي كرامـــاً
واعتـــصمنا بحبـــل ديـــن متـــين صار شرعاً وعـــزاً واعتـــصاماً
ولـــواء الجهـــاد والعـــدل فينـــا قد حملنـــاه مـــصحفاً وحـــساماً[3]

وما كان عشق العظم للجهاد شعاراً يتردد في قصائده ، ولا كلمات جوفاء في خطابه، إن الجهاد عقيدة عقد عليها قلبه ، وتملكت فؤاده ، وله انبرى قلمه وبه زمجر شـعره وخفـق قلبه إكباراً للجهاد والمجاهدين .

والشاعر يرجو ربه ويضرع إليه أن يلحق بدرب المجاهدين الأبرار ، فالشاعر آمـن بالجهاد قولاً وفعلاً ؛ فجاهد بلسانه وقلمه ما وسعه الجهاد وضرع لربه أن يرزقـه الـشهادة صادقاً مصدقاً :

شتان بين الـــشعر رمـــح مجاهـــد وقـــصيده يلهـــو بهـــا المزمـــار
فمـــن القـــريض قذيفـــة علويـــة تشوي الوجـــوه كأنهـــا إعـــصار
ومن القـــريض مثـــبط ومخـــدر يرعاه في ســـوق الخنـــا خمـــار
والله أســـأل أن أعـــيش مجاهـــداً حـــراً وبعـــض قـــذائفي أشـــعار
لا أشـــتكيه ولا يـــذل كرامتـــي في مفرقـــي ســـيف ولا منـــشار
حتى ألاقي الله في ســـاح الـــوغى بدم الـــشهادة يخـــتم المـــشوار[4]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 300 .
(2) السابق، ص 354 .
(3) السابق، ص 168 .
(4) السابق، ص 225 .

هذا ما تمناه أبو جهاد ويسعى جاهداً من أجله شاعراً مجاهداً يجري ولا يجرى معه ، يظهر من بين ثنايا شعره عميق محبته للجهاد وعميق إيمانه بالحق الذي ينشده المجاهـدون . ينطلق الشاعر في ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم " عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منـازل الـشهداء وإن مات على فراشه"[1].

تجلت لوحات الجهاد والمجاهدين في شعر العظم فبكل البراعة والشغف رسم لوحات البطولة والمجد متوجة بكل عزة وفخار .

ويبقى العظم يتحرق للجهاد مع أولئك الأبطال الذين سطروا أروع صـفحات المجـد وأسمى معاني البطولة والفداء:

على رباك بلادي قد زكا الأجـل ... وأينع الحـب والإيمـان والأمـل
وأنبت الحقل فرسـاناً بـلا عـدد ... كالغيث منسكباً في الملتقى نزلـوا
وضل جيش العدى في كل منحدر ... وخر في الساح من هول اللقا هبل
وصفق المجد والتاريخ في طـرب ... وساحة المجد والتـاريخ تـشتعل
يا راية الحق سيري للعلـى قـدماً ... تحمي حماك رماح الصيد والأسل
قد حـف دربـك آمـال وأفئـدة ... ودرب خصمك قد حفت به العلـل
نجيعنـا فـي سـبيل الله نبذلـه ... وجرحنا راعف فـي الله يحتمـل
فإن وردنا حياض العـز نـشربها ... وإن لقينا قيـود الـذل نرتحـل[2]

والعظم وحدوي الفكر والدعوة ؛ لا يترك فرصة تلوح إلا ويلوح بلواء الوحدة خفاقـاً في سماء الوطن ؛ وسلاحاً ماضياً يشهره في وجـه دعـاة التفـرق ، وتجـار الـشعارات ، والنعرات القومية والحزبية ، التي فتت في عضد الأمة وفرقت جماعتها وفرقت وحدتها . بعدأن جمعت الكرامة الأمة في مشرقها ومغربها ، ووحدت دماء أبنائها وضحى مـن أجـل رفعتها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

" وتظل معركة الكرامة عنوان بطولة ورمز فداء .. والحديث عنها لا ينتهـي لأنهـا بداية طريق طويلة مضمخة بالدم الذي يفوح مسكاً من جراح الشهداء !

---

(1) صحيح مسلم (1517/3)، (33)، كتاب الإمارة (46)، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعـالى (1909/157).

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 303 .

إنها منطلق الأمة نحو النصر والخلود والكرامة بإذن الله .. وتحية الشعر المؤمن أسوقها إلى روح كل شهيد لقى الله مؤمناً من أبناء ضفتي النهر الخالد من فلسطين والأردن دليلاً حياً على التحام هذا الشعب المرابط في ساح التضحيات "[1] .

ولئن عجز الزعماء عن قصد أو غير قصد عن جمع شمل الأمة ولم شعثها ، وتوحيد صفها ، كان الشهداء أبطال في فدائهم ، أبطال في حياتهم ، أبطال في وحدتهم ، فهم الذين حققوا للأمة هذا الحلم الذي بدا أحياناً بعيد المنال ، أو درباً من الأمنيات محالا .

لأجل ذلك ولغيره أكبر الشاعر المجاهدين وحياهم زرافات ووحدانا :

ذاك " منصورنا " به نتباهى فلتفاخر به معان الأبية
وليفاخر به رفاق سلاح وكفاح وساحة عربية
زانه من هدي الكتاب جلال واعتصام بآية قدسية
يا رجال الجيش الأباة سلام من فؤاد يهفو لكم وتحية
قد حميتم من العرين جناحاً وقريباً تحررون البقية[2]

" حي على الجهاد " لسان حال الشاعر ، ولسان مقاله ، وعنوان لكل أشعاره وأعماله، الجهاد والمجاهدون هم أعز مَنْ على وجه الأرض ، وهم من ملك فؤاد الشاعر كذلك فهؤلاء ذخيرة الأمة ودرعها الحصين .

فدعوتهم دعوة الفلاح، وعزيمتهم تأبى الانبطاح، حياهم أبو جهاد وشد على أيديهم قائلاً:

" إلى المرابطين في أعماق المغاور والكهوف من المؤمنين الأبرار .

إلى الرابضين في الخنادق مع البنادق ...

قلوبهم مؤمنة .. ونفوسهم زكية .. وأيديهم متوضئة .

إلى الذين يرقبون طلوع الفجر .. على ربا فلسطين في رحاب الأقصى الطهور" ![3] :

دعوة للفلاح في انبثاق الصباح
ونداء الكفاح في الربى والبطاح
عند زحف الجنود
دعوة للجهاد في الربى والوهاد
بالسيوف الحداد تسترد البلاد
رغم حقد اليهود[4]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 19 .

(2) السابق ص 22 .

(3)، (4) السابق ص 91 .

يعود شاعرنا أبو جهاد ليذكر الكون بأنه السيف المهند والنسر المحلق في الغمام ، ليبدد غبار الهزيمة ويمزق صمت السجن وظلمة النسيان في اشارة لكل من يحمل فكره ويدين دينه .

لا تسلموني للهوان فأنا المهند والسنان
والدرع والرمح المثقف في اللقا يوم الطعان
في سجدة الأسحار تغمر في السكينة والأمان
صوت الإباء يهز أعماقي إذا انطلق الأذان
والروح ترنو للجنان تهيم في عبق الجنان[1]

وتأبى روح الشاعر وترفض الهوان ، ويعود به الإيمان إلى عزة المؤمن الواثق بنصر ربه وعدالة قضيته ، فإنه المهند والسنان الذي يرفض الذلة ويأبى الهوان .

ويزمجر صوت الإيمان الذي لا يعرف الخفوت ولا الخنوع أو الخضوع ليشكل في نفس الشاعر معزوفة النصر المؤزر مستمداً عزته من صوت الأذان الخالد ، ومن روح ترنو إلى جنان الله .فلا السجن ولا السجان ولا العذاب ولا الهوان ولا الجراح أو قعقعة السلاح تخيف هذا القلب أو تهز أركانه أو تنال من عزيمته وأو تزعزع إيمانه .

لا تسلموني للجراح في غير معترك الرماح
نفسي صفت كالظل فو ق الورد أو بيض الأقاح
تحيا مع الصبر الجميل بلا نحيب أو نواح
والليل مهما طال في دنيا ي يعقبه الصباح
لتدك كل معاقل الطغيا ن حي على الفلاح[2]

تلك هي عزيمة العمالقة التي لا تعرف الهوان ولا ترهبها الأسنة أو الرماح ولا يعرف صاحبها البكاء أو النواح ، بل هي عزيمة وثابة نحو فلق الفجر الذي بزغ، إذا ما الديك صاح وإذا ما جلجل نداء العز مكبراً أو قال حي على الفلاح :

لا تسلموني للظلام أو ترخصوني للئام
فأنا الذي أحمي الحمى وأنا الذي أرعى الزمام
وأنا البقية من حما ة الدين والصيد الكرام
كانوا على صدر الوجود وجبهة الدنيا وسام

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 172 .

أنـــا حامـــل القـــرآن في صدري يبشر بالسلام[1]

ولا يرهب شاعرنا الظلام ولا يعرف الانحناء أمام اللئام وهذا ديدن من يرعـى الذمـة ويحمي إرث أولئك الصحب الكرام .

هذا شأن شاعر يحمل في صدره القرآن، فما انثنى وما انحنى وما عرف طريقاً سـوى طريق الحق والإيمان والصيد الكرام :

لا تـــسلموني للقيـــود أو ترهبـــوني بالوعيـــد
فأنا الصدوق الناصـح المـأ مـون ذو الـرأي الـسديد
وأنا الشديد القـرم فـي الـسا حـات إن عـز الـشديد
وأنـا الـذخيرة للقـا ء مـع العـدو مـع اليهـود
أنـا حامـل القـرآن في صدري يزمجر كالرعود[2]

هذه عزيمة يذكر بها الشاعر ويحمل إرثها بين خافقيه، إنها عزيمة الكرام عزيمة من لو أرادوا نسف الجبال لفعلوا، فلا الترهيب يهز عزيمته ، ولا الوعـد أو الوعيـد ، إنهـا رسـالة الصحب الكرام، رسالة خير الأنام، يحملها وفي صدق أكيد يقاتل بها أولئك الأنذال من اليهود .

وأما الذين صب الشاعر عليهم جام غضبه ، ازدراءا وتوبيخاً واحتقاراً ، فهم الـذين طعنوا المجاهدين في ظهورهم ، وصافحوا أعداء أمتهم ، صافحوا من أيديهم ملطخة بـدماء الكرام ، فهؤلاء لا يستحقون أن ينتموا إلى أمة الإسلام .قال فيهم العظم مزدريا...

" وزار رئيس بلد مسلم (إسرائيل) والتقى برئيس اليهود فيمـا بقـي مـن القـدس .. يتبادلان التحية :

أيها المـسلم مـاذا دهـاك ؟ تمنح الأعداء روحاً ودماً ..؟
كيف ترضاه " أخاً " خاسـراً تزرع الشوك ونجني العلقمـا
يا لعـار أنـت عنـوان لـه في ربا الأقصى تحيي المجرما
نحن لن نرضى على طول المدى أن يكون النذل فينا مـسلماً[3]

أما الفتية المجاهدون ، فقد خاطبهم الشاعر خطاب العظماء ، الذين يسجلون صفحات العزة في تاريخ الأمة .

إلى المجاهدين من أبناء القدس وكل فلسطين . من أبناء العروبة والإسلام ..

رمز تحية وتقدير وتباشير عزة وتحرير[4] :

---

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 173 .

(3) السابق، ص 100 .

(4) السابق، ص 205 .

حجارة القــدس نيــران وســجيل وفتيــة القــدس أطيــار أبابيــل
الطفل والشيخ والأم التي خرجــت في كفها الموت للطغيان محمــول
والقدس أرض العلى والمجد مذ عرفت يبــارك القــدس قــرآن وإنجيــل
راحت تحطم قيــد الــذل شــامخة لا ترتضي أن يذل القدس تدويل[1]

أولئك أبطال الأمة ، وصناع مجدها ، وحماة عرينها ، الذين عرفوا طريق الحق قولاً وعملاً ، عقيدة وإيماناً ؛ قامت في قلوبهم دولة الحق وانطلقت أيديهم تبنــي عزتهــا بالــدماء والأشلاء ، عرفوا طريق الهدى فما توانى صغيرهم ، ولا تثاقل شيخهم ، ولا عجزت أمهم ، عن الإقدام أو الانتقام ممن ساموا أمتهم سوء العذاب ، ولطخوا هامتها بالتخاذل والانهزام .

ويبقى الجهاد لحناً ، يعزفه أبوجهاد ، وتبقى البطولة أنــشودة وأغــرودة يــصوغها الشاعر، كلما رحلت نحو القدس عيناه ، أو هفت إلى القدس ذاكرته ، أو تحركت بقريظ القول شفتاه ، يتغنى بالبطولة والأبطال والمجاهدين ، والجهــاد بأنــشودته الوحدويــة ، ودعوتــه الإسلامية ، وهويته العربية ، التي ما انفك داعياً لها مشتاقاً اشتياق القدس للمخلــصين مــن عشاقها ، ونداء فلسطين لكتائب رجالها .

رحل أبو جهاد ، وقد غرس في قلوب طلاب الأقصى حنيناً للقدس لا يخبو ، وشــوقاً لفلسطين لا يحده حدود ، ولا يمنعه أسد، غراساً طيب المنبع والمنبت كريم الأصــل عريــق الذكر، هم الذين من أجلهم أفنى حياته وكتب قصيده وأبدع أشعاره ، تلك هي عزيمة أبو جهاد الشاعر العظيم على ذلك المنهج القويم .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 206 .

الشهيد والشهادة

وقصة التحرير في شعر العظم طويلة دامية، عبقة عبق القدس، عطرة كدماء الشهداء الذين هم أبطالها، وأيقونة مسيرتها، وعازفو لحن مجدها و أيقونة حريتها ،وقد أكبر العظم قدرهم، وأعلى من شأنهم، وأجل تضحياتهم، حتى لا تكاد قصيدة تخلو من ذكرهم ولا يبرحون ذاكرته في حل أو ترحال.

الشهداء، من أجلهم كتب وأبدع وعلى مسك أروحهم أوقف شعره، فحظي ذكرهم بوافر مديحه ورائع قصيده وجميل قريظه لأنهم الأجدر أن يمدحهم المادحون، ويكتب عظائمهم الكاتبون.

إن الشهداء رموز زينت شعر العظم وجمّلت نشيده وهم الأغرودة التي عزفتها شفتاه ورددها النشء من خلفه وهم الزغرودة التي انطلقت من أفواه أمهاتهم فرحاً رغم عظيم مصابهم.

أما ابتسامة الشهداء، فهي النور الذي ينفلق عند الفجر، والأمل الذي ينبثق عند الفكر، هم سفر الوطن الذي يترنمه في كل موقعة ومعركة، هم قناديل الدجى، وصناع المجد، وكتّاب سفر العزة، بهم تذود الأمة عن حياضها وتتقي بهم صروف دهرها.

كتب العظم عن الشهداء وعزفت قصائده لهم لحن خلودهم ، كتب عن شهيد الكرامة، وترنم بذكرى الشهيد، خلب فؤاده رمز الشهداء، وأرسل للأمة رسالة من شهيد، وضحى من أجل الضعفاء، وخلد ذكر ثلاثتهم وسجل ثورة مساجدهم.

تلك العناوين وماتحمل من المضامين أبدعها العظم للشهداء، مجسداً عظيم مكانتهم في نفسه، مشاركاً إياهم معركة السيف والقلم، محققاً أعظم الجهاد بكلمة حق في وجوه الظالمين والمستكبرين.

تسعة عناوين شكلت لوحة إبداعها العظم للشهداء ناهيك عن مفردات تضمنتها القصائد، وليس هذا بالمستغرب فللشهيد مكانة في نفس العظم لا تضاهيها مكانة، وموقع لا يتبؤه غيرهم.

إن من يستحق المدح في نظره اثنين؛ عالم عامل ومجاهد مقاتل وكلاهما يستحقان إطراء الأمة فهم قادة مسيرتها نحو الحرية.

مدح العظم الشهداء عموماً وخص بعضهم بالذكر تمجيداً ورفعة لمكانتهم وتعظيماً لأعمالهم.

وكتابة العظم عن الشهداء لم تكن مجرد كتابات وصفية أو خواطر عابرة أو قصائد منمقة، بل كان منهج الشهداء منهجه، وطريقه طريقهم، ومسيرتهم مسيرته:

قد أقبل الشهر المبارك والمنى　　في ساحة الأقصى تلوح وتزهر
ودم الشهيد يسيل فوق ترابهـا　　وبه بيوت الأكـرمين تعطـر
قد خط سفر المجد في ربواتها　　وبه كتاب العز بـات يـسطر
هذي انتفاضتنا تـردد لحنهـا　　يغدو مسيرتها صغار تكبر[1]

الشهداء هم الذين يهبون الأمة حياتها، ويحركون مواتها، ورافعها لواء العـزة وهـو عطر الأرض ووشاح كرامة.

فرحيل الشهداء ليس ضياعاً ولا فناءاً كما يصرح العظم، بل للشهادة ثمرة في الـدنيا والآخرة لا يحققها إلا الاستشهاد:

وإن نلت الشهادة بين آلاف القـرابين　　سأنبت غابة الشهداء فيها ألف مليون

هكذا يكون منهاج الشهداء وهذه أهدافهم وتلك هي رسالتهم، وإن بدا الأمر في لحظة أنه موت أو فناء، فتلك سطحية لا يعرفها من يـدركون روح رسـالة الـشهداء ولا عظـيم رسالتهم.

ويمدح العظم الشهداء دون تسمية، ويسمي بعضهم لعظيم أعمالهم أو لمكـانتهم فـي نفسه أو لقرابتهم منه، ومن معارفه الذين نالوا الشهادة . منصور كريشان الذي قال فيه :

سال من جرحه دمـاء زكيـة　　وعلى الثغـر بـسمة علويـة
وجراح الشهيد تكتب بـالفخر　　سطوراً مـن عـزة وحميـة
لا يبالي الردى ويهزأ بالنـار　　وإن كان في لظاها المنيـة[2]

ومدح كذلك الشهداء الثلاثة الذين استشهدوا في قبرص "الثلاثة الأحـرار ومواكـب الأبرار"، ومن وصفه لهم وما آلوا إليه في جنات النعيم بعد عرس الشهادة[3].

وكـل بـإذن الله مـأواه جنـة　　شهيد العلى قد زف فوق سريره
أحاطت به الحور الحسان كرامة　　فأقبل ضيف الخلد يزهو بحـوره
ففازوا بجنات وطابـت حيـاتهم　　كما طاب الفردوس صفو غديره[4]

تغزل العظم بالشهداء وبجراحهم، وخلبت قلبه أعمالهم وكلم فؤاده رحيلهم لكنها كانت الدافع والمحرك لإبداعه فكانت الجراح شامة وعلامة:

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 298 .
(2) السابق ص 85 .
(3) شاعر الأقصى يوسف العظم ص 67.
(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 114 .

يـــا شـــهيداً مـــضمخاً بـــدماء زانك الجرح في جبينك شـــامة[1]

وملامح الشهداء في شعر العظم متميزة، وصفاتهم مستوحاة مـــن صـــفات الـــشهداء الكبار الذين سبقوا إلى سفر المجد فهناك صفات مادية وصفات معنوية:

عمري الأمجـــاد غيـــر جـــزوع فيه عز مـــن خالـــد وأســـامة[2]

يصنع الموت أو يخوض المنايـــا وعلى ثغره الوضـــئ، ابتـــسامة

وحتى لا تنحرف السفينة عن وجهتها، أو تضل القافلة طريقها، يـــذكر العظـــم بتلـــك الوجهة وذاك السبيل، الذي قصده هو وإخوانه الشهداء.

جعـــل الله غايـــة ومـــلاذاً في حمى البيت والكتـــاب أمامـــه

ورحاب الأقصى الجريح هـــواه وتراب القدس الطهور غرامـــه[3]

ويعود بنا العظم إلى غرامه الأول وعشقه الخالد، والذي شاركه فيه الـــشهداء وكـــان مما يمدحون به وقد استجابوا لنداء الأقصى والصخرة المشرفة رغم إعراض الغير عن ذلـــك إذ أصابهم الصمم!:

والصخرة اليوم باتت غير شامخة لأن نجمـــة صـــهيون لهـــا علـــم

وإذا بصرت شهيد في مـــسامعنا يـــئن فـــي ألـــم مـــاذا أصـــابكم

أتطربـــون لآهـــات نـــصعدها وينزف الجرح "والقطعان" تبسم[4]

وذاك فدائي استحق المديح عندما سمع نداء المسجد الجريح ولبى النداء فرحل شهيداً:

وإذا المـــسجد الجـــريح دعـــاني قلـــت لبيـــك يـــا نـــداء الـــسماء

قد رويت الثرى بأزكى دمـــائي أنا يا إخـــوتي شـــهيد فـــدائي[5]

أما دماء الشهداء ونزفهم، فقد أفرد العظم له أبياتاً وصفات ليست إلا للشهداء.

وعبق الشهادة ودماء الشهداء وعطرهم، خضاب القدس، مهوى الأفئدة ومحط أنظـــار الشهداء والشاعر على حد سواء.

يا قدس يا أمـــل الـــشهيد تزف فـــي أنقـــى الثيـــاب

بالورد والحناء والـــدحنون روض القـــدس طـــاب[6]

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 19 .

(4) السابق ص 32 .

(5) السابق ص 123 .

(6) السابق ص 221 .

إن العظم صادق الانتماء إلى وطنه وأهله، يشاركهم قدسية الشهادة وإكبار الشهداء فهو متيم بالشهداء ومغرم بالشهادة، تلاحقه صور الشهداء في حله وترحاله ولا تكاد صورة فلسطين تغادر قلبه، فيصور العظم صدى الشهادة عند شعب الشهداء والذي حول الشهادة إلى عرس تقبل فيه التهاني وتنطلق الزغاريد وتتلى الأناشيد:

أم الشهيد فخورة تمشي يزينها الحجاب
وأبو الشهيد يزفه للخلد مرفوع الجناب[1]

ثم تراه يصف تلك الحالة الفريدة، التي تفرد بها شعب فلسطين وسجلتها له كل أسفار المجد فيقول في مقدمة قصيدته (وتقبل التهاني أفراح الثكلى) :

"اختط أبناء فلسطين وشعب الأقصى، لأنفسهم خطة حميد، عند فقد الشهيد حيث راحت الصحف تحمل للناس بشريات لا تعازي باستشهاد الأبطال الميامين، وبدأ الناس يقرؤون نمطاً جديداً من أدبيات المعركة عن شاب فاز بالشهادة وتقبل التهاني في بيت عمه.. في حي كذا أو شارع كذا بعمان أو إحدى العواصم العربية، هذه قصة "أفراح الثكلى" التي هجرت الأسى، وفارقت الأحزان، وبدأت تعد ليوم زفاف ولدها الشهيد على حورية في الجنة في مواكب التحرير وأجواء الحرية جاء فيها":

قد زرعنا في كل شبر شهيداً وسقينا من الدماء البطاحا
كلما زف للجنان شهيد ملأ النور قلبها أفراحاً
والثكالى تزغرد اليوم فخراً لم تعد تعرف الثكالى النواحا[2]

إن هذا الحضور العظيم والمتميز للشهداء في شعر العظم، ينم عن عقيدة راسخة وروح عالية مستعدة للتضحية والفداء، خطها العظم ببنانه وهو عاقد على ذلك قلبه وإيمانه.

إن الشهداء هم قناديل الأمة ونبراس مسيرتها في دهاليز الاحتلال الغاشم وحين يسيل دم الشهيد ينفلق الفجر عن صبح الحرية المشرق الذي تحلم به القدس والأقصى:

كلما أظلم الزمان علينا بدد الجرح بالنجيع ظلامه
فأريقوا من الدماء مداداً واجعلوا من رماحكم أقلامه[3]

هذا سلاحهم السيف والقلم، وإنها المعاني التي كان العظم يخطها كلما اعتصرت فؤاده ذكرى الشهداء، وكلما هبت نسمات الحرية تحملها رياح النصر.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 221.
(2) السابق ص 234 .
(3) السابق ص 20 .

ولعل غاية الاستشهاد ليست مجرد الموت أو الرغبة الجامحة فيه، أو الهرب من ضيق الحياة أو ضيم المحتل، إن غاية الشهيد أسمى من ذلك وأعظم وأشرف من ذلك وأكبر، إنها الحرية التي يظمأ إليها الوطن والدعوة التي يسعى لرفعتها كل الشهداء، من لدن حمزة رضي الله عنه مروراً بكل شهداء الحق الذين رحلوا فداءا لدعوة الإسلام. تلك الدعوة التي طرب لها الكون وحن لها القلوب واشتاقت لعبقها الشعوب والأمم، دعوة الإصلاح والصلاح، دعوة الحق التليد والماضي المجيد:

طرب الكون وانتشى إذ تدوي ... في الفيافي مقالة ابن رباح
أحد حطم الطغاة صداها ... وبها الكفر بات غضب الجناح
إنها دعوة السماء على الأرض ... لترسي قواعد الإصلاح
ونداء الخلود يهتف بالكون ... ويدعو لعزة وفلاح[1]

هؤلاء الذين تغنى العظم بهم، وكتب من أجلهم وعلى مدحهم قصر شعره كلما كتب قصيده، وما مدح ملكاً أو عظيماً أو أميراً يتكسب من وراء مديحه أو ينال من به لعاعة من لعاعات الدنيا، إنما العظم يمدح العظماء ويكبر الشهداء ولا يداهن الأمراء أو العظماء أو يعينهم على ظلمهم أو بطشهم ، فالشهداء هم العظماء وهم الأوفياء وهم الأحق بالمدح والثناء.

حظي الشهداء بوافر الحظ من قلب الشاعر ، وأخذت صورتهم مساحة شاسعة من حياته وأعماله ، فالشهداء هم الكواكب التي تنير سماء الأمة في ليلها الحالك ، وهم شموس نهارها ، وهم أغرودة نشئها ، الذين بهم تسير الأمة نحو حلم حريتها .

الشهداء ؛ أغرودة وأنشودة . الشهداء قصيدة تحكي حكاية الوطن الكليم وترسم ملامح الحلم العظيم .

الشهداء ؛ هم ابتسامة الأمة ، وهم فلق صبحها وطيرها المحلق في سماء قدسها الحزين .

كتب العظم للشهداء نشيداً وقصيداً ، فقد كتب عن شهيد الكرامة قصته ، وترنم بذكرى آخر، ورمز للثالث رمزاً يقرؤه كل جيل ، وراسل الأمة بلسان الشهيد ، وأبرق لآخر في سبيل الله والوطن فخلب منه الفؤاد وتملك قلبه الثلاثة الأحرار ، الذين خلد ذكراهم .

تلكم حكاية الشهداء في شعر العظم ، وهاتيك مكانتهم في قلبه فما أعظمها من مكانة وما أجله من قدر .

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 26 .

" وتظل معركة الكرامة عنوان بطولة ورمز فداء ... والحديث عنها لا ينتهي لأنها بداية طريق طويلة مضمخة بالدم الذي يفوح مسكاً من جراح الشهداء . إنها منطلق الأمة نحو النصر والخلود والكرامة بإذن الله ... وتحية الشعر المؤمن أسوقها إلى روح كل شهيد لقي الله مؤمناً من أبناء ضفتي النهر الخالد من فلسطين والأردن دليلاً حياً على التحام هذا الشعب المرابط في ساح التضحيات"[1] .

يا شهيداً مضمخاً بدماء ... زانك الجرح في جبينك شامة
وعلى الرغم من جراح الضحايا ... لم يلن عزمه ولم يحن هامة
ورحاب الأقصى الجريح هواه ... وتراب القدس الطهور غرامه
فهو للحق مشعل وضياء ... وهو للخير شارة وعلامة[2]

والشهداء عند العظم أصحاب رسالة سامية ، ودرجة رفيعة عالية ، فهم لا يموتون من ضجر الحياة ، ولا فراراً من ويلاتها ، ولا لرغبة في الموت مجردة ، بل إنهم يصنعون الحياة الكريمة التي يرتضونها لقومهم ؛ فهم أحرار الأمة وواهبو الحرية لها ، وهم دعاة الوحدة التي جسدوها وعمروها بدمائهم وأشلائهم .

كلما المسجد الحزين دعاه ... جرد الليث للنزال حسامه
رفض الكأس والمدام ليرضى ... بفلسطين كأسه ومدامه
ودوى التكبير أكرم لحن ... عبقري قد رددوا أنغامه[3]

ومنطلق الشهداء عند العظم هو الشريعة الغراء شريعة الإسلام ، التي حاربت العبودية ، وحررت العباد ، وأعادت للمقدسات قدسيتها وطهرها .

إن الوحدة التي تبدو في شعر العظم في كل مناسبة كان شهداء الأمة هم أيقونتها ، وهم أبطالها ، بوصلتها ودليلها عندما تضل الطريق أو تتنكب جادة الصواب .

تمتزج في نفس العظم عظمة الدين وعظمة الرسالة ، مع عظمة الشهداء وعظيم دورهم فتمتزج في نفسه نداءات الحق للصلاة وتكبيرات المجاهدين في الميدان ، ويحلم الشاعر من بين ثنايا تلك المشاعر بوحدة جهادية كما هي الوحدة العقائدية ، يحلم أن تتوحد الأمة بجهادها واستشهادها ، أن تعتصم الأمة بحبل دينها :

والأذان الجريح في الأفق ... الرحب ينادي عراقه وشامه
والخليج الأبي واليمن الحر ... ومصراً من وراء تهامة

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 19 .

(3) السابق ص 20 .

أمة الـضاد والكتـاب أفيقـي ... وابعثي طارقاً وحـيّ عظامـه
من حمى المغرب الكبير تجلى ... خلفه البحـر والعـدو أمامـه
لا يتم النصر المـؤزر حتـى ... يغسل الـشعب بالـدما آلامـه
لا ولا يرفـع اللـواء إذا لـم ... يعلن الشعب في الوغى إسلامه[1]

إن عشق الوطن وعشق الشهادة يمتزجان في شعر العظم ، كلما نبض قلبه وتحركت نحو فلسطين مشاعره ، وكلما راود حلم الحرية خياله .

حلم العظم بالشهادة ودعا إليها وللحرية وعمل من أجلها ، و دعا للوحدة ونادى بها ، ولم يجد العظم محققاً لهذا الحلم وعاملاً به سوى الشهداء الذين بـدمائهم يرسـمون خارطـة الوطن من جديد .

كلمـا أظلـم الزمـان علينـا ... بدد الجرح بـالفجيع ظلامـه
فـأريقوا مـن الـدماء مـداداً ... واجعلوا من رمـاحكم أقلامـه
إن تبارى الكماة يبغون مجـداً ... منح المجـد للـشهيد وسـامه
أو تنـادوا لعـزة وفخـار ... أسلم العز للـشهيد زمامـه[2]

إنه المجد الحقيقي الذي ينادي به العظم وهو عين المجد الذي كتبه الشهداء الأوائل ، من لدن عمر رضي الله عنه صاحب الأمجاد العريضة مروراً بكل عظماء الأمة أمثال خالد وصلاح وشرحبيل وأسامة ، أولئك العظماء الذين إن سار الركب على خطاهم حقق أمانيه وغاياته ،

تلك الغايات التي من أجلها تقدم الشهداء ساحات الوغى ، تاركين وراءهم لعاع الـدنيا، بل الدنيا بملذاتها، ونزعاتها، وأثقالها، يمتطون صهوات الموت في سبيل الله إقداماً وفداءاً وإيماناً.

فلئن أطرب اللحن قلوب الأمراء ، وإن إشتاقت آذانهم لباطـل الإطـراء، فالـشهداء يطرب فؤادهم إهراق الدماء ، ولئن ركب الأمراء خيول الخيلاء ، ركب الـشهداء صـوب المنايا والفداء ، ولئن شرب الأمراء خمورهم شرب الشهداء كؤوس الوفاء :

قم وصافح ملائـك الـرحمن ... واصنع المجد في ذرى عمـان
وامنح القدس من دمائك فيضاً ... وتمتـع بجنـة الرضـوان
واكتب النصر بالدماء مـضيئاً ... وتحـد الغـزاة غيـر جبـان
إيه يـا درع أمتـي وحماهـا ... وذراعي في ساعدي وسـناني
تاقت النفس للزحـوف تـوالى ... وهي تطوي السهول في بيسان[3]

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 20 .

(3) السابق ص 24 .

الشهداء عند العظم أصحاب رسالة في حياتهم وبعد رحيلهم ، ورسالتهم أعظم من أن تحتويها الكلمات ، أو أن تحدها العبارات ، رسالة تتردد كلما حن الوطن إلى رجاله ، وحلم الوطن بأبطاله ، رسالة تحملها الأجيال جيلاً فجيلاً حتى تتحقق مضامينها واقعاً ملموساً ،

ورسالة الشهيد لم تكن من ميدان المعارك فقط ، فهناك شهداء المواقف وشهداء الكلمة، بل إنه أعظم الجهاد كلمة حق قالها رجل في وجه سلطان جائر فقتله ، وهناك شهيد المحراب وشهيد الليمان :

" إلى كل من اغتالته رصاصة طائشة عمياء ، بيد مجنون أرعن .. أو مأجور جبان فسقط في محراب الأيمان .. شهيد الكلمة الشريفة والرأي النزيه والعقيدة الصالحة ".

لا تقولوا لقد فقدنا الشهيدا مذ طواه الثرى وحيداً فريداً
أنا ما مت فالملائك حولي عند ربي بعثت خلقاً جديداً
فاصنعوا اليوم من شموخي نشيداً

يمضي الشهيد و قد بذر في نفوس الجيل بذور الحرية التي حلم بها ، غدا يسقي بذرتها من دمائه الزكية . تلكم رسالة الشهيد .

كلماتي سكبتها في ضلوعي وجرحي سقيتها من نجيعي
فازدهى الحق في ظلال لواء عبقري يزهو بلون الربيع
ويقود الجموع أثر الجموع
أنا لله قد نذرت حياتي وسألت الإله حسن النبات
فإذا ضمخت دمائي صدري واحتوى الثرى وضم رفاتي
فاذكروني يا إخوتي في الصلاة[1]

رسالة استنطق العظم بها محيا الشهيد ، شهيد الكلمة الصادقة وكلمة الحق التي يقارع بها في ميدان اللسان .

إن أمانة الكلمة تجلت في كل قصيدة كتبها العظم ، وفي كل بيت ، فهو مدرك عظيم أثرها ، وكبير فعلها ، إذا ما انطلقت من فؤاد واثق بالنصر ولسان صادق ناطق بالحق :

قد سما النسر فوق شم الجبال ومضى يرتقي صروح المعالي
وإذا البغي في الظلام تمادى واجه البغي فوق حد النضال
بلظى الموت والردى لا يبالي[2]

والعظم مدرك أن (الحرب أولها الكلام) كما قال الإمام علي كرم الله وجهه .

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 120 .

بل إن حسان رضي الله عنه كان محارب اللسان قبل السنان ، وكانت تقوم الحروب وما زالت، عبر أفواه الشعراء والخطباء، واليوم يقودها الإعلام كما يقود الجندي المعركة في الميدان.

حيّا العظم الشهيد وبجّل الشهداء ، عبر رموز للاستشهاد كان لهم عظيم الأعمال والتضحيات ، التي جعلهاالعظم عناوين ومحطات ، توقف عندها عبر أشعاره وأعماله ، استلهم من خلالها أسماء كثير من العظماء في عهد الصحابة ، وعبر تاريخ الأمة المجيد ، وصولاً إلى شهداء الأمة في هذه السنوات ، فمسيرة الشهداء عند العظم واحدة بدأت ، منذ أن بدأت دعوته صلى الله عليه وسلم، فهم ومنذ ذلك الحين المحركين لسكون الأمة ، الباعثين حياتها، الكاتبين تاريخها ، الصانعين أمجادها .

رحيل الشهيد ليس موتاً ولا فناء بل هو حياة عند رب العزة ، كما قال " **بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** " (آل عمران : 169) .

فالشهداء لا يموتون ، تلك حقيقة قرآنية ، وعقيدة إسلامية ، وهم أحياء في قلوب الأمة ، أليس في رحيل الشهيد إحياء لآلاف من أبنائها ، ألم يبعث الشهيد في قلوب الملايين حباً للشهادة وعشقاً للفداء رانت عليه تكاليف الحياة وأثقلته أعباؤها عن الجهاد؟ ، ألم تكن الشهادة أيقونة الأمة نحو عزتها وعريق مجدها ؟ .

وإن نلت الشهادة بين آلاف القرابين سأنبت غابة الشهداء فيها ألف مليون[1]

هذه رسالة الشهداء عند العظم ، وهذا سحرهم ، وهذه أسرار رحيلهم ، يستلهمه الشاعر عبر عصور الأمة ، وفي كل صفحات مجدها ، إن الشهداء هم صناع المجد وهم أنشودة العزة وهم ذخيرة الأمة حين تلخص قصتها رحلة الأحرار الثلاثة ساروا في موكب الأبرار مدحهم العظم في قصيدة رائعة .

ثلاثة فرسان تباروا إلى العلى وكل يغذ السير نحو مصيره
وكل بإذن الله مأواه جنة شهيد العلى قد زف فوق سريره
أحاطت به الحور الحسان كرامة فأقبل ضيف الخلد يزهو بحوره
ففازوا بجنات وطابت حياتهم كما طاب في الفردوس صفو غديره[2]

جاء إكبار العظم للشهداء استحقاقاً ، ليس هبة أو هدية يهديها ، فهؤلاء استحقوا المديح ، لمّا استجابوا لنداء الأقصى الحزين ، انخلعت قلوبهم لتلك المآسي والويلات ، هبوا وكانوا أسود الفداء لما سمعوا ذاك الأنين وذاك النداء ...نداء المقدسات التي ضيعها من

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 123 .

(2) السابق ص 214 .

ادعوا زوراً أنهم قادة الأمة والزعماء ، من أجل ذلك استحق الشهداء هذا المديح وذاك الإطراء .

أليس الشهيد هو الذي عانق الموت في حين عانق غيره الخمول والكسل أو الغانية أو الحسناء:

عانق الموت في رحاب الكرامة وسقى المجد من دماء النشامة[1]

والشهيد هو الذي لا يبالي بالردى ولايعبأ بالأهوال ويقدم الأفعال على الأقوال :

لا يبالي الردى ويهزأ بالنار وإن كان في لظاها المنية[2]

وهو الذي قطع العهد على نفسه دون تردد أو تراجع :

قطع العهد أن يموت شهيداً أو يعود الأقصى ويمحو الدنية[3]

والشهيد بذل نفسه حين بخل الآخرون وأقدم حين تراجعوا وبادر حين تخلفوا :

يا باذل النفس يا قربان يا أمل سل أدعياء الوغى في الساح كم بذلوا[4]

لك الوسام على صدر يزينه دم الجراح بنار الثأر يشتعل

هو الشهيد الذي كان درع الأمة وحصن منعتها وذراعها الضاربة صدور الأعادي :

إيه يا درع أمتي وحماها وذراعي وساعدي وسناني[5]

أما ملح الأرض وسحر عطرها ومسك ريحها ، فهو دم الشهيد :

ودم الشهيد يسيل فوق ترابها وبه بيوت الأكرمين تعطر

ودم الشهيد خضاب القدس ووسام زينتها :

يا قدس يا أمل الشهيد تزف في أنقى الثياب

بالورد والحناء والدحنون روض القدس طاب[6]

وسطّر العظم لهؤلاء العظماء " صفحة خلود " ! يتحدث فيها عن ملاحم مشرقة في تاريخ الأمة من شذى الزهر المروّى وبدماء الشهداء ، والنفوس القانيات ، وصهيل الخيول ، ونداءات الغار، وأنوار مكة ، وحديث المحراب ، من تلكم الربوع العطرة ، والبقاع الطاهرة، سطرت الأمة صفحات مجدها ، وأيام عزتها ، والشهداء كانوا هم أبطال مجدها الذين رسموا تلك اللوحات على جبين التاريخ دماً قانياً وفجراً مشرقاً باسماً .

---

(1) يوسف العظم الاعمال الكاملة ص 19 .

(2)، (3) السابق ص 21 .

(4) السابق ص 23 .

(5) السابق ص 24 .

(6) السابق ص 298 .

من نسمات تلكم الربوع ، استحضر الشاعر مواقف تاريخية ، كتبتها الأمـــة بالـــدماء يستنهض فيها الشاعر همة الأمة ، ويستنفر طاقاتها ، ويستجلب خيلها ، ورجالها ، علها تقوم من عثرتها ، وتنهض من كبوتها ، وتسترد بعضاً من عافيتها .

هذه رسالة الشاعر إلى أمته ، من خلال استحضار تاريخ الشهداء والشهادة في شعره وأعماله .

مواقف سطرها العظم شعراً ، بعدما اعتقدها ديانة ، يدين لله تعالى بها ، معلماً إياهـــا النشء من بعده ، ومزمجراً بها في كل محفل ومناسبة مباهياً الدنيا بشعره الذي زينته ســـيرة الشهداء وبطولات المجاهدين .

هذي ذخيرة شاعر يزهو بها ... في الساح لا بطر ولا خـــوار
شتان بين الشعر رمح مجاهد ... وقصيده يلهو بـــه المزمـــار
فمن القريض قذيفـــة علويـــة ... تشوي الوجوه كإنها إعـــصار
ومن القريض مثبط ومخـــدر ... يرعاه في سوق الخنا خمـــار
والله أسأل أن أعيش مجاهـــداً ... حراً وبعض قـــذائفي أشـــعار
لا أشتكيه ولا يذل كرامتـــي ... في مفرقي سيف ولا منـــشار
حتى ألاقـــي الله فـــي ســـاح ... بدم الشهادة يختم المـــشوار[1]

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 225 .

الفصل الرابع
الالتزام الإسلامي وأثره في عناصر الإبداع

تمهيد :

التزم العظم في شعره منهاج شعراء الدعوة التي حمل لواءها حسان، وقد أفرز لذلك ديواناً كاملاً أسماه "على خطا حسان" متوجاً إياه بالآية الكريمة "وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء : 244).

وقدم للديوان بكلمة بين يديه قال فيها : "منذ قرأت الشعر واطلعت عليه ودخلت ميدانه وأنا شديد الإعجاب بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم (حسان بن ثابت رضي الله عنه) بمتانة صياغته وسلامة أسلوبه وحرارة قناعته وأداء، حتى ليخيل للقارئ أنه يعيش الحدث ويحيا القضية بكل دقائقها وأبعادها"[1].

ونقرأ في كلمات العظم ذاك الإعجاب الذي ولّد عنده دافعاً قوياً لإتباع خطى حسانرضي الله عنه في وضوح الفكرة ووضوح الهدف الذي يعمل من أجله العظم ويعلل تلك "الخطابية والمباشرة" التي سيطرت على شعره والتي دافع عنها وتحرك معها بأنها لمصلحة الفكرة ووضوح الهدف سواء كان مباشرا أو غير مباشر حيث قال : "لا أريد أن أدافع عن مستوى شعري ونمطه، لأن ذلك متروك لعشاقه ومحبيه إن وجدوا، ولكني أريد أن أناقش تهمة "الخطابية والمباشرة" التي يشار إليها أحياناً، وهل هي تهمة حقاً إن وجدت في شعري أو كان لها حضور؟ إن أسلوب الأداء وطريقة التعبير تهمة يدافع عنها أو يتبرأ منها ... إن الشعر وسيلة أداء وأسلوب تعبير ولكن عن قضية لا تتبدل ولا تتغير، ألا وهي عقيدة الأمة ومنهاج حياتها، والشعار القادر على التعبير عن ذلك كله، المصور لأبعاده وطموحاته، هو الشاعر الملتزم، وصاحب الرسالة الجدير بالتقدير، سواءا أكان أسلوبه خطابياً مباشراً أو إيحائياً غير مباشر المهم القدرة على التعبير والقدرة على التأثير معاً"[2].

والعظم يحقق نموذجاً للشاعر الملتزم بقضايا أمته الحامل لهمومها الرافع لواء الجهاد ضد أعدائها.

إن العظم صاحب طموح عالٍ قولاً وفعلاً فكما حقق طموحاته في مدارس الأقصى فهو يطمح أن يشيد مدرسة للفن الإسلامي الملتزم، وليس فقط أن يكون الالتزام طارئاً أو بين ثنايا دواوين محدودة، فالفن عنده أنشودة الحق، ولوحة العلا ودرع حامية، ودعوة سامية.

فالفن أنشودة بالحق قد صدحت ولوحة للعلى قد خطها القدر
والفن في أمة القرآن درع حمى لأمة قد سباها الكأس والوتر

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 333.

(2) أحمد الجدع : شاعر الأقصى يوسف العظم ص 29.

والفـــن دعـــوة إيمـــان وألويـــة ... خفاقة فـــي ذرى العليـــا تنتـــشر
والفن إبـــداع صـــاروخ وقنبلـــة ... أو خطة لنهوض الـــشعب تبتكـــر
والفن علم ووعـــي لـــيس ينكـــره ... إلا جهول بـــساح الـــذل يحتـــضر
والفن ليس خصورا أهزها طرب ... في حمأة الفسق والعصيان تنحـــدر
وليس عرياً ولا ســـكراً وعربـــدة ... أو لوحة للخنا أوصى بها البطـــر
حتى يكـــون لنـــا فـــن ومدرســـة ... ترعى من الفن ما يرقى به البشر[1]

مفهوم الالتزام :

لزم الشيء، يلزمه لزماً ولزوماً، ولازمه وملازمة ولزاماً، والتزمه، وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه، واللزام الملازمـــة للـــشيء والـــدوام عليـــه، والالتـــزام: الاعتناق[2].

والعظم التزم الإسلام شرعة ومنهاج حياة، ودستوراً أو سبيلاً يسير عليـــه فـــي حياتـــه وأشعاره.

وقد تبدت ملامح الالتزام عند العظم في أشعاره التي حملت المضامين الهادفـــة، التـــي عالج من خلالها قضايا الأمة ورسم مسارها الواضح النابع من عميق التزامه المحقـــق لجميـــع غاياته وأهدافه العليا في حياته وعلى صعيد علاقته بزوجته وأبنائه، بعيداً كل البعد عن الإيهام أو انعدام الوضوح.

إن الالتزام بقضايا شريفة نبيلة والتضحية في سبيلها فضيلة، والشاعر الملتـــزم يتـــأثر ويؤثر بصدق تجربته والتصاقها بقضايا تشغل الإنسان وتحدد مصيره، والشعر يزيد من معرفتنا، فليس بشعر ما لا يؤثر فينا.

ونحن لا نتأثر دون أن تصبح لدينا معرفة بتجربة جديدة أو أكثر حيوية، ولـــيس عمـــل الشاعر إقناع القارئ، ولكنه يؤثر في كل ما هو حي في الإنسان، فإذا انتقل شعره بنجـــاح إلـــى الآخرين فقد تحتم أن يكون له أهمية[3].

إن المعيار الذي تقاس به شعرية الشعر، الأخذ بمبدأ الالتزام الأيديولوجي إنما يبحث عنه من مدى التلاؤم بين جوهر الشعر من حيث هو رمز وإيحاء وتصوير ولغة شديدة الخصوصية، وبين الأيديولوجية السياسية من حيث هي التزام بقضية لها أبعادها وبنيتها ومنطقها، لذلك فـــإن

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 305.

(2) ابن منظور : لسان العرب، مادة "لزم"، دار صادر، بيروت، 12/541-542.

(3) عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992، ص 239

الشعر الفلسطيني المعاصر، يمثل هذا الوضع أصدق تمثيل فهو شعر سياسي في صميمه، فيه ما في المواقف السياسية والنضالية من أيديولوجية والتزام[1]، والواقع أن مفهوم الالتزام قد ارتبط إلى حد بعيد بمفهوم الأدب نفسه، ومدى علاقته بالحياة، وبالدور الذي يقوم به الأدب في توجيه هذه الحياة[2].

إن مشكلات الأديب لا تنفصل عن مشكلات الناس، بل ربما كانت مشكلات الناس بالنسبة إليه هي محور مشكلاته، وإلا لما كان هناك مبرر للحديث عن الالتزام وما يثار حوله من مناقشات كثيرة، وإنما يتحقق الالتزام عندما يقدم الأديب للآخرين أعمالاً إيجابية في تأثيرها، تمس حياتهم ومشكلاتهم مساً مباشراً، وأما الذين يعادون هذه الفكرة فإنهم يحسبون أن التزام الأديب بقضايا مجتمعه يعني بالضرورة اشتغاله بالمشكلات اليومية، وأن هذا من شأنه أن يحط من جلال الأديب، وإنما تتحدد قيمة العمل الفني بالأثر الفعال الذي يتركه في نفوس الناس[3].

ويضيف د. عز الدين إسماعيل : "قضية الالتزام هي جدل بين الأيديولوجية والفن، ولكننا لو أمعنا النظر في حقيقة الفن من حيث هو تعبير إنساني لوجدناه منذ البداية شديد الارتباط بالعقيدة، إن المتدبر لتاريخ الفن حتى العصور الحديثة يستطيع أن يدرك هذه العلاقة الوثيقة بين الفن والعقيدة"[4].

والالتزام يربط المبدع بالواقع، وهو في حقيقته التزام المبدع بالقيم الحضارية الخاصة بمجتمع دون آخر، وليس تجريده من أفكاره وميوله الطبيعية باعتباره ذاتاً موهوبة متميزة، فلا تستطيع الفصل بين الفكر والشعر فصلاً قاطعاً بتجرير الشعر من البعد الفكري، فالتلازم قائم بينها على نحو طبيعي وضروري فالشاعر يفكر لكنه تفكير شعري يحيل الأفكار برؤيا وتقنية خاصة إلى الشعر، وفكر الشاعر من لون بيئته وعصره الذي يعيش فيه[5].

إن قراء الشعر يدركون تماماً أنه ليس من مهمة القصيدة أن تحمل إليهم معنىً محدداً، أو فكرة بعينها، وإنما يكفيهم منها الإثارة الوجدانية، يكفيهم منها إثارة ألوان من الانفعال تدفع الشاعر إلى التعبير، فليس قيمة الشعر في ذاته فحسب، وإنما نتوقع من القصيدة دائماً أن تغير من موقفنا إزاء شيء بعينه، أو تعدل من هذا الموقف وبالتالي تؤدي إلى خلق نوع من الانسجام في الموقف الجماعي، وفضلاً عن ذلك فإن أدب الالتزام لا يؤمن بأن الحرية الكاملة للفرد تتحقق

---

(1) د. عبد البديع عراق : صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ديسمبر 2004، ص 576.

(2) عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، ص 373.

(3) السابق ص 375، 376.

(4) السابق ص 377-378.

(5) عبد الرحمن محمد الفعور : الإبهام في شعر الحداثة، المجلس الوطني الكويتي، الكويت، 2002، ص 27-28.

خارج المجتمع أو ضده، بل يميل – على الأرجح – إلى الرأي القائل بأن الإنسان خارج المجتمع لا يكون إنساناً أبداً وإنما يصير في مستوى الأنعام ويكون على هذا النحـــو عرضـــته للجبريـــة القاسية، فالحرية انتصار اجتماعي، وما يسري على شخصيات أدب الالتزام يسري بصورة أقوى على الفنان الملتزم نفسه، فهناك تبادل مثمر بين نشاطه الإبداعي فناناً، وحياته رجلاً، له موقفه، حيث إن حياته تثري فنه وتزوده بالزاد الوفير، فيشاركهم صعوباتهم ويتعرف على مشاعرهم[1].

إن عملية الإبداع الفني عملية فردية، وإن العمل الفني يحمل وجهة نظر إنسان بعينـــه، وإن الفن سيظل دائماً عمل الفرد المبدع، حيث لا تتعارض هذه الخاصية الفردية مـــع العقيـــدة الجماعية، وعلى ذلك تحددت منذ البداية صورة التفاعل بين العقيدة والفـــن، أو بـــين المجتمـــع والفنان، فالعمل الفني الناجح إذن هو العمل الذي يعبر عن موقف له وزنه وقيمته[2].

فالشاعر الملتزم إلى جانب قضيته الأساسية، لا بد أن يكون له صلة قوية مع جمهـــور الناس يخاطبهم ويكتب لهم حتى إن لم يجد حلولاً، بينما نجد الشاعر الذي تشغله أمور الفكـــر أو الفلسفة أو الحالات النفسية المعقدة، لا يعبأ كثيراً بالجمهور الكبير، وقد لا يحزنه أو يؤذيـــه أن يرى جمهور شعره قليلاً محدوداً، بل ربما وجد في الجمهور ميزة وقيمة ... فهو شاعر صـــفوة ونخبة وأقلية ذات فكر رفيع وثقافة عالية، فالتزام الشاعر يعني وجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في القضايا الوطنية والإنسانية، بينما يتوقف الآخرون عند الشعور بالألم أو تمني الأمنيات[3].

الشاعر ضمير الأمة والبوصلة الدقيقة الحساسة التي تشير إلى حقيقة الاتجاهات، مهمـــا اختلفت الفصول وتغيرت الأنواء، ولا قانون يحكمه أصلاً إلا ما يحكم حركة مؤشر البوصلة من قوانين، والقصيدة الملتزمة وفق هذا المفهوم، تجد جمهورها دائماً، الجمهور العام لا الخـــاص، فالأثر الشعري لا يوجد إذا كان المتلقي لا يتقبل المحتوى الشعري المبثوث في الرسالة الشعرية، وما دام الأمر كذلك فإن القارئ لا يقوم بوظيفة سلبية في عملية التواصل الفنية باعتباره مجـــرد متلق، بل وظيفته بالغة الإيجابية، وهو يتدخل في خلق القصيدة، ابتـــداء مـــن تـــصورها الأول فالشاعر يكتب لا محالة بشكل يدعو القارئ لتقبل ما ينشئ، وبدون هذا التقبل لا وجود للشعر[4].

والعظم دون شك شاعر ملتزم نهج المقاومة والجهاد، ملتزم تعاليم الدين الحنيف ملتـــزم صادق الانتماء لأمته وقضاياها المصيرية والمقدسات والأوطان المسلوبة.

---

(1) ماكس أربش : أدب الالتزام، ترجمة عبد الحميد إبراهيم شيحة، مكتبة النهـــضة المـــصرية، القـــاهرة، 1989، ص 117.

(2) عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، 379-382.

(3) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، 1973، ص 456.

(4) صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص23.

التجربة الشعرية والصدق الفني

لقد تبدت تجربة الشاعر صادقة متألقة في أشعاره حتى اتهمه البعض بالخطابية والمباشرة، "وترتبط العلاقة بين التجربة الشعرية والمضمون، مع باقي عناصر الإبداع بوشائج لا يمكن تجاهلها، فكما أن التجربة الشعرية لا تتشكل بمعزل عن العاطفة، كذلك المضمون لا يستوي إلا بوضوح المعاني الناتج عن امتزاج التجربة بالعاطفة"[1].

وقد عاش العظم تجربة حياة حافلة بالأحداث الجسيمة والملمات العظيمة، تفاعلت في مجملها لتشكل تجربة العظم الشعرية، مما يستدعي الوقوف على المحطات الرئيسة التي شكلت تجربته وكانت عناوين بارزة فيها.

انتماء للوطن :

يظهر انتماء العظم لوطنه ومدى حبه إليه في غير موضوع من أشعاره، وصدق انتمائه يستشعر من بين كلماته وأبيات شعره، فمعان موطنه ومسقط رأسه ومنذ نعومة أظفاره درج على حبها وجبل فؤاده على عشقها حتى نعتها بمعان العز:

معان العز بتي في حماها ... وأهلي أهلها أسد العرين
وإن ناديتهم للبر يوماً ... فهم أهل المروءة كل حين
هم الأمجاد إن رفعوا لواها ... وهم في الصالحات رموز دين
وهم في المكرمات إذا تنادوا ... أنار قلوبهم نور اليقين[2]

إن إخلاص العظم لوطنه وبلاده ووفاءه لأهله وربعه واضح بيّن، وهذا ديدن كل متمسك بدينه منتم إلى عقيدته.

إن الانتماء فطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها، والعظم سليم الفطرة مستقيم الفؤاد، قصر شعره ونثره على الوطن والوفاء إليه.

ربوع الأردن حلق العظم فيها وتألق، فحيا الأردن وشغف بمجاهديها فقال :

يا صانع المجد في الأردن تكرمة ... في كفك الموت للباغين إعصار
على ثراك معاذ في مهابته ... وجعفر في رحاب الخلد طيار
زرعت زندك في أفياء خندقه ... وفي فؤادك تصميم وإصرار[3]

---

(1) نبيل خالد أبو علي : عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، ط1، ص 26.
(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 319.
(3) السابق ص 27.

والعظم يعيش في وطنه وينتمي إليه بكليته ، كما يعيش الوطن في فؤاد الشاعر، فيملك عليه حياته، ويمتع به ناظريه ، ينعم بطيب الوطن ودفء المرقد إليه، يلوذ به إن طرقت حياته المصائب، ويأوي إليه إن فاجأته الخطوب والملمات، يثبت الشاعر ثبات الجبال التي تحيط الأردن فلا يستسلم ولا يخنع ولا يخضع، كل ذلك شكل تجربة العظم ووجه أدبه.

إن الحديث عن شخصية الشاعر لا يتم بمعزل عن مكوناتها الخاصة، والعوامل التي أثرت فيها، فإذا كان من نافلة القول أن تذكر الاستعداد الفطري أو الموهبة، والخبرات التي اكتسبها الشاعر حتى استوى عوده، والطريقة التي تشكلت بها تجربته وتمرس من خلالها حتى صقلت موهبته كركيزة أساسية وعامل رئيس، فإن للحديث عن المؤثرات والعوامل الخارجية؛ من بيئة وتراكمات ثقافية وموروث حضاري ... أهمية في الكشف عن تجربة الشاعر وبواعث إبداعه الفني وخصائصه، إذ للظروف التي يعيش في كنفها الشاعر دور هام في صياغة وجدانه، وهي التي توجه مجريات حياته، سواءاً تفاعل معها وتأثر وأثر فيها بطريقة إيجابية فاعلة، أو تقاذفته أحداثها وتلقى آثارها بطريقة سلبية[1].

تغنى العظم بوطنه وفاخر به بل بكل حرف من حروف بلدته التي احتضنته واحتضنها وأحبته وأحبها وغنت له وغنى لها:

"معاني" إن بحثت عن المعاني لقيت به المروءة والتفاني
بفتح الميم تنطق لا بضم وتعني منزلاً بالخير ران
لها باب يرحب كل حين بمن قدموا ويفتح في ثوان[2]

تتجلى في نفس العظم روح العرب وكرم العروبة الأصيل الذي تميزت به بلاده وبيئته العربية التي صقلت شخصيته ووشحت شعره وقصائده إلى جانب الكثير والكثير من الشمائل الإسلامية ودلائل الشهامة العربية التي زينت صدر معان فعنون قصيدته بعنوان "وسام .. على صدر معان".

العظم شاعر منتمٍ إلى بلدته ووطنه روحاً ووجداناً وشمائل وصفات:

وروح الجود تسري في دماه ويقرئ الجمع من بيض الجنان
ويحمي الجار من باغ أثيم ويشفي الجرح من فرط الحنان
وإن ناشدته يوماً يلبي ليمنحك العطاء بلا توان[3]

---

(1) نبيل أبو على : عناصر الإبداع الفني ص 13.

(2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 347 .

وما توقف العظم عند الشمائل العربية الأصيلة التي زينت صدر معان خاصة والأردن عامة، بل إن "مرابع المجد" مرابع الشاعر كثيرة وأمجادها أكبر من أن يحاط بها، فقلعة الربض "عجلون – الأردن" كانت حاضرة في نفس العظم مستدعية لصفحات المجد المشرقة التي لطالما استحضرها العظم في أشعاره مستلهماً عزة القادة العظماء، الذين كتبوا تلك الصفحات على جبين التاريخ.

"بناها عز الدين أسامة .. من قادة الناصر صلاح الدين، لتكون منطلقاً لكتائب الفتح وعريناً للمجاهدين، وما زالت شامخة تطل على الربى الخضراء من حولها والسهول الفسيحة، لتحكي للأجيال أبداً قصة الرباط والثبات والرايات التي عاشت في أفيائها الإنسانية سعيدة هانئة[1]:

تطل على "عجلون" نسراً مجنحاً ... يذكر بالفتح عزاً وسؤدداً
وفينا صلاح الدين سيفاً ومصحفاً ... يذيق الأعادي حين يلقاهم الردى
يدك بجند الحق أصنام باطل ... فيتركه في الأرض شملاً مبدداً
ويمنحنا براءا من الدار كلما ... نهلنا من القرآن والسنة بالهدى[2]

والعظم في استحضاره تلك الأمجاد ووقوفه عند تلك الصفحات الماجدة من تاريخ الأمة، إنما كان هدفه استنهاض همة الأمة، وبعث روح الفداء فيها من جديد، وبث روح التضحية في نشئها التليد، يستحضر العظم تلك الصفحات المشرقة التي غابت أو كادت أن تغيب من ذاكرة أبنائها الذين شغلتهم الأهواء أو أنستهم الهزائم عظيم تاريخهم، والعظم يسمع ذاك الصوت المجلجل في وجدانه، صوت المقاومة والإباء، صوت الفداء والتضحيات:

وفي "الربض" الشماء صوت يهزني ... يذكرني بالفتح إذ يرجع الصدى
حشود جهاد لا قطيع مذلة ... أقامت على الإسلام فخراً ومحتداً
تنادوا وعز الدين فيهم مظفر ... أبى سيفه أن يستكين ويغمدا
لغير المعالي ما تنادوا وديننا ... يرى البر في الإيمان والعفو والندى
سلام على رايات زيد وجعفر ... تصان بروح للشهيد وتفتدى
وفي كل قلب هاتف يحمل المنى ... أما آن أن يرقى العقاب ويعقدا[3]

وتتواصل في نفس العظم تلك الأمجاد والفتوحات التي يرنو إليها الشاعر حتى تتصل بالعهد النبوي الكريم.

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 49.

إن الوطن في فؤاد العظم يعيش في كله وتاريخه وأمجاده وصفحاته المشرقة فكانت بواعث تجربته تستقي رحيقها من نبع النبوة الرقراق وأمجاد الفتوحات الغراء وهو يسعى من ذلك كله لتحقيق شخصيته المتميزة حين ينسخ من تلك الأمجاد مصدراً للغة قصائده، فامتزجت تجربته الشعرية بقاموس المقاومة والمجد والصمود.

ورب كلمة تجمع معالم شخصية العظم بجوانبها المتعددة، وهي كلمة الانتماء بأوسع ما تدل عليه من معان رفيعة سامية، فهو أردني فلسطيني تضطرم بين جوانبه مشاعر جياشة بحب الوطن الذي درج على أرضه، واستظل بسمائه، فوهب العظم هذا الوطن قلبه وحبه، وأنشد فيه العذب من شعره، الذي تغنى فيه بأمجاد قومه، وكفاح أبنائه في سبيل الحرية والكرامة[1].

وللوطن في شعر العظم حضور خاص، وتشكيلات جمالية متعددة، فهو باعث الانتماء ومن أجله يحلو البذل والعطاء، فيه يغدو المر عذباً والحر برداً والصحراء حدائق غناء.

ولم يفت العظم أن يرثي شهداء الوطن وعظماءه، الذي رووا بدمائهم ترابه وكتبوا صفحات مجده، بل وأنه قصر مديحه عليهم وعلى شخوصهم العظيمة، فراح يرثي الشهيد والشهداء في كل مناسبة تلوح في خاطره.

قطع العهد أن يموت شهيداً ... أو يعود الأقصى ويمحو الدنية
ذاك منصورنا به نتباهى ... فلنفاخر به "معان" الأبية
وليفاخر به رفاق سلاح ... وكفاح وساحة عربية[2]

إلى جانب هؤلاء العظماء كان الشعراء وذكرهم ومعارضة أعمالهم باعثاً من بواعث شعر العظم، وتجربه إضافية تأثر بها، فظهر ذلك في الكثير من أشعاره سواء في الشكل أم المضمون، وأكثر الذين تأثر بهم الشاعر فكراً وشعراً الشهيد سيد قطب وقد عبر عن ذلك من خلال تلك المعارضة التي خطها العظم في معارضته لقصيدة الشهيد الإمام سيد قطب رحمة الله عليه والتي بعنوان "لأخي من وراء القضبان" يقول العظم :

أخي من ربى الأردن الصابر ... ومن حرم المقدس الطاهر
أثبك شوقاً وبشرى غد ... كريم من الخالق القادر
بتطهير أرض الهدى من دخيل ... وكل ظلوم طغى فاجر
فإن الضلال وإن الجمال ... شبيهان في الزمن الحاضر[3]

---

(1) بدوي أحمد طبانة : كوكبة من شعراء العصر، بتصرف، ط1، 1925، ص 158.
(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 21.
(3) السابق ص 423.

ويمضي العظم في قصيدته يتعرض لأصناف العذاب والتنكيل التي سامها النظام الناصري للإخوان المسلمين لا لشيء إلا لأنهم حملوا فكرة الإسلام ودعوة خير الأنام ورأوا فيها مناط التحرير للأرض والإنسان.

ويستحضر العظم بيتاً من شعر الشاعر الذي ما زال يردده العالم العربي حتى يومنا هذا وكأنه يوحد رسالة الشعراء، وهدف رسالتهم الغراء في بيت :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ونسعى لرفع عقاب الرسول وعدل النقي التقي عمر

فالعظم وحدوي في شعره وفكره فبعدما كان الشهداء طريق الوحدة للوطن، فهاهم الشعراء، يسلكون ذات الطريق ويمضون على ذات الدرب في أشعارهم وقصائدهم، تلك رسالة الشعراء والشهداء في هذا الأتون من الفرقة والتشرذم العربي المقيت الذي شتت مقدرات الأمة، وأغرى بها أراذل الأمم وغدت به في مؤخرة القافلة.

الوطن الكبير (ديار الإسلام) :

برز في شعر العظم جلياً واضحاً بعد انتمائه للوطن الإسلامي الكبير، شاعراً بآلام الأمة، متفاعلاً مع قضاياها، التي أدمت منه الفؤاد ومزقت القلب وأبكت العين، فضربات المستعمر أثخنت جسد الأمة وأدمت قلبها، و ألهبت نوايا المستعمرين الخبيثة فؤاده وأرقت سهاده.

تأثر العظم بفظاعة الأحداث أيما تأثر فانطلق في ثورة عارمة، يفجر آلامه شعراً وقصيداً منادياً بالكفاح حي على السلاح.

واستمر العظم في مسيرته الجهادية يأسو جراح المنكوبين، ويمسح أفئدة المكلومين ويشعر بشعور المضطهدين، شاهراً سيف الجهاد سيف اللسان والسنان. وبالرغم من أن أكثر القضايا التي تفاعل معها وعلا صوته لأجلها قضية فلسطين حيث أن أحداث الأمة العربية في معظمها ارتبطت بفلسطين أوثق ارتباط منذ نكبتها وحتى يومنا هذا.

و بالرغم من ذلك ما غابت عن الشاعر مقاومة الجزائر وحروب أفغانستان وأمجاد مصر وثورة مدنها وقراها، كل ذلك كان مبعث تجربة مريرة خاضها العظم بكفاءة واقتدار، فجاءت أشعاره صوت المقهورين مدوياً وسلاح المجاهدين مشرعاً، وداعياً إلى الوحدة والتوحد بين أبناء الإسلام، شعراً يجلجل ويزلزل، يجلجل في قلوب النشء بقعقعة السلاح وسيلة للخلاص، مزلزلاً عروش الطغاة والغزاة على حد سواء.

صحيح أن القدس كانت أيقونة الشاعر فالقدس زهرة المدائن، والقدس محراب ومنبر، نور وعنبر، كوكب وموكب، أنشودة وأغرودة.

ولم يكن شغف العظم ببلاده شغف الشاعر الهائم بالحدائق الغناء، أو المروج الخضراء ،أو السفوح والجبال أو الهضاب والتلال، بل كان شغفه ببلاد في مجملها ميادين جهاد، وأرض استشهاد بعيداً لهو سائر الشعراء والكتاب.

"سهول بلادي .. ميادين جهاد وحقول استشهاد، فوق كل رابية من رباها زرعت كتائب الحق والهدى جثة لشهيد، وعلى كل شبر من ثراها .. سالت قطرات من دم زكي يرويها .. سماؤها .. منطلق النور .. ومظلة للخير والمرحمة.

وأرضها مهبط للوحي .. وموطن للعزة .. وموضع للسجود

ومالي أطيل .. ألا يكفي أن تكون بلادي .. ديار الإسلام"؟[1]

وانتماء العظم منبثق من الرسالة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي وحد فيها الأمة وأذاب فيها فوارق الجنس واللون ووثق رابط الدين والعقيدة، فوحد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ودعوة العظم التي تبدت في قصائده للوحدة والاتحاد كانت من صميم دعوة الإسلام ومن وحي آيات القرآن الكريم يقول العظم.

"قليلون على الساحة العربية من يدركون أبعاد الوحدة بين الأردن وفلسطين إنها ليست وحدة سياسية .. ولا جواراً جغرافياً .. ولا مصالح مشتركة كما يتوهمون ولكنها وحدة دم زكي.. مازج الثرى فوق الأرض المباركة، وآصرة عقيدة أغلى من التراب والطين، وأخوة أرحام لا يمكن أن ينفصم عراها .. ولو تبدلت خريطة المنطقة، وتصدعت رؤوس المتآمرين على وحدة البلد الواحد وأخوة الشعب الواحد .. ولا أقول البلدين .. ولا الشعبين"![2].

إن التجربة الشعرية لا تأتي من خارج الكرة الأرضية، بل هي بنت الواقع الذي يعيشه الشاعر، وبقدر التصاقه بموضوعه تأتي القصيدة مؤثرة، ينقل شعوره إلى المستمع أو القارئ، وبذلك على الشاعر أن يصغي إلى دوافعه الداخلية وضغوط روحه وإلحاحها دونما محاباة لدافع آخر[3].

أنا صدر بقوة الحق عامر ... أنا جيش بعزة الله ظافر

أنا صمت يبذ كل لسان ... صمت حر في موكب الحق صابر

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 16.

(2) السابق ص 126.

(3) علي جعفر العلاق : الشعر والتلقي دراسات نقدية، دار الشروق، عمان، ط1، 1977، ص 95.

وسكوتي يفوق "سحبان" في النطق وترتج من سكوتي المنابر
قد حملت السلاح حزماً وعزماً ولطمت العدو كالليث كاسر
أنا سيف في صوتي ومضائي سوف يطوي على الزمان المكابر[1]

إن التجربة الأدبية منبعها النفس .. وباعثها الانفعال الصادق، فهي استقبال واع للأحداث وهي في أرقى تصورها تتعامل مع أثر الأحداث ومداها، وتنأى عن الرصد المباشر لها .. وهي ترجمة فنية لما يمور في أعماق النفس من أشواق نحو إعادة تشكيل الواقع واستشراف آفاق المستقبل[2].

والعظم في تجربته الشعرية تتحقق ذاته، ويتصور نفسه الجندي المؤمن، في تصوير للجندية الإيجابية ، الجندية الإسلامية، لا الجندية المعاصرة التي وصمت بأفعالها الانهزامية، والخيانية، والسلبية، في حروب فلسطين وغيرها.

تتحقق إيجابية الجندي المسلم في مقطوعة شعرية أخرى بعنوان و"فدائي أبي":

أنا نجم في قبة الجوزاء أنا عنوان عزة وإباء
قد هجرت الفراش غير جزوع ومن الشوك قد اتخذت غذائي
أرقب الفجر في الظلام وأرجو عبقري السنا كريم الضياء
وإذا المسجد الجريح دعاني قلت لبيك يا نداء السماء
قد رويت الثرى بأزكى دمائي وأنا يا إخوتي شهيد فدائي[3]

ولعل ما استنطق الشاعر بهذه المشاعر، إنما هو إيمانه الملتزم بقضايا أمته و بالفداء وسيلة للنهوض.

وقضايا التحرر في العالم العربي واحدة، ترنو نحو الحرية من محيطه إلى خليجه، وقد رصد العظم كل ظواهر التحرر هذه فالجرح النازف في فلسطين تنزف له جراح الجزائر واليمن والخليج، والألم إن اشتد وجد صداه لدى شعوب الأمة كلها، ولهذا وجد العظم نفسه محاطاً بعالم يخوض أقسى المعارك وأشد التجارب، فكيف لا يكون ذلك مبعث تجربة مؤثرة، وإبداع رفيع، ومن ذلك ما قال في ثورة الجزائر ومجدها :

جزائر المجد والإيمان معذرة إن كنت قصرت في شعري وتبياني
فشعبك الحر فوق الشعر موضعه قد شاد صرح المعالي بالدم القاني

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 126.

(2) صابر عبد الدايم: التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995، ص 21.

(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 126.

بـــالأمس ســـطر للـــدنيا بطولتـــه وزلزل البغى والبـــاغي بإيمـــان[1]

واليـــوم يكتـــب للـــدنيا حـــضارته ولا يرتضي غير توحيـــد وقـــرآن

إن الالتزام بقضايا الأمة وتحرر شعوبها من المستعمر الغاصب يبدو عملاً سائداً مميزاً في صفحات أدب المقاومة بشكل خاص.

إنه ليس موقفاً عابراً أو مرحلياً محدوداً تمليه الظروف أو الأحداث العابرة ،بل تقتضيه قضية أساسية، وفكرة جوهرية، وموقف استراتيجي تحكمه أهداف إنسانية قومية كبرى لا يمكن الانحياز عنها أو الخروج من دائرتها.

ومن هنا أدرك العظم معنى المقاومة والفداء ومعنى الجهاد، من خلفية فكرية ومنهجية، تصنع من الحروف قذائف مدوية في شتى الأرجاء وسائر البقاع، فالـــشعب المـــضطهد واحـــد، والعدو العنصري واحد والألم واحد والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله هو هدف واحد، هذا ديـــن يدين به الشاعر ويدعو إليه في طيات قصائده:

ديـــنكم ديـــن عـــزة وإبـــاء فلتكونوا يـــوم اللقـــاء شـــداداً

قمم المجد غايـــة فاقـــصدوها وامتطوا نحوها المعالي جياداً

وأقيموا للنـــاس دولـــة عـــدل وعرينـــاً يـــضمكم آســـادا

وامنحوا العالم المعـــذب أمنـــاً وســـلاماً ورحمـــة ووداداً[2]

هذا التمازج بين المعنى الإنساني وقضايا الأمة يملأ شعر العظم إنسانية إذ تمتـــزج فيه قضايا النضال امتزاجاً كاملاً، حيث يقدم لوحات كاملة للمقاوم العربي المـــسلم وتجاربـــه الجهادية وأهدافه السامية النبيلة فهو المقاوم من أجل حريته وأرضه، بهـــدف الـــدفاع عنهـــا والذود عن حياضها وإقامة دولة العدل التي ما عرف التاريخ لها نظيراً ولا مثيلاً:

لولا رجال تنادوا للعلى قـــدماً ودعوة الحق للميدان تزجيهـــا

تجود بالمال والأرواح هاتفـــة لا يسلب الروح غير الله باريها

وراية الله من في الساح يرفعها ودعوة الحق من في الكون يعليها

غير الأباة نحدوا دونما وجـــل في كل منطلق للزحف تحييها[3]

لقد انتمى العظم شعراً ووجداناً إلى أمته وقضاياها الكبرى وكانـــت تلـــك المـــشاعر تلازمه أينما حل وارتحل، في سعادته وأحزانه، في نومه ويقظته.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 51.

(2) السابق ص 166.

(3) السابق ص 211.

"كلما حملني طائر الترحال وحلقت بي طائرة الاغتراب إلى بلد بعيد، أوحت لي زيارة هنا وزيارة هناك بقصيدة أو دفقة شعرية معبرة تصف بلداً، أو تسبر أغوار نفس إنسانية لترسم لوحات متعددة الأطر مختلفة الألوان، ولكنها تحكي قصة التعلق بمثوى العقيدة، وقدسي الديار، ودفء الأحبة! وأعود إلى بلدي وقد ازداد إيماني بعظمة دين الله وخلود رسالته وإشراقات مستقبله الواعد!"[1].

إن الغربة هي التجربة الأم التي شكلت أججت عاطفة الشاعر وصاغت معانيه وتجدد الإحساس بها واشتداده يبعث الحنين الذي لا تخبو ناره، ويزيد صورة الوطن حضوراً في نفس الشاعر، الأمر الذي يجدد الأمل في انبعاث الماضي حاضراً، الأمل الواعد وخيمة العودة من تيه المنافي لذلك فإن حنين الشاعر لا يتوقف عند رصد مشاعره وتصوير شوقه، ولا ينتهي إلى الشكوى والبكاء البائس، بل إن ذلك كله يشكل دوافع وبوارق أمل نحو العودة التي ينشدها، ليس فقط عودة الشاعر لوطنه بل عودة العزة للأمة وعودة الأمجاد العريقة والوقائع المجيدة.

إن انتماء العظم لأمته تبدى في غير موضع من شعره، انتماء المسلم لأمته، والمخلص لقضاياها، الحامل لهمومها، يحمل في قلبه همها ويبوح به كلما ازدحمت في صدره الذكريات أو تأججت المشاعر والأحاسيس، أو وقع ناظراه على ما يستدعي ذلك.

ويطلق العظم صيحة مدوية على ضفاف الخليج، يقول فيها[2] :

"انطلق زورق يحمل الشاعر على صفحة الخليج وحوله جمع من الشباب المسلم في ندوة فكرية بحرية متحركة .. ودار الحديث يتناول آلام الأمة اليوم، وآلامها في المستقبل" .. وكانت هذه القصيدة خلاصة ما دار من حوار وما التقى عليه الشباب الجاد، من طموح وما يرنون إليه من تطلعات:

أن يعود القرآن في الناس حكماً ... من جديد وشرعة وإماماً
ويقيم الإسلام دولة عدل ... تمنح الكون راحة وسلاماً
كم بنى الظالمون للبغي صرحاً ... من ضلال في غفلة الحق قاما
ودعي يقوم إثر دعي ... وغشوم عن الهدى يتعامى[3]

إن الأماني التي يرنو العظم إليها تعكس مدى انتمائه لأمته ووطنه، ومدى تشوقه لعودة عزتها وكرامتها، واسترداد حقوقها واستعادة مجدها المسلوب، انتماء العظم لأمته جاء التزاماً بعقيدة اعتقدها، وديانة دان بها وسلوك وقول تبدى في أعماله وأشعاره.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 185.

(2) السابق ص 166.

(3) السابق ص 167.

لم يكن العظم منتمياً لقومية ضيقة أو هوية معينة بل كان صاحب انتماء عريض لأمة ظللت أمجادها أراضي الأندلس ومشارف فرنسا وحدود إيطاليا وأقصى جنوب القارة السمراء.

هذه رسالة العظم تجاه أمته، التي حمل همها وحمل اسمها مدافعاً منافحاً عنها في كل ميدان من ميادين الشعر ومنتمياً لها بكل دفقة من دفقات الشعور.

فلسطين والأقصى :

أما فلسطين فهي حب العظم الأول ،والأقصى عشقه الأعظم، فقد بلغ حبه لتلك الربوع والديار مبلغاً لم يبلغه أي حب آخر، فقد عشق الأقصى وجرت محبته في أوردته مجرى الدم في العروق.

فلم تكن تسمية الشاعر "بشاعر الأقصى" لتأتي من قصيدة هنا أو بيت هناك، ولكنها جاءت بعدما ملأ حب فلسطين وأقصاها دواوينه وانتشر في أشعاره انتشار الملح في الطعام.

ولا غرابة أن يعنون الشاعر دواوين كاملة بعناوين تظهر حبه للقدس وفلسطين فقد جعل "رحاب الأقصى" عنواناً لأحد دواوينه.

ويظهر ذلك جلياً في دواوين أخرى ضمت قصائد تسعة عناوينها فضلاً عن مضامينها تنطق بمدى حبه للقدس وصدق انتمائه لفلسطين، بل إن الشاعر يعتبر الحياة من غير القدس ضرباً من المستحيل حين يقول في قصيدته "سيد القرارات":

لست أرضى بغير يافا ديـاراً ... وربـا القـدس قبلـة ومـزاراً
بعد أم القـرى وكعبـة روحـي ... في حماها نلقى الهـدى والوقـارا
ففلـسطين قطعـة مـن فـؤادي ... كيف أرضى مع العدو حـواراً[1]

والعظم وإن كان لا يستطيع العيش بدون القدس فقد أوقف شعره لها، مفسحاً خياله لجمالها حاملاً في قلبه همومها، قاصراً حديث عليها وقصيده عشقاً لترابها:

أنا للقدس خـافقي ووريـدي ... وحياتي ومهجتـي ووجـودي
وعلى القدس قد قصرت حديثي ... وقوافي شعري وبيت قصيدي[2]

إن انتماء العظم للقدس لم يكن دفعة شعور عابرة ،أو زفرة حرى تدفقت من صدره نافرة، بل كان انتماء العقيدة والدين، انتماء المؤمن الصادق، انتماء المجاهد الصنديد الذي أشرب قلبه حباً لعقيدته ، وانتمى بكل صدق لأبناء دينه ولقضايا أمته، فما إن يذكر القدس أو ترد في خاطره إلا وترد ذكريات العزة والمجد التليد من لدن عهود النبوة والخلافة الراشدة إلى أن يخط الشاعر تلك المشاعر والأحاسيس، شعراً يذكر فيه النشء بأمجاده وأيامه.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 301 .

(2) السابق ص 24.

إن انتماء العظم لأمته إنما يجسد رسالة الشاعر وهدفه الذي من أجله أبدع أشعاره، وقصد في قصائده.

ولا يقتصر العظم في شعره على مجرد التغني بالأمجاد ، أو وصف الديار أو البكاء على الأطلال، بل إن العظم يحرص من خلال قصيده على النهوض من تلك الكبوة لتحرير المقدسات، وتخليص الأقصى من أسر المحتل مستلهماً في ذلك البطولات والأمجاد التي صاغتها الأمة منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وجدت ويربط الشاعر أمجاد الأمة من محيطها إلى خليجها بعضها ببعض، فيطوف بشعره على كل معاني العزة وأيام الانتصار التي صاغتها الأمة طوال تاريخ مجيد وماضٍ تليد، مودعاً زمن التخاذل والخنوع مستحضرا أيام العزة والشموخ:

متى تعود إلى الأقصى جحافلنا وقد أضاء حمى الأقصى قناديل
هذي بشائر يوم النصر فعلتها وليس في قولها زيف وتحويل
فالنصر يمسي قريباً حين نقصده والنصر حين يراد النصر مأمول[1]

ولم تكن سائر مدن فلسطين ذات التاريخ العريق والمجد، بعيدة عن إبداع الشاعر أو عن فؤاده، وكذلك شهداءها تلك الديار التي رووا بدمائهم ترابها، ومضوا مدافعين عن مقدساتها وحماها، بل وتعدى ذلك إلى استنهاض همة أبنائهم وأحفادهم حتى يكملوا مسيرة الجهاد ورسالة المقاومة وصولاً إلى النصر والتحرير فقد خاطب العظم القدس والخليل وشهداءها وأبناء شهدائها وبراعمها وأطفالها.

"إلى روح الشهيد محمد حسن أبحيص وإخوانه على درب الشهادة والمجد وإلى أنجاله براعم الأقصى اليوم ورماحه غدا عمر وزياد وحسن وعبد الله أشبالاً ينهلون في رحاب "الأقصى" النور وعشق الشهادة على ثراه الطهور":

يا جبال الخليل يا قمم المجد صنعت الأمجاد جيلاً فجيلاً
مذ عرفناك في صروف الليالي كنت للبر والهدى قنديلاً[2]

وخليل الرحمن هي ثاني حاضرة رتبة في فلسطين والرابعة بين المدن الإسلامية المقدسة بعد مكة والمدينة وبيت المقدس، وهي منارة من منارات العلم التي أمها العلماء والأدباء، وارتادها المتعطش للمعرفة منذ عصر الإسلام الأول كما أنها مركز إشعاع ديني وثقافي وقد أنجبت العديد

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 206 .

(2) السابق ص 209 .

من العلماء والأدباء الذين تركوا بصمات واضحة على الفكر والثقافة الإنسانية عبر العصور[1].

كذلك حلق العظم في ربوع نابلس جبل النار، وجذوة الجهاد التي ما خمدت ولا عرفت التراجع أو النكوص كما كانت أخواتها جنين ، وطولكرم ، وقلقيلية قال: "إلى أبناء جبل النار في نابلس وجنين، وعنبتا وطولكرم وقلقيلية وساحات المجد والآباء حولها ولكل السائرين على طريق الحق والقوة والحرية!.

إلى الذين عرفوا اليهود على حقيقتهم ورفضوا اليهود بفطرتهم منذ فجر التاريخ في أصلاب الرجال وأرحام الأمهات ..

إلى أحفاد القسام وفرحان السعدي وحسن سلامة وعبد القادر الحسيني في مسيرة المجد الظافر والجهاد المبرور!"[2].

جبال نابلس أرسى الهدى فيها ... بيارق النصر تزهو في روابيها

قد غرد الطير حراً في خميلتها ... وصفق الماء عذباً في سواقيها[3]

ومضى الشاعر يحلق في تلك المدن العريقة مذكياً في أبنائها روح المقاومة والفداء ومستنهضاً عزائم رجالها في فلسطين كلها في مضامين تحمل صدق الانتماء وصدق الولاء، فأرسل بالتحية إلى المثلث والجليل، تلك المدن التي يحاول الاحتلال طمس هويتها ومسحها من ذاكرة الأمة بكل الوسائل والسبل، وقد ظن اليهود أنهم أفلحوا في ذلك.

"إلى الذين حسبهم اليهود غير ثابتين على العهد مدبرين عن الجهاد، إلى أبناء فلسطين في المثلث والجليل وصفد والناصرة وحيفا ويافا وعكا وبئر السبع وأم الفحم (أم النور) وجميع المناطق المحتلة عام (48)، وما حولها من مدن وقرى فيها الشامخون على الباطل الرافضون لكل هوان مهما طال الزمان ... إلى الذين يصنعون بضياء القرآن فجر الحرية!"[4].:

حيّوا المثلث والجليل ... والرمح والسيف الصقيل

في كف من صانوا العهود ... وقاوموا ظلم الدخيل

ظن اليهود بأنهم ... سادوا، وهذا مستحيل

وبأن قومي قد تلاشوا ... واستبد بهم ذليل

هم كالجبال شوامخ ... من أرضهم رفضوا الرحيل[5]

---

(1) نبيل خالد أبو علي، مرجع سابق، ص 15.

(2)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 210 .

(4)، (4) السابق ص 212 .

إن هذا التعلق الشديد والانتماء الصادق للأرض المقدسة ليس كلمات أو مجرد أبيات في قصيدة ، بل هى فكر وعقيدة تملكت قلب الشاعر وتغلغلت في فؤاده فأجاب من تساءلوا عن حبه للأرض وتغنيه بها.

"وأحب العقيدة قبل ذلك وأنتمي لها، وهل سمعت بعقيدة بلا أرض ... أو ارض بلا عقيدة؟ أو ما علمت أن نبينا صلى الله عليه وسلم حن لمكة وأحب جيل أحد؟"[1].

ولعل العظم أحد الذين أبدعوا في أشعارهم ثنائية ،الأرض والعقيدة ، بل وكان من روادها والمنظرين لها في أشعاره وأعماله ويصل به الحد إلى إنكار مَنْ لا يعتقد ذلك.

"إن الذين يتحدثون عن العقيدة بلا أرض لا يمكن أن يقيموا لها دولة في الهواء أو كياناً في الفضاء، والذين يتحدثون عن الأرض بلا عقيدة إنما يتحدثون عن تراب وطين لا عن عقيدة ونظام دين .. وكلاهما كما ترى غير منصف ولا سوى فيما يدعو له ويعشق!"[2].

وهذا من صميم شرعة الإسلام ومن محددات الهوية الإسلامية التي عمل محمد صلى الله عليه وسلم على غرسها، وبنائها في نفوس المسلمين أبّان الهجرة من مكة والعودة إليها.

ويضيف العظم : "ألا ترى أن التحام الأرض بالعقيدة وامتزاج العقيدة بالأرض إنما يكونان مستقراً لأمة ومنطلقاً لحضارة وكياناً لوجود إنساني سامق؟"[3].

إن أنشودة الأرض والعقيدة أبدعها العظم وكان من كبار دعاتها مستحضراً سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الراشدين في فتوحهم وغزوهم.

والعظم وهو يحمل لواء المقاومة شعراً ويبدع لحن الجهاد قصيداً تقدم ركب الشعراء وأيقظ فيهم روح التضحية والفداء ، وصدق الانتماء وكان هذا أعظم ما ميز شعره وحذا حذوه كبار شعراء المقاومة.

"هذا الشاعر الذي شاجاه وناجاه، وناوحه وراوحه لفيف من شعراء جيل الصحوة والنهوض؛ تأثراً به وتأسياً.

هذا شاعر الأقصى، الذي كان وما يزال شعره شبابة الخندق، وصوت النفير، وحارب الزحف الكبير"[4].

تغزل؛ ولكن في شفتي رشاشه، وتبتل؛ ولكن في محراب حبيبه الأقصى. هذا الشاعر الذي يجود جفنه مع كل لفظة دمعه، وتوقد معانيه في كل بيت شمعة حباً، وحرباً[5].

---

(1)، (2)، (3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 226 .

(4)، (5) السابق ص 287 .

لقد كان العظم عن جدارة واستحقاق سفيراً لفلسطين في غربتها وناطقاً باسم المعذبين في ديارها ومحارباً شجاعاً يذود عن حياضها ومحباً متيماً في أقصى الأمة ومقدساتها، حتى لقد أطراه الشاعر اليمني "المجيد محمد علي عجلان" بقصيدة له بعنوان "إلى شاعر الأقصى" قال في أبيات منها :

قوة الحق في يراع بيانه ... وبديع القريض من ترجمانه
ومعاني الإيمان كيف تراها ... أحصت كل ذرة من كيانه
شاعر القدس يا لسان فلسطين ... ويا نبض قلبها في امتحانه
شاعر القدس هاك نبض فؤادي ... وتباريحه وفيض حنانه
دمت في موكب الهداية بدراً ... ترشد الركب نحو بر أمانه
وعليكم من السلام سلام ... يا دعاة الورى إلى رضوانه[1]

وهذا الشاعر غازي الجمل نظم قصيدته "شاعر الأقصى" بمناسبة تكريم "شاعر الأقصى" فضيلة الأستاذ (يوسف العظم) في رابطة الأدب الإسلامي العالمية في مكتبها الإقليمي في عمان بالأردن بتاريخ 2001/4/3.

في "واد موسى" أم بواد "العبقرا" ... ذاك الذي ملك البيان مؤثرا
يختال في سوح النضال مجلجلاً ... فوق الحصان يعيد ذكرى "عنترا"
يا "شاعر الأقصى" ونبض فؤاده ... ودموعه اللائي ملأن الأبحرا
فلئن نطقت فباسمه ولأجله ... ولئن سكت ففي أساه مفكرا
كل المشاعر من حماه حملتها ... فغدا بك الأقصى الخطيب الشاعرا[2]

وتلك أوسمة فخار وعزة يُقلدها العظم من زملاءه الشعراء ومكانة عظيمة يتربع على عرشها لا ينازعه فيها شاعر ولا يضارعه، ومحققاً لحقيقة لا مراء فيها أن لشعراء الدعوة الإسلامية ميادين لا يصول فيها غيرهم ولا يجول، وأنهم قد خرجوا من رحم عذابات الأمة وكان ولاؤهم لقضاياها مطلقاً دون تردد جلياً دون غموض، رافعين لواء الدعوة لواء الجهاد والمقاومة مقارعين قوى البطش والطغيان، مستنهضين عزيمة الأمة وهمم رجالاتها. ولعل ذلك عين ما قاله الشاعر د. غالب الشاويش في قصيدة بعنوان "قراءة عروضية على بحر الكامل" :

يا شاعر الأقصى قريضك بلسم ... ولدولة الطغيان مر علقم

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 287 .

(2) السابق ص 404 .

ما زلت للإسلام صرحاً شامخاً تبني عـلاه بهمـة لا تـسأم
هذا قريضك قد أنـار طريقنـا بهدى النبوة نفتدي نـستلهم[1]

ولعل في ما سبق ما يؤكد ويبرهن مدى انتماء العظم لأمته وشغفه بتاريخها الماجـد وماضيها العريق، مما يعزز ولاء العظم وانحيازه لها عن استحقاق وجدارة فأمة الإسلام مـا زال فيها من الخير ما يدعوه وإخوانه الشعراء لاستنهاض العزائم واستجماع القـوى وحـشد الطاقات لتقوم الأمة من كبوتها وتقال من عثرتها، وهذا من صـميم رسـالة العظمـاء مـن الشعراء والذين اقتدى بهم العظم، واقتفى أثرهم وحمل لواءهم أمثال الشاعر الأول في عهـد النبوة العاطرة حسان بن ثابت رضي الله عنه، وتلك مقولة يحققها العظـم فهـو ممـن أدرك الخلف فيهم السلف.

نفحات الإيمان :

العظم شاعر داعية معروف، تضمنت أشعاره الكثير من النفحات الإيمانية والمناجـاة والخشوع لربه في كثير من الأحيان، وذلك ليس غريباً على الإطلاق بل الغريـب ألا نجـده، فالعظم مطمئن النفس مؤمن القلب، رطب لسانه بذكر ربه، يتذلل بين يديه ويشكو همه إليـه، يرجو رحمته ويخاف عذابه، ظهر ذلك جلياً في ديوانه الذي تضمن معنى التوبـة والإنابـة، والاستضاءة بنور اليقين في دجى ظلمات الجهل والمعاصي فعنون ديوانه "قناديل في عتمـة الضحى" قال في تقدمته[2] : "حين يغيب العقل، ويطغى الضلال، وتعم الجهالة، وينتشر وبـاء الفرقة، وتنقلب موازين الحياة، وتمسخ القيم، ويصيب الروح من الكدر والخواء ما يـصيب، يصبح للضحى عتمة أكثر إطباقاً من عتمة الليل وأشد ظلمة، لأن عتمة الليـل فـي الظـاهر حجاب أمام عين البصيرة فلا يرى المحدق في الظلام موضع قدميه ولا درب خطـاه، لكـن مصباحاً يبدد الظلمة وشمعة تطاردها ونجماً من بعيد يلمع تحس أنه يقودك في مسراك إلى ما تبغي ويرتعش علامة ترشدك إلى الطريق!".

وقد أضفى يوسف برقة إحساسه وسمو روحه على تلك القصائد لسمة إيمانية وجمالاً وبهاءا نابعين من صفاء نفس عامرة بالإيمان، نفس نشأت على حب القرآن وتشربت آياتـه، فقد تغلغلت في جنبات نفسه مشاعر التقوى والتبتل والإنابة إلى ربه عز وجل.

---

(1) السابق ص 405 .

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 160.

برز ذلك بشكل واضح كبير في غير قصيدة من قصائده كان على رأسها قصيدته بعنوان "ضراعة مؤمل وحسرات محزون" التي كتبها عام 1984 قدم لها بقوله قبل أن ينقل الشاعر إلى غرفة العمليات لإجراء جراحة حول إحدى كليتيه كانت هذه القصيدة[1] :

تلفت حولي أسأل الله رحمة لعل إله العرش بالعبد يلطف
فجاء طبيب مشرق الوجه باسم يروم علاج الجسم بالطب يعرف
فأدركت أن الله لبى ضراعتي لعلي من بحر العنايات أغرف[2]

وضراعات الشاعر ليس كلمات جوفاء أو ترانيم جوفاء ، لا بل إنها زفرات قلب خاشع ضارع وأمنيات عظيمة من فؤاد مرهف تتجلى فيه سمات المؤمن الصادق ذي النفس الأوابة.

تتجلى مشاعر الخضوع والخشوع لله عز وجل في قصيدة "لبيك" التي نظمها أثناء فريضة الحج وقال فيها[3] :

لبيك رب البرايا في الكون كوخاً وقصراً
لبيك نبض فؤادي لبيك سراً وجهراً
لبيك روحاً تسامى لبيك عقلاً وفكراً
لبيك فيض براعي لبيك شعراً ونثراً

والشاعر صاحب عقيدة إيمانية راسخة، فهومتمسك بشعائر دينه وتعظيمه إياها ظاهر ملموس، فلا تكاد قصيدة تخلو من تذكير بالله تعالى وحضور لمبادئ الدعوة وأسسها، فهو مؤمن موحد، يتقرب إلى ربه بكل أعماله في حركاته وسكناته في صحته ومرضه في سعادته وحزنه.

والشاعر تواب أواب متلهف القلب والفؤاد كله رجاء أن يتقبل الله توبته ويستجيب دعوته.

إن العتمة التي يحاربها العظم ليست العتمة المادية، عتمة الليل أو ظلمته التي تحل مع المساء، تلك عتمة تزول بأبسط مصابيح الكهرباء أو الزيت لكنها عتمة أبشع وأحلك.

"أما عتمة الضحى فهي في الأعماق أبشع ظلمة وأشد عمى، حيث لا تنفع معها كل مصابيح الكون ولا شموع العالم ولا شمس الضحى التي تملأ أرجاء الأرض نوراً .. ذلك أن

---

(1) السابق ص 155.
(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 160.
(3) السابق ص 164.

عتمة الضحى ظلام في القلب وعمى في البصيرة .. ومن هنا فإن الكلمة المضيئة وحدها هي التي تنضب معلماً مشعاً في جنبات الطريق تقود الحائرين وتبصر الضائعين من أين يسلكون وأين يتوجهون لأنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"[1].

تتناغم في أشعار العظم حاجة النفس البشرية للتعبير وميولها العاطفية والنفسية دون تناسٍ لقضايا الأمة والمجتمع، فلا تنطوي على ذاتها ولا تتكفي على فكرها بل تمتزج العاطفة بالفكرة وتتكون لدى الشاعر علاقة بين الشعر وحياته ومجتمعه تناغم الشريعة الغراء التي يعتنق.

وهذه أسمى وظائف الشعر في خلق عوالم مغايرة للواقع بوصفه حالة إبداعية تعكس الصورة المبتغاة للمجتمع، فشعر العظم ينزع إلى تجسيد العاطفة وإذكاء المشاعر، دون غلو أو شطط، فلا يقحم تجربته في شعاب الفكر، بحيث تخبو العاطفة، ويعلو صوت الذهن، وإيقاع الفكر، وشاعريته لم تبتعد كثيراً عن آفاق التجربة التأملية الإيمانية، ولكن التأمل في شعره ممتزج بالعواطف الحارة والمشاعر الإنسانية الدافئة فلا يلقيه التأمل بعيداً عن ظلال الرؤية الإسلامية الصحيحة:

أضأت شعري قنديلاً لأفراحي ... وقد أنرت بنور الله مصباحي
ورحت أترع كأسي من محبته ... حتى صفت بصفاء الحب أفراحي
فهامت النفس نشوى في تألقها ... وبين جنبي قلب بالهدى صاحي
قلب جريح لما قد حل من محن ... تزيد من ثقل الأعباء في ساحي
وما قصدت سوى الرحمن في طلبي ... وما ابتغيت سوى برد إصلاح
هذي جراحي وأفراحي أقدمها ... شعراً لتبشر بعد الليل إصباحي[2]

والشاعر على صلة بالحقائق النفسية والكونية التي تلهمه في تجربته، ولكل تجربة شعرية عناصر مختلفة فكرية وخيالية وعاطفية، والتجربة الشعرية إفضاء بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته، ويتطلب هذا تركيز قواه في تجربته، فليس ضرورياً أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه بل يكفي أن يكون قد لاحظها وعرف بفكره عناصرها وآمن بها[3].

وما تداول العظم شعارات جوفاء ولا ألقى خطابات وعمياء، بل جاء بنظرة خاصة عميقة ورؤية واضحة دقيقة عن تجربة خاصة خاضها ونظرة غايتها الإنسان العربي المسلم والإنسان في أية بقعة من بقاع العلم مؤداها الوحدة الإسلامية الجامعة والتمسك بالعقيدة الصالحة.

---

(1) السابق ص 155.

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 157.

(3) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ص 384-385.

وتتجلى مشاعر الخضوع والاستسلام لله رب العالمين في قصيدة "لبيك" وهو يلبي أثناء أداء فريضة الحج، و قد قال فيها[1] :

لبيك رب البرايا ... في الكون كوخاً وقصراً
لبيك نبض فؤادي ... لبيك سراً وجهراً
لبيك روحاً تسامى ... لبيك عقلاً وفكراً
لبيك فيض يراعي ... لبيك شعراً ونثراً

كانت مشاعر العظم جياشة أينما حل وارتحل ، مشاعر دفاقة نحو ربه ووطنه ودينه، وقد اختار لديوانه "قبل الرحيل" إيماناً منه بحتمية الرحيل عن دنيا الناس نحو رب السموات والأرض، يقول في تقدمته :

"والله أسأل أن تجيء كل قصيدة أو مقطوعة منه قربى إلى الله، يغفر لي بها زلة، أو يحط بها خطيئة، فإن جاءت لغواً من الكلام فالله وحده يغفر الذنب ويقبل التوب، وهو أرحم الراحمين"[2].

إن العظم في كلماته البسيطة هذه يلخص رسالة الشاعر المسلم وشاعر الدعوة ويضمن كلماته تجربة الدعوة إلى الله التي عاش من أجلها ومن أجلها كتب أشعاره أرى في ذلك أعظم الدلائل على شاعرية العظم.

إن رسالة الشعر عنده أسمى من مجرد كلمات أو فن . وأعظم عنده من مجرد قافية وأوزان أو أغانٍ وألحان، العظم يحقق رسالة الشعر ويحمل الشعر شرف التقرب إلى الله به ليكون كلمة طيبة ورسالة عظيمة وقربى إلى الله، وهو في ذلك ليس كسائر الشعراء أو الكتاب.

شموخ وعزة :

تتبدى في كلمات العظم وأشعاره ملامح عزة المؤمن الواثق بربه، الفخور بدينه وعقيدته، المتمسك بتعاليم شريعته، فما كان مداحاً متكسباً بشعره ولا مبتغياً العزة إلا عند ربه وما نشد الرفعة إلا من انتماء صادق لدينه ووطنه وعريق تاريخه.

مدح العظم الشهيد وأكبر الشهداء، وما دان بشعره لأحد ولا وقف به على أعتاب الأمراء ولا نشد مرضاة الحكام ولا العظماء، رفض العظم في إباء المؤمن كل لعاعات الدنيا وزخرفها، وكل أشكال الخنوع والخضوع لعدو أوزعيم يكتب منطلقا مما يدين به وما يعتنقه فؤاده، بعيداً عن كل لفظة من ألفاظ الخضوع أو الخنوع أو الرياء أو النفاق، كان ذلك في حياة

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 164.

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 289.

العظم منهاجاً ينتهجه وفكرا ينشره ودستور حياة لشاعر الأقصى، بل وأكثر من ذلك بكثير فقد صدح العظم وأعلى صوته بذلك دون مراء أو رياء، صدح بالحق الذي يختلج به فؤاده ويملأ أركان نفسه.

كانت عزة العظم وشموخه نابعين من إسلامه العظيم مستمداً ذلك من تاريخ عريق مجيد استحضره العظم في غير موضع من أشعاره ، داعياً إلى إعادة أمجاد الأمة وإقامة دولة العدل التي ما شهد العالم لها نظيراً ولا عرف لها مثيلاً.

ولعل تلك المعاني السامية قد تجلت في قصائد عديدة وأبيات فريدة خطها العظم في دواوينه.

رفع السيف فوق رأسي جبان ... ورماني بحزبه الشيطان
فتحديت كل من رام ذلي ... وعدوي في الحادثات هوان
همتي همة الرجال ودرعي ... كلما داهم الهوى قرآن[1]

ويستحضر العظم في معركته مع الباطل وأزلامه أستاذه الذي حمل لواء الشعر في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم:

يا دعاة الفجور يا عصبة الشر ... تصدى لمثلكم" حسان"
ولئن عشت في الحياة طويلاً ... فالقوافي في فضحكم ديوان
فاجرعوا الذل والصغار وبوءوا ... بهوان وحظكم خسران[2]

وما فتئ العظم يخوض غمار الصراع الأزلي بين الحق والباطل ، متسلحاً فيه بسلاح اليقين ، متدرعاً بدرع الإيمان ويعمر فؤاده آي من القرآن فيشهر سيوف الإيمان في وجه جحافل الطغيان وأعوان الطغيان، وما زال يجأر ويسبق اللسان منه السنان مقدماً التحية والتعظيم لكل من امتشق سيوف الحق في وجه الطغيان:

حي الجهاد سيوفاً للعلى امتشقت ... وحي أسد الشرى في غابهم نفروا
فوق السحاب تساموا دونما خور ... وفي رحاب جهاد صادق صبروا
روح النبي تباهت في مسيرتهم ... يحدوهم الحق والأمجاد والظفر
قد قام بينهم الصديق رمز تقي ... وسدد العدل في ساحاتهم عمر
ورايةُ الحق في كف الإمام علت ... والبر والجود من عثمان ينهمر
وخالد في سبيل الله سيف هدى ... ومصعب في رحاب الحق مؤتزر
وجعفر بجناح النور منطلقاً ... يختال في جنة تزهو بها الحجر[3]

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 358.

(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 416.

هذا ركب المؤمنين الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه يحدوه حداء النصر ويلفه عبير التاريخ الأمجد ،والسيرة النبوية العاطره ، عبق تاريخها يملأ الفضاء بروائح النصر وروائع الفتوحات، وكأن العظم يعيش ذاك الزمان أو يسير ذاك المسير.

هذا الينبوع العذب والمنهل الدفاق ، ميرة العظم في أتون الصراع الأزلي" وأن الشاعر هو يرصد حركة واقعة ويصور تضحية أفراده لا يعزل الشخصية الإنسانية عن جذرها الاجتماعي، لا من أجل ميل عن الحق والحقيقة فحسب، بل من أجل أن تصبح تجربته الفنية أكثر نضجاً وثراء، حين تبصر الواقع في كماله واللحظة في شمولها والتجربة بجميع علاقاتها، إذ لا ريب في أن عمق الفكر وجودة المضمون يفيضان بالضرورة إلى ثراء الخيال الفني وروعة التشكيل الجمالي"[1] .يقول العظم :

متى نعود إلى الرايات مشرعة ... يقود جمع الهدى في زحفهم نفر
سلاحهم من سيوف المجد أكرامها ... وشعلة النور ما تزهو به الفكر
فالنصر يسعى لمن يسعى لساحته ... ومن يعاف العلى أولى به الحفر
من بايعوا الله فالفردوس موئلهم ... ومن تنادوا لغير الله قد خسروا[2]

إن العود الظافر حلم العظم ومبتغاه ، الذي ما فتئ يسعى من أجله ويكتب، والأمل في الله تعالى يحدوه في مسيرة ذاك دونما خور أو ملل فما زال العظم داعياً إلى إحياء تلك الذكريات في نفوس النشء والجيل، داعياً إياهم التزام الجادة والصواب فذاك السبيل نحو العزة المنشودة والآمال المعقودة:

دينكم دين عزة وإباء ... فلتكونوا يوم اللقاء شداداً
قمم المجد غاية فاقصدوها ... وامتطوا نحوها المعالي جياداً
وأقيموا للناس دولة عدل ... وعرينا يضمكم آساداً
وامنحوا العالم المعذب أمناً ... وسلاماً ورحمة ووداداً[3]

إن العظم يعلم مقاصد الشريعة الغراء فيدعو إلى اتباعها لإقامة دولة العدل والتي تتسع لكل البشرية مسلمين وغير مسلمين تحقيقاً لقوله تعالى : "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**" (سبأ : 28)، فدولة أساسها العدل ومقصدها إسعادالبشرية وهدايتها إلى طريق الحق والخير والنور حقيق بالعظم أن يفخر بها ويعتز بالانتماء إليها.

---

(1) طه وادي : جماليات القصيدة المعاصرة، دار المعارف، ص 42.

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 417 .

(3) السابق ص 166 .

اللغة الشعرية والمعنى الإسلامي

الشعر ترجمان الأحاسيس، واللغة وسيلته إلى ذلك! فهي الركيزة الأولى لدى الشاعر لإقامة بنائه الشعري، والشاعر القدير هو الذي يسعى من خلال سعة ثقافته وحذاقة رؤيته لإيجاد علاقات حيوية بين مفرداته وألفاظه، مقيماً بينها روابط وثيقة يستطيع من خلالها أن يتجاوز إلى أعماق الملتقى، محاولاً الوصول إلى بناء لغوي تتكامل فيه اللغة الشعرية والصور الفنية مع التجربة الانفعالية الوجدانية، فيتحقق الهدف الأسمى من ذلك البناء، والعظم شاعر المقاومة، وقيثارة الأقصى يختار من اللغة ما يخدم فكرته ويشحنها بالإيحاءات والإيماءات مما يفهمه الناس ولا يجهلونه، فيترجم صفوة معارفهم من زوايا مختلفة تدهشهم وتثير إحساسات جمالية لا تنتهي، ولبنات هذا البناء الموضوعي الألفاظ، والتي توحي لما وراء المعاني فتضيف إليها أبعاداً لا تنتهي، تتجدد به الألفاظ وتقدم صورة إنسانية وفنية غرضها إماطة الإشكالية التي تدفن كل الحقوق وما تلعبه من دور سلبي يتنافى وحضارة الإنسان التي ينبغي لها الاستمرار نحو الصعود.

والعظم في لغته تبدو الشفافية معتمدة على الوضوح والواقعية، في مختلف دواوينه حتى كأنه اختص بها، لغته تنطلق من الواقع ومن وعي الشاعر بأدواته الفنية.

والنظر في التجربة الشعورية وفهم الحالة الذهنية لقصيدة ما، يتطلب القدرة على الانغماس في العالم النفسي للشاعر واستحضار حالته النفسية من خلال كتابته لهذه القصيدة، وفهم الحالة الذهنية تعني القدرة على استعادة الجو الشعوري ومعايشته من جديد، ولا يتم ذلك إلا إذا استطاع الناقد أن يمعن النظر في الظروف والوقائع التي أدت إلى ولادة القصيدة وبدون ذلك قد ننزع القصيدة عن سياقها النفسي وتبقى تراكماً لغوياً وشكلاً دون معنى، وتفقد الحس الشعري، ففي قصيدة إيمانية فيها تضرع ودعاء يقول العظم :

رباه ضاع حصار العمر واحزني ... وبيدري بات نهباً للورى دوني
ماذا أقول إذا أفردت في حدث ... وضمني اللحد والأكفان تطريني
رباه جودك جود ليس يعدله ... جود، إلهي متى بالعفو تجريني
مالي سوى الله بالرضوان يسعدني ... ورحمة منه في الجنات تؤويني
وجد إلهي بالنور الذي سعدت ... به البرايا لعل النور يهديني[1]

نحا العظم إلى الألفاظ السهلة الشائعة بين العامة، مع عدم إهدار صحة اللغة واستقامتها كشرط أساسي للإبداع الشعري، مبتعداً عن الكلمات المعجمية أو الوعرة؛ ولعل القصد من التخلي عن استخدام هذا النوع من الكلمات هو التعبير عن المألوف بكلمات مألوفة

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 138 .

مستقاة من واقع الحياة ، وهذا يعني تناول اللغة الكائنة تناولاً جديداً يرغمها على التفاعل مع المعنى الذي يعبر عن رؤيا الشاعر وتجربته، "أما الكلمات الفخمة الرنانة التي يراد منها إثارة الاحتدام العاطفي والحنين التقليدي وذلك رغبة في الاستعراض والتباهي فقد حاول أن يتجنبها ، فاللغة بسيطة مؤثرة في كل المستويات، وقد أتاح التعبير عن التجربة ببساطة وعفوية، وجوداً مميزاً للمفردات الدارجة أو الواقعية على أساس مبدأ ينطلق من أن لغة الناس يجب أن تكون لغة الشاعر، ويظل العظم من شعراء البيان القريب والمعنى السهل، والبديع المؤثر، واللفظ المدرك المفهوم، يخاطب بمقتضى الحال كما قالت العرب، وبذلك جاءت ألفاظه وتراكيبه على قدر كبير من الوضوح والسهولة مع الاحتفاظ بصفات اللفظية الشعرية والتركيب الشعري والمحافظة على سلامة اللفظ من العامية والابتذال،" فاللغة أداة الفن الشعري ووسيلة إبرازه، واللغة تمثل دوراً رئيساً في نقل التجربة الشعورية الإنسانية وتوصيلها، وبقدر ما يملك الشاعر من حاسة لغوية دقيقة تجعله يقف على الألفاظ الموحية المناسبة لعمله الشعري، يكون بإمكانه خلق الجو الإيماني، معبراً عن التجربة الشعورية بلغة شعرية تجعل المتلقي يعيش المعادلة الشعرية نفسها التي كابدها الشاعر أثناء عملية الإبداع الفني"[1].

والعظم خبير بلغته وحدودها، وأصولها وقواعدها بشكل لا يمكن إغفاله، ولديه قدرة على التعبير بصورته المتوارثة والمتبعة في الأدب العربي، وأساليبه الراسخة في الأذهان. فلم يكن العظم صاحب نتاج شعري خارج عن أصول الشعر المعروف وقد شكل شعره عالماً خاصاً به وبأدواته الفنية، فالتزم العظم أساليب الأقدمين في إطار معاصر أبقاه في مقدمة الشعراء رغم أصوات الحداثة على صعيد العالم العربي والتي تريد تجاوز التراث بدعوى اللحاق بالجديد.

إن قواعد اللغة وأصولها، والأساليب الشعرية المتوارثة هما اللذان يمنحان الأصالة للشاعر وموهبته الإبداعية، فالشاعر الأصيل الموهوب عارف لقواعد لغته، وأصولها، ولأساليبها الشعرية المتأثرة بهذه اللغة والمتوارثة في تاريخها الأدبي، "فالمحور الأساسي في العمل الإبداعي هو الشكل اللغوي الذي أخذه، وذلك لأن الأدب تشكيل لغوي في نهاية الأمر؛ ولهذا ينبغي أن يكون المدخل إلى فهمه وتحليله وتقديره لغوياً"[2].

---

(1) منيف موسى : نظرية الشعر عند الشعراء في الأدب العربي الحديث، دراسة مقارنة، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1984، ص 245.

(2) محمود الربيعي : قراءة الشعر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1997، ص 121. .

ولعل التزام العظم المحافظة على حدود لغته وقواعدها وأصولها وأساليبها الشعرية جاء من إدراكه لرسالته الشعرية وكنه عصره الذي يعيش فيه ورغم تعدد المذاهب والمدارس الشعرية يظل التزامه حاضراً ومؤثراً في الساحة الأدبية.

إن اللغة ليست قالباً للأفكار بقدر ما هي تعبير عن رؤية مستعملها ومن هنا يتبلور إدراك العظم لأهمية العودة إلى فصاحة اللفظ وشرف المعنى.

والعظم متمسك بالأصالة، ويعد واحداً من الشعراء القدماء المتمسكين بناصية الشعر العمودي بأوزانه وقافيته. وهذا واضح في سيطرة الأساليب القديمة على الأبيات بدءاً بالخطابية الواضحة، ثم التكرار واستخدام الشاعر للمفردات القديمة، فالشعر هو الكلام الذي تذعن له النفس وتنفعل له انفعالاً نفسياً غير فكري، سواء أكان الكلام أو القول مصدقاً به أو غير مصدق به؛ فإن كونه مصدق به، غير كونه مخيلاً، فإن المتلقي قد يصدق بقول من الأقوال ولكن لا ينفعل له، فإن قيل مرة أخرى وعلى هيئة أخرى فكثيراً مما يحدث الانفعال ولا يحدث تصديقاً[1].

ويتميز اتجاه العظم بغلبة الطابع التقليدي على أشعاره وتراكيبه ومعجمه اللغوي وأبنيته الأسلوبية، فهولا يختلف كثيراً عن غيره من شعراء المقاومة العرب في تناولهم للموضوعات الشعرية التقليدية، والمحافظة على شكل القصيدة العربية الموروثة، حيث يتناول الموضوعات المعروفة والمتداولة وعلى الرغم من وجود بعض الصيغ التقليدية" فإن عبارات الشاعر الشعرية تتسم بيسر العبارة وسلامة البناء، وتنوع الإيقاع، وائتلاف اللفظ والمعنى، فيكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً، فقال : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر[2].

بقي العظم ملتزماً بالإطار العام للقصيدة العربية القديمة ولعله حقق قول المرزوقي في مقدمة شرحه لديوان الحماسة، حيث يرى في عمود الشعر سبع خصال، من لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم، والمحسن المقدم، وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه عند العرب، والخصال السبع هي : شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ويستشهد بقول عمر بن الخطاب في زهير – وكان يراه أفضل الشعراء – كان لا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجل، والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار للمستعارين، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما[3].

---

(1) إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي، ط3، 1981، ص 416، 417.

(2) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب العامة، لبنان، بيروت، د.ت، ص 153.

(3) المرزوقي : أبو علي أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، ط1951، ص 7، 8، 9.

المُعجم الشعري

الكلمات لبنات الشعر، والشاعر مهندسها، تتبدى براعته بمقدار حسن بنائه وروعته تصاميمه ، ومقدار تماسكها وجمال زينتها بستوى براعته تكون شاعريته وبها يحكم له أو عليه ومن هنا كان للمعجم الشعري ما كان من الأهمية والضرورة والحضور.

وإن كان البلاغيون والنقاد قد خصوا الشعر بمعاجم معينة[1] فقد خُص كذلك كل خطاب شعري بمعجم خاص، فقد جعلوا للشعر الصوفي معجمه، وللمديح معجمه وكذلك الخمريات وغيرها ، وهذا ما أنكره د. محمد مفتاح حيث يقول :

"ليس هناك معجم شعري وحيد في كل زمان ومكان ضمن لغة ما، وإنما هناك معجم شعري متطور محكوم بشروط ذاتية وموضوعية، فالشاعر الواحد نفسه يكون له معاجم بحسب المقام والمقال"[2].

ويرى الباحث أن المعاجم المفترضة قد لا تتأتى لغالب الشعراء، وإن حدث فإنها تتجذب إلى معجم واحد يشكل بنية صلبة تتجاذب نحوها مختلف المعاجم حال وجودها.

يقول د. محمد مصباح[3] :

ولا تتخذ الألفاظ بخفائها وجلائها معياراً يميز معجم الشاعر، وإنما يميز معجمه براعته في استفزاز إمكانات اللغة التركيبية والدلالية، فالمعجم والتركيب غير منفصلين وعلاقتهما تكوينية ضامنة لاشتغال اللغة.

كما ويرى الباحث أن لبعض الألفاظ خواص شعرية تميزها عن غيرها وهذا ما يتصوره الباحث للمعجم اللغوي،" والخواص الشعرية التي تمكن الألفاظ من التفرد والتميز عن غيرها من المفردات تنطلق من قاعدة التشعير للكلمات"[4].

وهذه القاعدة تحدد ملامح المفردات التي يختارها الشاعر والفضاء الذي تدور فيه وحوله، وكذلك تحديد كيفية التصميم للبنية اللغوية الشعرية داخل الخطاب الشعري[5] وهذا التصميم يستنفر كل فنيات الاختيار والتأليف للخطاب الشعري.

---

(1) بسام الساعي : حركة الشعر الحديث من خلال أعلام في سورية، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1978، ص 222.

(2) محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري "استراتيجية التناص"، ط1، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 1985، ص 62.

(3) السابق، ص 62.

(4) صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد ا لأدبي، ط1، مؤسسة مختار للتوزيع والنشر، 1992، ص 399.

(5) محمد الأسعد : مقالة في اللغة الشعرية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998، ص 80.

ومن خلال دراسة الباحث لمعجم العظم الشعري ظهر أن الشاعر لا يهتم بألفاظ دون أخرى وإنما يقوم بعملية التشعير وملابساتها لكل ألفاظه المستخدمة في خطابه الشعري، بيد أن هناك بعض الألفاظ تأخذ تشعيراً لامعاً، من خلال انتشارها وتكرارها الواضح في سطوح خطابه الشعري، وهذا حسبما أرى لا يتأتى بمحض الصدفة أو النضوب اللغوي، وإنما يجيء كون هذه الألفاظ تشغل هامشاً في لا وعي الشاعر، تشحنها لحظات الوعي التي تحملها عندما يقول الشعر، وهو لا وعي يلازمه وعي يصنع هذا الخطاب الشعري عند كل شاعر.

ومن خلال تأمل الباحث لخطاب العظم وتمحيصه إ، وجد أن هناك بعض المفردات قد ظهرت لامعة أكثر من غيرها، وهو لمعان له رصيده في لا وعي الشاعر ووعيه، اكسبها تشعيراً مفصحاً عن مكنوناتها في كل موضع حسب السياق.

ومن أمثلة ذلك كلمة (القدس) والتي ترددت في ديوانه قرابة مائتي(200) مرة ولعل تكرار ذكر القدس يدل أول ما يدل عليه على مكانة القدس ومكانتها التي تبوأته في نفس العظم.

وفي ذكر القدس مضامين عظيمة قصدها العظم، فمن استنهاض للعزائم، إلى استشراف للتاريخ العريق للأمة إلى ما تثير القدس من أشجان في صدر الشاعر، فالقدس لا تعني تلك المباني القديمة أو الأزقة المشيدة من الصخور، بل القدس تعني الإسراء والمعراج، وعمر الفاروق، والفاتح صلاح الدين، تلك المشاعر والمعاني حملتها القدس وحملها العظم في حله وترحاله كلما ألهب قلبه عبير الذكريات.

وتجلت في المرتبة الثانية كلمتي "الجهاد والاستشهاد" وقد كنى الشاعر نفسه بإحاهما قصدا. فسمي "أبا جهاد" ولعل العظم قد وصل إلى استنتاج جلي واضح وهو أن الأمة لا خلاص لها إلا بالجهاد، بل وأن الأمة عندما تنكبت طريق الجهاد حل بها ما حل من الذلة والصغار.

إن كلمة الجهاد ترددت كدعوة للخلاص، وسبيل لعودة العزة، وأنكر في الوقت ذاته مَنْ هرولوا نحو الحل السلمي ولجأوا لمجلس الأمن وتركوا الجهاد أو لاحقوا المجاهدين أو اعتقلوهم.

أما "الشهادة" فقد كانت قرينة الجهاد فهي نهاية طريقه، ومبتغى سالكه تحدث عنها العظم بقاموس العزة والشموخ مبيناً و مادحاً تلك النهاية المشرقة للشهيد وللشهداء.

والجهاد سبيل الأمة نحو مجدها وعزتها التي ضاعت وكرامتها التي داسها العدو، فلا سبيل للأمة إلا بالجهاد للذود عن كرامتها منا الدفاع عن مقدساتها.

وقد تملكت هذه الكلمات فؤاد الشاعر وشغلت فكره فما ترك من فرصة إلا وقد تحدث عن الجهاد والاستشهاد والمقاومة والفداء.

ولعل ما يكشفه تكرار لهذه الألفاظ في قصائده عميق إيمانه بأن الجهاد والشهادة لهما مكانة عظيمة في إحياء الأمة ورد كرامتها وأنهما الوسيلة إلى ذلك في ظل غياب قادة وزعماء يعيدون كرامة الأمة وسيادتها، ولعل التكرار يعكس إيمان العظم بنجاعة هذين المبدأين العظيمين، وأهمية دورها في حياة الأمم و خاصة عصر صدر الإسلام وما بعده.

لقد قصر العظم على مديح الشهداء أشعاره، وتغنى بالشهيد ودماه وبالجهاد ورجاله، وبالمقاومة ورموزها، بلغة عالية رفيعة تناسب مقام هؤلاء في نفسه وتكشف عن مكنونات صدره تجاههم.

وقد زخر شعر العظم بألفاظ ومفردات شغلت حيزاً لا يستهان به في سطوح شعره، منها الجرح والدماء والمفردات ذات العلاقة والتي شغلت حيزاً من أشعاره.

إن جرح الشاعر النازف، وكلوم قلبه الدامية، دفعت العظم لتكرار كلمات (الدم، الجرح، الكلوم) فكان الدم عامل توحيد ووحدة بين أبناء الأمة، تلك الوحدة التي وقفت تحول بينها الحدود والسدود والأنظمة البالية التي أفزعها العظم بأشد الألفاظ، بل وكانت الدماء في أشعاره وسيلة الربط بين ماضي الأمة وحاضرها، ودماء الشهداء في عصر العظم اتحدت مع دماء الشهداء في العصور الماضية:

فشرحبيل في دماه تلظى ومعاذ ما زال يرعى مقامه[1]

والتقت بعصور الصحابة والتابعين والفاتحين في كل عصر وحين، بل وكان الجرح السمة المشتركة بين الشهداء وبين المقدسات.

أيها المسجد الجريح سلام لك عهد على المدى لن نخونه
أن تسيل الدماء حتى تروى صخرة القدس والقباب الحزينة[2]

فالأقصى جريح وجرحه راعف نازف، تلك الدماء النازفة الزكية مشاعل الحرية وصوتها المجلجل مع صوت الأذان الذي تردد جريحاً هو الآخر، مثل الجرح في شعر العظم سمة واضحة اشترك فيها الإنسان مع المقدسات مع صوت الأذان ليمثل ذاك التناغم والتواصل بين الإنسان الفلسطيني الجريح والأقصى الجريح والأذان الجريح والشاعر

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 19 .

(2) السابق ص 29 .

الجريح. وأكثر من ذلك فقد مثّل الدم القاني الذي تدفق غزيراً من جروح الشهداء منادياً بالثأر مرة ومعطراً الأرض بالمسك أخرى:

فإن مت فاحملوني شهيداً وضعوني في أطهر الأكفان

في ثياب قد ضمختها دمائي بأريج أزكى من الريحان[1]

والدماء تفوح بعبير تستطيبه الأرض والإنسان في تمتزج لاأراه يخلو من معاني رفيعة و مضامين موحية:

من دماء الشهيد فاحت عبيراً نضختها الرمال أزكى جراح

شكلت الدماء بعد الجهاد والاستشهاد وسيلة التخاطب بين أجيال الأمة المتعاقبة، ووسائل عزة يتداولها النشء فيما بينهم وبين أسلافهم:

إنما الحرب عدة وجهاد لا خطاب منمق تلقونه

أين سعد وخاله والمثنى كلهم بالدماء ينصر دينه[2]

ولعل تكرار العظم سيرة الجهاد والشهادة، تفرضه حالة التردي وحالة التغول التي تمارسها دولة البغي على الشعب الفلسطيني الأعزل.

وقد ترددت في شعر العظم الكثير من المفردات شغلت حيزاً لا يستهان به في سطوح الخطاب الشعري عنده، فالطبيعة كانت حاضرة في شعره، بشقيها الصامت والمتحرك، ومن أمثلة مفرداته الصامتة ، ترابها، الربى، واد، ذرى، سفح، الأنجم، الجمر، الشمس، النجوم، سماء، الجبال، سفوحك الخضر، تربك ، أفرع الزيتون. ومن أمثلة مفرداته عن الطبيعية المتحركة: النهر، النار، النيران، البراكين، سحاب، فضاء، الكون، الشمس، النجم، إعصاره، نسماته، الرعد، البرق، السحب، النهر[3].

ومن النباتات : الزيتون، التين، الزهر، الورد، النخل ، أغصان، العطر، الشذى، الأزهار، الأشواك، الحقل، الغاب، ثمراته، الزنابق، البنفسج، الياسمين.

وهذه الألفاظ الجميلة المئات غيرها التي امتلأ بها شعر العظم تطفو على سطوح أشعاره، ويظهر مجموعها غلبة التفاؤل والأمل على أحاسيس الشاعر كما أنها تعمق موقفه وتعزز تجربته[4].

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 25 .

(2) السابق ص 29 .

(3) السابق ص 27، 33، 37، 43، 56، 57 .

(4) السابق ص 32، 34، 47، 53، 54، 55، 56، 57، 387، 398.

تجدر الإشارة إلى أن هناك مستويين من مستويات الدلالة الرمزية لمفردات الشاعر، أولهما : يتصل بكثرة الرموز المستمدة من الكون والطبيعة، وكثرة ورودهما في شعره، كما أشرت سابقاً وذلك يوثق الارتباط بالبعد النفسي لتجربة العظم الشعرية أكسب تجربته عمقها وكثافتها، وأكسب شعره إيمانية بعيدة الصدى، كما تبدى ذلك واضحاً في عناوين قصائده، والتي برزت فيها المقاومة ومفرداتها في براعة فائقة وتبشير نفسي بمضمون القصائد، مثال: "شهيد الكرامة، في ذكرى الشهيد، رمز الجهاد والاستشهاد، غاية الأبطال إحدى الحسنيين، صفحة خلود"، كما عنون ديوانه هذا بعنوان "في رحاب الأقصى وكان أول دواوينه" مما يكثف تجربة الشاعر بشكل عام، تشي بمكانة القدس وتربعها على عرش قلبه وأخذها الحيز الأكبر في حياته، ثم الإيحاء بأن طريق القدس والتحرير هو الجهاد واستشهاد طريق البطولة وإحدى الحسنيين.

فإن مت فاحملوني شهيداً ... وضعوني في أطهر الأكفان
في ثياب قد ضمختها دمائي ... بأريج أزكى من الريحان
لا تعزوا الأهل الأحبة بعدي ... أو تواسوا الصغار بالسلوان
فلقد فزت بالحياة خلوداً ... وعبيراً يفوح ملء جنان[1]

وكذلك على نقيض المقاومة والجهاد هاجم العظم طريق السلام الهزيل والمفاوضات العابثة فعنون لأحداها بـ "السلام الهزيل".

والعظم يهاجم أبطال السلام الزائف في قصيدة "حرب الكلام"، مذكراً بغوائية أضرت بالأمة وخدعتها في ألفاظه التي اتسمت بالوضوح والشمول.

ثم شحن في اتجاه معاكس لتلك المدارس المتلقى بألفاظ أخرى فذكر ثورات المجد والخلود التي خلدها التاريخ فيحيي الجزائر "تحية للجزائر" وكذلك اليمن ، ثم تستمر دعوته للجهاد وإحياء سنته التي أماتتها عبثية الحكام "لو تداعى قومي لساح الجهاد" في أنين ومشاعر جياشة ودعوة للجهاد صريحة واضحة .

ويمتد خطاب العظم لشباب الأمة الذين شغلهم الفن والإعلام المستسلم بقصائد عنونها "الأغاني المأجنة"، و"اللعوب الفارس" ، و"الضلال والخيال" ، ليرسم واقع الأمة المرير وانشغالها عن مسيرة التحرير بما يصرفها عن روح الجهاد ويخمد جذوة المقاومة وما كان ذلك إلا بمباركة من حكامها وساستها العابثين .

ويظهر المستوى الثاني من مستويات الدلالة الرمزية – وذلك عبر استحضار الشاعر لرموز الجهاد والبطولة والفداء الذين ضربوا الأمثلة في التضحية والفداء ، حيث ذكر الفاروق وخالد والخنساء وسمية وخولة وابن رباح، وجعفر وغيرهم من الأبطال وصناع المجد:

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 25 .

عمري الأمجاد غيـر جـزوع فيه عزم من خالـد وأسـامة
يصنع الموت أو يخوض المنايا وعلى ثغره الوضيء ابتسامه
فشرحبيل فـي دمـاه تلظـى ومعاذ ما زال يرعى مقامـه
ويزيد الجهاد يزحـف بـالفتح ويعلى على المدى أعلامـه[1]

وقد استهل العظم أعلام ديوانه بذكر اسم اثنين هما رسول الله صلى الله عليه وسلم "أحمد" ونبي الله "عيسى" عليهما الصلاة والسلام وقد شمل العدوان كلا الديانتين ومقدسات الملتين منذ العهود الأولى لبعثهما وما زال الاحتلال الصهيوني على ذلك حتى اليوم.

وذكر من أعدائها مثل ذلك أبو جهل، وكوهين، وهم الذين ساموا الأمة سوء العذاب واستمروا في قتالها وولغوا في دمائها.

ويتحدث العظم عن قابيل ورمزيته الباعثة لأول جريمة على وجه الأرض[2].

وذكر العظم حسان رضي الله عنه وأفرد لذلك ديواناً عنونه بعنوان "على خطا حسان":

على خطاك قوافي الشعر تنتظم وفي رحاب الهدى يزهو بـك
يا سيدي أنت بحر لا حدود له من القوافي وأنت الشاعر العلم
وأنت أنت أمير الشعر مذ رفعت للشعر ألوية لو أنصف الحكم[3]

ثم ليعزز بذلك تجربته الإسلامية ويستحضر أول شعراء الدعوة والتي بات رافداً من روافدها وحاملاً للوائها ورايتها فأفرد قصيدة باسم (راية الشعر) وأخرى بالرايات الجريحة.

أظل حمانا اليـوم للعيـد موعـد وليس لنا في العيد يا قـوم مـأرب
أتفـرح والرايـات منـا جريحـة وتضحك والأيتام في القدس تنحب[4]

والعظم ضمن أسلوبه مشاهد من ذاك الصراع الأزلي الدرامي بين الحق والباطل والذي يأخذ صوراً متعددة على مر العصور منذ قابيل وأخيه، وقد تبدى ذلك في صراع المسلمين والكفار واليهود والمسلمين في مختلف العصور.

تنوعت في أسلوب العظم الجمل الفعلية والإسمية، حسبما تقتضيه حاجة مضمون القصيدة، فتارة تغلب الجمل الفعلية مثل قصيدة :" لو تداعى قومي لساح الجهاد" والتي يحث العظم فيها الأمة على العمل والقيام والتحرك للجهاد، وأخرى تغلب عليها الاسمية والتي

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 19 .
(2) انظر : القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيات 27-31.
(3) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 336 .
(4) السابق ص 352 .

تتصل بمضمون وطبيعة التجربة مثل" الرايات الجريحة" وذاك محكوم عنده بجو القصيدة النفسي، واضطراب أحاسيس الشاعر وحيرته.

وينتشر أسلوب النداء في شعر العظم بشكل لافت الممزوج بالندبة أحياناً في تنخلع قلوب الأمة الساكنة أو يتحرك أحد نحو آلامها:

يا قدس يا محراب يا منبر ... يا نور يا إيمان يا عنبر
يا قدس يا محراب يا مسجد ... يا درة الأكوان يا فرقد
يا أفرع الزيتون في قدسنا ... كم طاب في أفيائها الموعد
يا قدس مهما باعدوا بيننا ... ففي غد جيش الهدى يزحف
يا قدس يا أنشودة في فمي ... ويا مناراً في ذرى الأنجم[1]

وتارة كان النداء دعاءً ورجاءً واستغاثة بالله تعالى:

يا رب إني قد غسلت ... خطيئتي بالأدمع
يا رب يا تسبيحتي ... في مسجدي أو مهجعي
يا رب إني ضارع ... أفلا قبلت تضرعي[2]

وقد عبر العظم بالاستفهام عن حالات التجربة المترددة والقلق والاستنكار والتوبيخ في قوله:

هل نصرنا "بالعد" يا ليت شعري ... في ضفاف اليرموك والأسد تزأر؟
أم نصرنا بعدة وسلاح ... وسلاح العدو أمضى وأكثر؟
أم دحرنا في القادسية جيشاً ... بخميس مهلهل مستأجر؟
أم بجيش شعاره دون خوف ... لا يهاب الحمام : "الله أكبر"![3]

ويبلغ التساؤل مداه وتبلغ المرارة أوجها في تساؤل العظم:

وقادة الشعب أموات بلا كفن ... فهل يحرر أرض القدس أموات
يا سوأة العمر في تاريخ أمتنا ... لقد بدت منكم للعين سوءات
حتى تروا ويحكم عنوان نكبتنا ... أما لديكم برب البيت مرآة؟
من يزرع اليوم شراً فالحصار غداً ... وقدرة الله للطغيان مرآة؟[4]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 15 .
(2) السابق ص 64 .
(3) السابق ص 30 .
(4) السابق ص 76 .

ويتكرر الاستفهام في قصائد العظم حتى يكون عنواناً للقصائد التي كتب فيتساءل في قصيدته "أين قلبي" في تساؤل عن المادي والمعنوي في جسد الإنسان وكيف تختلط فيه الروح بالجسد والمادي بالمعنوي:

أين قلب الروح في أعماقه ... سكن الوجد به واضطرما؟
أين أحلام الصبى أين المنى ... هل ترى طيفاً لها أو معلماً؟
أين دفء الحب في أرجائه ... ولهيب الشوق فيه احتدما؟
أين ألحان الهدى صراحة ... قد سمت شدواً وعفت نغماً؟
أين أطياف المنى مجلوة ... قد صفت جيداً ورقت معصماً؟
أين قلب البر في آفاقه ... لمعان سامیات صمماً؟
وتُقى الله متى تبصره ... يا طيب القلب شيخ الحكما؟[1]

ويطرح العظم في مرارة بالغة ذاك السؤال الكبير الذي لا يُرجى له إجابة:

نسمات الجهاد هبت علينا ... من ربا القدس هل وعظنا بدرس؟
آن أن نملأ الفضاء زحوفاً ... ونلاقي العدو فيها ببأس
نبئوني بربكم نبئوني ... كيف تحلو الحياة من غير "قدس"؟[2]

ثم يرفض العظم سياسة الاستسلام أو السلام المزعوم فيقول في "سيد القرارات":

ففلسطين قطعة من فؤادي ... كيف أرضى مع العدو حواراً[3]

ثم يرفض العظم بيع الكرامة على قارعة طريق السلام:

يا رفيق السلاح أين سلاحي ... كيف نرضى بيع الكرامة قلي؟[4]

للعظم قصيدة تحمل الاستفهام شكلاً ومضموناً تظهر فيها آلام الشاعر وغيرته على أمته وقضيته حين قال : "أرأيتم كيف تنداح الدوائر":

أرأيتم كيف يرعى الجيل نخاس الضمائر
كالح الوجه صفيق بات بالكفر يجاهر
أرأيتم كيف يرعى الجيل عربيد مكابر؟
همه الكأس وجنس وهو بالفن يتاجر
أرأيتم كيف يرعى الجيل في الدارين خاسر؟

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة، ص 295 .
(2) السابق ص 300 .
(3) السابق ص 301 .
(4) السابق ص 202 .

من هنا ضاعت بلادي .. باعها لص وفـــاجر
أرأيتم كيف يرعى الجيـــل وغـــد متـــآمر[1]

ينتقل العظم بين حالات التوتر والتساؤل المرير الذي يعتصر فـــؤاده، فينتقـــل بـــين حالات التوبيخ والاستنكار، والاستفهام عن مصير الجيل ومآله في ظل هذه الزعامات.

وتتنوع الأساليب في شعر العظم ومنها أسلوب النفي الذي يتبدى مرافقاً للشعور بالإحباط والهزيمة، لكنه يعلن تشبثه بأسباب النصر وأولاها المقاومة وعدم الخنوع أو الاستسلام:

ما كان نـــايكم يومـــاً ليطربنـــي ولا الملاعب في باريس أوطـــاني
ولا القلوب التي غاصت مودتهـــا قلوب صحبي وأحبابي وخلانـــي
ولست أرضى "بروما" أو حدائقها أو أرتضي بسليمي حب ســـوزان
ولا الظباء بشط "السين" أعـــشقها وقد تعلـــق قلبـــي ظبيـــة البـــان
ما غبت عن ناظري يا قدس وا لهفي ولا نسيت ربـــى حيفـــا وبيـــسان
ولا تخلى فـــؤادي عـــن أحبتـــه يؤدع الأهل في أرجاء عمـــان[2]

هذا ضمير العظم اليقظ الذي يرفض كل المغريات ويقاوم كل الهزائم فهويغوص نحو الحقائق التي استقرت في قلبه بطريقة عمق أسلوب النفي ليوضح تجربته ومـــضمونها لتنـــتج رؤيتة ، وتبرز موقفه من الواقع السياسي المعاش وحلول المرحلة.

لقد تنوعت أساليب العظم وشكلت معالم سفره كما هي معالم حياته وفكره فكانت مـــرآة تعكس تجاربه و تتداح منها أفكاره ومواقفه حتى كاد أن يتميز أو تميز فكان شـــاعر الأقـــصى بجدارة واقتدار حيث تمثلت في شعره آلام الأقصى ونداءات الأقصى ومواقف الأقصى.

المعجم الشعري عند العظم :

في لمحة إحصائية بسيطة لشعر العظم تلاحظ ألفاظ الجهاد والمقاومة والصمود الأكثـــر دوراناً في شعره، وذلك يكشف للوهلة الأولى أن محور شعر العظم المقاومة بمفرداتهـــا وهـــذا عماد شعره ومحور إبداعه. وقد تبدى هذا المعنى في قصائده كما الملح في الطعام، بعدة صـــور ومستويات دلالية؛ بصور مباشرة وغير مباشرة ورمزية عالية وعادية وأخرى انفعاليـــة تـــوحي بحالة الشاعر وموقفه.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 316 .
(2) السابق ص 50 .

لقد ابتعد العظم عن الغريب ومال إلى الرقة والسهولة في جزالة وقوة واضحين بشكل متوازٍ ورصانة ظاهرة في جميع قصائده وربما امتد ذلك إلى الأغاريد التي ناشد بها النشء في طفولتهم البريئة.

وجاءت السهولة والرصانة في مناسبة للمعاني، والمضامين فألفاظه تميل إلى جزالة وقوة مع سهولة ووضوح يزيدان من رصانتها وشدة وضوح رسالتها.

وقد تحرك العظم في ألفاظه جزالة وسهولة رصانة وليونة حسب ما يناسب المقام.

اكتب حياتك بالدم واصمت ولا تستكلم
فالصمت أبلغ في جراح الحادثات من الفم

اكتب حياتك بالألم واصرع عدوك بالقلم
فمداده أقسى على صدر الغشوم من السقم

وسطوره فيها البراكين التي تلقي الحمم
في وجه "فرعون" الذي داس الكرامة مذ حكم

وقسا على شعب ضعيف باعه بيع الغنم
جلاده المأفون لم يذق السكينة أو ينم[1]

ويتحرك العظم نحو قعقعة السلاح وما يلائمها من ألفاظ في ميدان المقاومة والكفاح فترى ألفاظه تلتهب ويشتد أوارها حينما يكون المقام مقام منازلة أو قتال:

لنا يا رموز الظلم والكفر موعد نطاردكم في الأرض والدهر قلب
وترصدكم في كل واد كتيبة عليها فتى في الحرب كالليث أغلب
لأن عرين الحق ما زال زاخراً ونبع الفدا في حقلنا ليس ينضب[2]

وألفاظ العظم مستمدة من مكنون الثقافة الإسلامية الخالدة والبيئة الفلسطينية حاضرة في أشعاره رغم جنسيته الأردنية، والتي حضرت هي الأخرى في أشعاره رابطاً إياها بالبيئة الفلسطينية برباط الجهاد الخالد ودماء الشهداء الطاهرة:

غداً ترفع الرايات والساح مشرق بنور العلى والمجد يدنو ويقترب
لنغسل أرض القدس من رجس غاصب وليس لنا غير الكرامة مطلب
ألا يا حشود الحق سيري عزيزة إلى الوطن المحتل والحشد يرهب

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 43 .

(2) السابق ص 354 .

يؤجج نـــار الثـــأر زيـــد وجعفـــر ويذكي لهيب الشوق للحرب يعرب[1]

وقد مالت ألفاظ الشاعر نحو التصوير والتشخيص ورسم الصور الكلية والجزئية:

ماذا أصاب كثيـــب الرمـــل واعجبـــا يختال بين الروابـــي يكتـــسي عـــشباً
مذ صـــار رابيـــة يكـــسو جوانبهـــا ورد تغنى بهـــا طيـــر الفـــلا طربـــا
وأورق الرمل في صـــحراء قاحلـــة فكيف أضحت رمال البيد خضر ربى
في كل حبـــة رمـــل زهـــرة عبقـــت وكـــل ســـاقية مـــاء بهـــا عـــذبا
تراقص الماء في الأحواض منبجـــساً وكان من قبل فـــي بطحائنـــا قلبـــاً[2]

هذه الصيغة التصويرية المجسمة تتكرر في شعر العظم في كل مـــشهد يقتـــضي ذلـــك التصوير، فقد جعل كثيب الرمل يختال بين الروابي، ويكتسي عشباً، وطير الفلا تغنـــي طربـــاً ورمال البيد خضر، وحبات الرمل أصبحت مزهرة وكل ساقية بها ماء عذب رقراق.

يقدم الشاعر العظم بهذه الصورة المجسمة والحاضر فيها عنصر الحركة حضوراً كبيراً ليرسم من هذه الصور الجزئية صورة كلية لآماله التي تمخضت عن زيارته لدولة الإمارات العربية.

وذاك شأن مفردات الشاعر في معظم قصائده ورباعياته وأغاريده للجيل الناشـــئ مـــن أطفال الأمة:

وقم يـــوم اللقـــاء إذا أعـــدت كرام الخيل تـــسرج للطعـــان
وصافح في رحاب العز جمعاً بثوب المكرمات لقد كـــساني
أأدركت المفاخر كيف تـــسمو كما يسمو الكريم من المعاني
وعانقت العواطف حيف تحنو وتصفو إذ يفيض بها جنـــاني؟
ولاقيت الخواطر كيف تزهـــو وتزكو إذ يبوح بهـــا لـــساني
وصافحت المحبة فـــي نقـــاء تفتح مثـــل زهـــر الأقحـــوان

هذه الصور النادرة والتجسيم البديع لعواطف سامية وكلمات الـــشاعر الرقراقـــة تكـــاد تتحدث عن نفسها بنفسها، لتترجم الكلمات مشاعر نبيلة وتتحدث المشاعر بلغة وكلمات عذبة نقية في صورة تبادلية بين الشاعر وألفاظه وبين الشاعر ومعاني الألفاظ في أبلـــغ وأبـــين صـــورة ترجمت رائع كلماته وسامي عواطفه، فقد كانت عواطفه في رقتها تحاكي رقة مـــشاعره وفـــي رونقها تيشف عن روح شاعر.

فإذا ما رق حس العظم وأرهف شعوره تحدر عن ذلك شعره وقريظه كلمـــات رقيقـــة عذبة كحبات الندى، المتحدرة مع نسمات العليل في تلك الربوع.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 354 .

(2) السابق ص 349 .

الصورة الشعرية وعناصرها ومصادرها

تجربة العظم فلسطينية بامتياز، إسلامية العقيدة، مقاومة الفكر، جهادية المنهاج، رسمت صورها ريشة فنان حاذق بكلمات حملت الكثير من المضامين التي تجسد أحاسيس الشاعر وأفكاره، بشكل ملموس محسوس وقد اعتمد الخيال الخصب كعنصر رئيس في إنتاجها، مستخدما المجاز والاستعارات والكنايات والتشبيه ناهيك عن التقديم والتأخير كوسائل ومقدمات لتحقيق ذلك. أضف إلى اعتماد الوصف الحسي لكي يوصل لخيال الملتقى شيئاً يتجاوز الحقيقة الخارجية للأشياء، وذلك من خلال ما تتيحه طاقات اللغة وما تزخر به وما تحمله من إشعاعات وجدانية تجسد عاطفة الشاعر وفكرته في ألفاظ ذات دلالة حقيقية[1].

ولأن الصورة ترتبط – مثل غيرها من عناصر الإبداع – بتجربة الشاعر العامية؛ كما ترتبط بمشاعره وما يجول بخاطره من معان وأفكار في أثناء عملية الإبداع، ولأنها تعتمد على خبرة الشاعر ومشاهداته الخاصة، وتجاربه الشخصية، و موروثه الثقافي، والتراكمات التي صقلت نفسيته، أرى أنه من المجدي الإيماء إلى ما سبق تفصيله عن تجربة "العظم" العامة[2] التي لاحظتها في إبداعه الشعري موسومة بوسم القضية الفلسطينية الجهادي والسياسي، كما لاحظ الباحث أن تجربته الخاصة قد استمدت جوانب خصوصيتها من أوجه جهاد الشاعر في صفوف جماعة الإخوان المسلمين، ومعايشته جميع الظروف السياسية والأزمات التي مرت بها القضية الفلسطينية، وقد رأيتها واضحة جلية في أحاسيس الشاعر وأفكاره التي تجلت في كل نصوصه وأشعاره.

كذلك تحدثنا عن خبرة الشاعر وظروف حياته التي تعد من مصادر إنتاج الصور وتشكيلها وروافد هذه الخبرة كظروف النشأة والبيئة التي رأينا مشاهدها الرومانسية الحالمة، ومشاهدها السياسية الدامية، وموروثه الفكري والحضاري، والخبرات السابقة ... ورأينا كيف تجلي ذلك في شعره بوضوح حينما وقفنا على لغته وما تنطوي عليه من دلالات كثيفة ومتنوعة. كما نرى ذلك بشكل جلي في الصور الغزيرة التي يعج بها شعره[3].

ولئن كان العظم قد اتهم في أشعاره بالمباشرة فذلك ليس بالمنقصة التي تقلل من اكتناز شعره بالتجربة الواقعية التي خاضها والتي فرضت عليه نقل الصورة بواقعها وتلونها بألوان الواقع المرير، إن شعر المقاومة ولد من رحم آلام التجارب وحقائق واقعة حية عانى

---

(1) عناصر الإبداع الفني : د. نبيل خالد أبو علي، بتصرف، ص 97.

(2)، (3) السابق بتصرف ص 98 .

منها الشعب واكتوى بآلامها، وما كان للكنايات والاستعارات أن تكفي أو المجازات والمحسنات أن تفي تلك الصورة حقها بقدر ما حرص الشاعر أن ينقل الحقائق في صورتها الحقيقية دون أي تدخل منه، حيوية بالصورة جاءت من ويلات الشعب بلغت حداً لا توافيه التكنية ولا تخدمه الاستعارة، فبقدر ما ينقل الشاعر من صور مؤلمة كان التصريح ولما كانت الاستعارات والكنايات مناسبة أتى بها الشاعر في أبهى صورة وأجمل رسم[1].

فهذه قصائد عنون لها بعنوان يحمل من المضامين ما يدحض صفة المباشرة عن جميع أشعاره حينما وجدت تلك الفرصة وتوافق ذلك مع ما يريده العظم.

وقد أورد ذلك أقرانه من الشعراء والنقاد في غير صحيفة وكان منها ما قاله الأستاذ/ ابن زيدون وهو يقدم قصيدة (أمي) في مجلة الدعوة التي تصدر في الرياض في عددها (887) بتاريخ 1403/6/14هـ الموافق 1983/3/28م حين قال : "يوسف العظم داعية وشاعر ومفكر إسلامي معاصر، مجموعة من المواهب المتعددة تلاقت متناغمة في إطار عقيدة وهاجة بالعطاء والزخم الجميل، ولو أن الشاعر الداعية تفرغ قليلاً للعناية بحدائق شعره ذات الأريج الإسلامي الذي يحتاج إليه واقعنا لكان له مع الشعر شأن آخر ... أكثر دفئاً وعطاء وحيوية وتدفقاً .. ولتعمق في معانيه وغاص وراء درر الأفكار ورائق الألفاظ ولأعطانا في النهاية تشكيلاً فنياً جميلاً .. ولكنه على ما يبدو مشغول بالتنظير والعمل في مجال الدعوة إلى الله وأعظم به من عمل"[2].

وقد تنوع شعر العظم بين الوجدان الرومانسي الملتزم والإيماني المنضبط مع هموم الواقع السياسي والفكر المقاوم. ومن هنا فقد عبر العظم عن مضمون نفسه ومكنون فؤاده فلا مجال في ذلك للتكنية أو الاستعارات بل تكون المباشرة هي التي تنقل ما تقع عليه عين الشاعر محققًا بذلك ما يصبو إليه من تسجيل جرائم المحتل ونقل المتلقي إلى أتون المعارك التي عايش.

إن الشعر وسيلة أداء وأسلوب تعبير، ولكن عن قضية لا تتبدل ولا تتغير، ألا وهي عقيدة الأمة ومنهاج حياتها، والشاعر القادر على التعبير عن ذلك كله، المصور لأبعاده وطموحاته، هو الشاعر الملتزم وصاحب الرسالة الجدير بالتقدير، سواء أكان أسلوبه خطابياً مباشراً أو إيحائياً غير مباشر، فالمهم القدرة على التعبير والقدرة على التأثير معاً، وقد كان بناء

---

(1) انظر : – السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، الطبعة الأولى ، مكتبة الإيمان ، المنصورة 1999 ، ص 205 .

– مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس ، بيروت 1983 ، ص 6 وما بعدها .

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، ص 117 .

القصيدة عند العظم محكماً متماسكاً، أجاد فيه العظم حسن المطلع والخاتمة، وأجاد في وصل عناصر القصيدة ببعضها فحقق لها وحدة الموضوع وقوة المضمون في آن واحد مستحضراً في ذلك أمجاد الماضي وآلام الحاضر وطموح المستقبل الواعد سالكاً طريق الجهاد والمقاومة بالقلم والكلمة والسلاح[1].

إن العظم واقعي في نظرته، فهو لا يبني قصوراً في الهواء، ولا يتجاهل حقائق الواقع، لذلك نجده الحريص على إقامة دولة الإسلام على قواعد الحق والعدل ليمنح العالم المعذب الأمن والسلام والرحمة والوداد:

وأقيموا للناس دولة عدل وعرينـاً يضمكم آسادا
وامنحوا العالم المعذب أمناً وسلاماً ورحمة ووداداً[2]

وحضر في شعر العظم عنصر اللون حضوراً بارزاً مميزاً لعب دوراً في تشكيل صور متنوعة، وأضفى عليها أبعاداً نفسية عميقة ساهمت في تشكيل الدلالة وتوضيح الرؤية والموقف الذي يسعى إليه.

وقد أتاح ذلك له قول ما يريد قوله دون أن يسمي الأشياء بمسمياتها معتمداً رمزية اللون ومساراتها الدلالية[3].

وقد جاءت في مستهل ديوانه الأول وفي قصيدته الأولى ألوان العلم الفلسطيني الأخضر والأبيض (النور) والأسود والأحمر لون الدم، ممزوجة بمعالم الطبيعة الفلسطينية، فالمروج الخضراء والدماء القانية والقلوب البيضاء والسواعد السمراء، وقد شكلت هذه الألوان في نفس العظم معزوفة الوطن فكان العلم قطعة من الوطن والوطن ممثلاً في العلم وكأنه قطعة مرفرفة من الوطن بألوانه وما تحمل من مضامين.

ثم تكرر أبرز الألوان حضوراً في ديوان العظم، وهو لون الدم والذي لا يفارق فلسطين ولا يفارق القدس. وقد تناوله الشاعر تلميحاً وتصريحاً وكأن لون الدماء في لا يغادر القدس وأرضها فحضوره دائم لا ينقطع:

إن دفق الدماء عبر الجراح يبعث النور في جبين الصباح
ورحى راية الشهادة تعلو قد أظلت سماءنا بوشاح
سوف يطوى الطغاة في كل ساح[4]

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ، ص 290 .
(2) عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم، ص 128.
(3) نبيل خالد أبو علي : عناصر الإبداع الفني، ص 103.
(4) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 120 .

وقد كانت الديار مبعث النور لما قرنت لدى العظم بمداد العلمـــاء العـــاملين ودعـــاء الصالحين في تمازج عاطفي – بين مدى التوافق والتآلف بين الدماء والشهداء ومداد العلمـــاء وزنود الكادحين، فالكل تجمعه التضحية من أجل فلسطين:

بـــدماء الـــشهداء الـــصالحين ومـــداد العلمـــاء العـــاملين
ودعاء المـــؤمنين الـــصالحين وزنود المـــسلمين الكـــادحين
قد رفعنا راية الحـــق المبـــين في سبيل الله والمستضعفين[1]

وهذه سنة الأحرار على مر العصور والدهور ف قد كانت دماؤهم المهـــودرة لنيـــل حرياتهم وما كان لأمة أن تتحرر ولا لقيدها أن يتكسر إلا ببذل الدماء:

لكنهـــــا تحـــــررت
وبالـــدما قـــد قـــررت
فلتعل رايات الجزائـــر[2]

تلك الأمجاد لا تصنع إلا بالدماء التي تبذل في ساحات الوغى، فلا تصان الحقوق ولا تفدى الكرامة إلا بالدماء:

والمجد تصنعه في الساح ملحمة وتفتديه من الطوفان والغـــرق
ولا تصان بمال الكون جبهتـــه وإنما بدم في الساح منبثـــق[3]

والدماء بلونها الأحمر القاني جعل منها العظم خضاب القدس وزينتها وســـر جمالهـــا الذي تعشقه كما عشقه الشهداء وعشقوها.

في حضنها بات المجاهد يبتغـــي حـــسن الثـــواب
عبق الـــشهادة عطرهـــا ودم الشهيد لا خطـــاب[4]

وهو وشاح تزين به النساء صدورهن وتستبدله بالحلي والزينة بعدما قدمن أبنـــاءهن شهداء:

وإذا سال في الجهاد نجيـــع جعلوه على الصدور وشـــاحاً

وقد تبدت تجربة العظم واضحة من خلال تصويره لمشاهد مثلت محطات مهمة فـــي حياته شكلت معالم تجربته ومن خلال ألفاظ ومفارقات بينت معالم حياتـــه فبـــرزت واضـــحة مقاومة عنيفة.

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 121 .
(2) السابق ص 195 .
(3) السابق ص 169 .
(4)

يلخص العظم مواقف من حياته في غير قصيدة من قصائده، منها ما قاله في (دمعة مؤمنة في محراب الأقصى) حيث صور مشاعره وبكلمات من فؤاد كليم خطتها دموع في محراب الأقصى الحزين:

دمعة الوجد ثرة التسكاب ... كلما لذت في حمى المحراب
قد سجا الليل واستبد حنين ... بفؤادي وذاب في أعصابي
حدثي الكون عن لواعج نفسي ... وأطيلي الحديث في وصف ما بي[1]

ولوعة العظم مبعثها ما أصاب الأمة وما حل بالمقدسات من أهوال ومصائب:

إن سألتم عن شوقنا وهوانا ... كان طل الجفون.. بعض الجواب
ليس في الدمع ذلة لمحب ... حين يهمى لدى فسيح الرحاب
أنا من همت في محبة ربي ... لا تلومي أو تكثري من عتابي[2]

أشواق الشاعر ملتهبة ومشاعره جياشة لا ليست للبيض الحسان ولا الكواعب وحسنهن الفتان، إنما الشوق الذي سبى فؤاده وأدمى قلبه هو شوق المؤمن المتعطش للنصر للمجد.

ودموعه التي تهمى لا تبكي لعاعة الدنيا، إنما بكاؤه بكاء العزة ودموعه دموع عزاء، للكرامة المستباحة إلى حد كادت أنفاسه فيها أن تفارق صدره أو يضيق صدره عن قليل منها.

ضاقت بي النفس حتى كدت أختنق ... واجتاح زورق عمري الموج والغرق
ولفني الصمت حتى كاد يسحقني ... كأنني لوجيب القلب أسترق
ومزق الشك نفسي واستبد بها ... فلست أدري بمن أرضى ومن أثق[3]

ويفصح العظم عن مكنون قلبه وعن كلوم صدره وما أصابه من حزن وأسى فيقول :

لا تلمني إن مس عقلي ذهول ... أو تداعى تحملي واصطباري
فدموع الأيتام عبر الحنايا ... سلبت في الخطوب كل أوتاري
وجراح الأقصى تمزق صدري ... وعدو الإسلام يحتل داري[4]

إن آلام العظم مبعثها ما أصاب الأمة، واعتراها من هزائم، وما حل بالمقدسات من كوارث وأهوال، أذهلت عقله ومزقت صدره وأدمت قلبه ففاضت عيناه بالدموع، تلك تجربة

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 97 .
(2) السابق ص 67 .
(3) السابق ص 66 .
(4) السابق ص 63 .

العظم وهذه صورته التي رسمها بكلماته النابعة من أعماق قلبه الحزين[1]، ذاك القلب الذي حمل الوطن في أعماقه فكان العظم يحمل الوطن فيه كلما حل أو ارتحل، وأينما توجه واتجه، ذاك قلب المؤمن اليقظ الذي لا يعرف اليأس ولا الخمول، ولعل مبعث يقظته ومكنون نوره أنه قلب معلق بربه لا يحيد عن معتقده ولا يتلهى عن مولاه:

فؤادي في كفيك ليس يناله سواك فمن للقلب إلاك مرجع
وعيني كلما جالت دموع صيته بمقلتها ترجو انسكاباً فتمنع
منى القلب أن يحيا صفاءاً مجنحاً لدى نورك القدسي يسمو ويخشع[2]

ويكشف مكنون شعره عما عبرعنه بالزورق الذي تحدث عنه في غير قصيدة من قصائده فهو زورق العمر والشاطئ المقصود شاطئ الحياة ويتعزز ذلك حينما نعلم أن البيئة الأردنية ليست بيئة ساحلية وأن البيئة المقصودة هي البيئة الفلسطينية التي خلبت فؤاد العظم وأسرت شعوره ،

يقول العظم[3] :

زفرات قلب متعب ... وخواطر قلبي خاشعة في رحاب الله
على شاطئ الحياة
يالجةٌ عصفت
وهدير روى
وموجاً من فوق موج
يا ظلمة لا تنتهي
إن في أعماقك نوراً
ألا رحمت الزورق الحائر .. والشراع الحائر
وأسلمته للشاطئ
المحبة .. والخير .. والسلام

يغوص ذاك البحار الذي ينشد اللؤلؤ المكنون في تلك الأعماق المظلمة والأمواج المتلاطمة، والعمق اللجي الذي يبحث العظم فيه عن المحبة والخير والسلام الذي غاب من قاموس الحياة بفعل فاعل، وتبدو شطآنه بعيدة بعيدة لكن عزيمة الشاعر عظيمة عظيمة.

---

(1) انظر : مجيد عبد الحميد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت 1984 ، ص 220 .

(2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 68 .

(3) السابق ص 141 .

إن اللجة العاصفة التي تعصف بالشاعر هي اللحظات الأخيرة من ليل حالك يعتري النفس الإنسانية في أتون أمراضها وآلامها، وفي خضم هذه الحياة القاسية والأمواج العالية، تطمح النفس وتبحث وتجد وتجتهد في البحث عن مستقر الخير الذي رنت إليه وتراكمت عليه أطماعها.

هذه النفس التي تلبدت فيها حلكة العصور، صُمت أذنها عن ذاك التساؤل الخالد الذي تتهادى به الآيات وتشع وسط الظلمات في رقة وصفاء **(أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** (الملك : 22).

إن حضور البحر في شعر العظم الرمزي وغيابه الفعلي عن بيئة الأردن يرمز إلى الحياة الحافلة التي عاش، وصعوبة الآلام التي كابد، وعظيم التجربة التي خاض، فالشاعر في حياة لا تعرف الكلل ولا يروقها سكوت ، ولا يقر لها قرار، في تلك الأحداث الجسام التي تعرضت لها الأمة ، لكن العظم كان هادئ الإبحار واضح الهدف برغم ضلال آلاف البحارة ، وعتاولة السابحين، فقد كان يبحر في ثقة المؤمن بصواب الوجهة والتي تقوده نحوها بوصلة قلب عامر بالذكر عامل بالفكر، ذاك بحار مبحر نحو طيب الزاد وجميل المراد. في خضم بحارة ضلوا وأضلوا وتاهت بهم أشرعة الحياة، وتقاذفتهم أمواج الشهوات وتيارات الفكر المشوه نحو لجج لا يقر لها قرار:

ما بال البحارة يهتفون
يصخبون ... ولا يهتدون
وبحار واحد بينهم
صامت لا يثرثر
ساهم في غير تيه ولا ضياع
إنه يتزود[1]

ذاك بحار يعرف وجهته تزود من خير الزاد وأدرك سبيل الرشاد، وعرف طريق العزة نحو رب العباد، فخاض ليس مع الخانضين، وأبحر نحو مرفأ الحق المبين في ثقة المؤمن بربه، الواثق برعايته وعنايته لعباده القاصدين:

سأغوص في أعماقك
سأقتحم لجتك
سأطوي الموج
سأخوض اليم

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 143 .

سأحرق قلبي بخوراً
وأنثر دمي عطراً
حتى أصل إلى لؤلؤة الرجاء
يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية[1]

ويحاور العظم زورقه حواراً رقيقاً في تلك اللجج وذاك الخضم العاتي حواراً رقيقاً لا يعرف الاضطراب برغم الاضطراب الذي يحيط به:

يا زورقي
يا حائراً وسط الضباب
وتائهاً فوق العباب
يا عالي الباع ... والريح عاصفة
وأبيض الشراع ... وظلمة الليل حالكة
لك ..
ذراعي ... وساعدي ... ومجدافي[2]

زورق العظم مشرق وسط لجة البحر ، وتراكم الظلمات وعتو الأمواج، وهو مشرق كالنجم يتراءى لأهل الأرض يجمعه بالنجوم بريقها وعلوها على الأهوال، وتفصل بينهم المسافات وتجمعهم حدة البصر وحدة البريق:

أرشدك إلى الشاطئ
أدفعك نحو الأمان
استقبلك بين ذراعي ... حيث الهدأة .. والسكن ... والرضى

هذه مفردات ينعم بها فؤاد المؤمن المطمئن لصواب وجهته، وسلامة عقيدته وصحة سبيله، ففي تلك الظلمات والعواصف العاتيات، تبقى الشمعة صامدة متقدة، ترسم معالم الطريق وتمزق سدول الليالي وحوالك الظلمات بضوئها النقي ، كنقاء زيت الشجرة التي خلّد القرآن صورتها وأعلى شأنها:

لك ...
شمعة أوقدها
من حشاشتي
ذبالتها كبدي
وزيتها من الشجرة المباركة ... عصارة فكري .. وذوب خاطري

---

(1)، (2) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 144 .

وشعاعها من أحد أصغري

هو القلب

لا ينطق ... ولكن بضرع ووقار

ولا يتكلم ... ولكنه يسبح بصمت[1]

كل خفقة فيه تدعوك يا زورقي أن تعود

ذاك الحوار الهادئ الهادف بهدوء بهدوء نفس العظم في مواجهة عواصف الشهوات والعظـائم والملمات، لتلخص إلى إبداع تجربة شاعر الدعوة الإسلامية وترسم صورة لحياته وما تتعـرض له من عظائم وملمات.

وتتضح معالم الصورة التي تعج بالحركة وتموج بالتناقضات والتجاذبات في تلك الألفاظ عن تجاذب القلب مع شهواته والعقل مع أفكاره لكن استقرار فؤاد المؤمن أقوى ثباتاً وأكثر يقظة من أي فكر مارق:

كل خفقة فيه تدعوك يا زورقي أن تعود

وكل لجة نبضة منه ... تطوي في أعماقها

اللجة ... والموج ... والشراع

يا زورقي

ألا رحمتني

وأنا التواق إلى لقياك

وضمتني

وأنا الذي ينشد لك الرجوع ... بعد طول غياب

ويحب لك أن ترسو

على الشاطئ الأخضر

على الرمل الناعم

على النغم العذب الذي لا يندثر

"أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ"[2].

إن إبحار العظم نحو ربه، متزوداً بالتقوى من كتاب مولاه، لم يكن إبحار الهـواة نحـو مهاوي الردى ولا مراسي الضياع، إنه إبحار نحو بر السلامة والسلام وشواطئ الإيمان والأمان

---

(1) يوسف العظم : الأعمال الكاملة ص 144 .

(2) السابق ص 151 .

في رحلة طالت وزخرت بكل معاني العذاب بأنواع الشهوات شتى و قد كان ذلك عنوان لقصيدة (رحلة مصير).

صور العظم فيها رحلته واختصر فيها تجاربه في كلمات حملت كثير المضامين وكبير المعاني وعظيم البراهين على ثقته بفكره وإيمانه العميق بربه:

وانساب صوت في السماء
وامتد حبل من رجاء
يقودني
يهدهد الزورق
يقول لا تقلق
أنت مع الضياء
تفيض بالصفاء
نسير فوق الماء
وامتد لي ساعد
ولفني ذراع
يمسح وجهي بالندى
ينضح قلبي بالهدى
بالفجر
بالعطر
بالماء من زمزم
يمنحني البلسم

تلك نهاية رحلة العظم صورها أروع تصوير وأضفى عليها أبهى المشاعر وكانت النهاية مشرقة نحو بر الأمن والأمان ومراسي السلام الذي ينشد فهذه ثقته بربه قد جسدها واقعاً ملموساً في حياته وكذا انصهرت عناصر إبداعه في بوتقة تجربته وتشكلت بألوان فكره وإحساسه، فسمت معانيه في كل مراحل حياته في حله وترحاله، وبرزت سمات لغته بأصواتها ومفرداتها وأسلوب نسجها، وكيف تماثلت معانيه وأفكاره لتتحمل أعباء الدلالة برموز وإيحاءات عظيمة فتماثلت مع الصورة والإيقاع لتجسد تجربته فكراً وإحساساً[1].

---

(1) نبيل خالد أبو علي : عناصر الإبداع الفنى عثمان أبو غربية، ص 106.

النتائج

1- برز العظم شاعراً إحيائياً ومقاوماً فذاً في ميدان الأدب، متمثلاً في أعماله التراث الشعري، تمثلاً حقيقياً صياغة أسلوباً وصورة فهو شاعر المقاومة وشاعر القدس فلسطيني الهوى إسلامي الفكر.

2- برز في ثنايا دواوين العظم موقفه الذي جاهد من أجله والذي دان به ربه ونادى من أجل تحقيقه على مدار حياته، فقد تميز العظم برؤية منبثقة عن عقيدة راسخة، وإيمان عميق بأحقية فلسطين لأهلها، والعمل من أجل تحرير أرضها ومقدساتها والجهاد في سبيل ذلك كله.

3- تميزت رؤية العظم تلك بشمولية المنهاج وعمق الرؤية والفهم العميق والمعرفة بعدوه وطباعه وصفاته فهو عدو غاشم غادر صفق لا يحمل أية مشاعر إنسانية أو صفات تصنفه من جنس البشر.

4- ميزت نشأت العظم الدينية وتربيته الإخوانية رؤيته السياسية وأكسبها لوناً مميزاً وصبغها صبغة الصدق وعمق الوعي وحضور الفطرة الإسلامية فخبر الإسلام منهاج حياة، ودستور دولة، وقبل ذلك كتاباً فيه خبر من قبلها ونبأ من بعدها، وقد تبدى ذلك في أشعاره في وضوح ساطع.

5- كان العظم وبحق واستحقاق شاعراً داعية، رأى في العودة والدعوة إلى الله تعالى سبيلاً إلى استعادة عزة الأمة ومجدها وطريق حريتها فلا جدوى للسلاح دون إيمان وتقوى ولا قيمة للجيوش إن لم تكن مسلحة بسلاح العقيدة.

6- تبنى العظم المقاومة فكراً وسياسة وعملاً جهادياً وقولاً شعرياً، فرفض كل أشكال التبعية التي ألغت هوية الأمة، ورفض كل ألوان الخنوع أو الاستسلام وقاوم كل دعوات الاغتراب والتراجع والخنوع تحت أي مسمى كان.

7- ظهرت ألفاظ القرآن الكريم وأسماء سوره العظيمة بجلاء في شعر العظم مما يعكس منهجية العظم الفكرية وعمق تمسكه بالكتاب والسنة النبوية في شتى تفاصيل حياته وفي كل مجالات معاملاته على اختلاف ألوانها، فأشرب قلب العظم حباً للقرآن صافياً وعملاً بالسنة واضحاً ودعوة إلى السلوك على ذات الطريق سبيلاً للوصول إلى المأمول.

8- اعتز العظم بحضارة الإسلام أيما اعتزاز وفاخر بها وتفاخر وزينت قصائده أسماء قادة الحضارة ورجال صنعوها سجل التاريخ أسماءهم على جبين المجد وعلى هامة التاريخ.

9- تبدت في شعر العظم ملامح الفهم العميق للإسلام ولعظيم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت دعوة الوحدة والتوحد معلماً بارزاً في خطاب العظم وهي نتاج فهم حصيف لروح الإسلام وما رسخته فيه دعوة الإخوان والتي ترى التفرق قرين الكفر.

10- طبق العظم الوحدة في قلبه وفي دواوينه وأشعاره فعاشت الأمة موحدة في قلبه لا يرى لها حدوداً ولا يؤمن بالحواجز فالشام واليمن والجزيرة والمغرب ليست وحدة سياسية ولا جواراً جغرافياً إنما هو تمازج الدم بالدم والثرى بالدم وحضرت آصرة العقيدة فكانت أغلى من التراب والطين، وأوثق من إخوة الأرحام.

11- آمن العظم بضرورة العناية بالتربية السليمة للنشء فلم تكن التربية عنده مكاتب ولا ثكنات ولا مؤسسات لكنها مخططات عقلية وأفكار هادفة تعمق مفهوم الوحدة بعيداً عن الشطط والتعصب والارتجال ولا ريب فالعظم رجل تربية مارسها على مدى خمسة وثلاثين عاماً يؤسس ويربي ويؤلف وينشء وهذا ديدن العلماء العاملين.

12- أدرك العظم أهمية الإعلام وخطورة دوره، بعقل مفتوح وفهم عميق فتصدى للإعلام الهابط الذي فارق رسالته، وهاجم الأبواق والمدارس الغوغائية والصحف العلمانية ونعى وسائل الإعلام تصريحاً وتلميحاً عندما غدا الإعلام مهدور الفكر، مشتت الهدف، ممزق الهوية، من غير تضييق لواسع أو تحريم لمباح.

13- أولى العظم الشباب رعاية واهتماماً يناسب دورهم وآمال الأمة نحوهم ودعاه إلى التمسك بالدين عصمة للأمر وبالعلم سلاحاً لجولات النزال القادمة وهاجم من أفنى عمره في هوى ساقط أو عشق هابط.

14- دعا العظم للحرية التي يهفوا لها العالم والتي هو تلميذاً أحد كبار روادها الذي أرسى دعائمها فقال : "متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحراراً" وهو سليل مدرسة البنا الذي صدح بالقول "إذا قيل لكم إلام تدعون فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه".

15- والعظم حارب السجون والسجانين بكافة أشكالهم سجون الأجساد وسجون الفكر وسجون الروح وسجون العقول، ويدعو علناً لتحطيم كل قيد وتدمير كل سجن أياً كان نوعه.

16- طغت على أشعار العظم آمال عراض، وأماني تعكس تفاؤل المؤمن وإيمانه بنهوض الأمة من كبوتها وقد كان داعياً لذلك مزكياً روح الأنفة والكبرياء المعهودة على روح المقاوم المؤمن والمقاتل العربي.

17- كان العظم إسلامي الفكر، عروبي الانتماء ولم يكن ليزع نزعة عصبية أو انتماء يشكك في ذلك فالانتماء للإسلام كان السمة الغالبة ولعل نداء الوحدة الذي يتردد صداه في أشعاره يمثل روح الإسلام القويم.

18- انعكست على صفحات شعر العظم سماحة واضحة تتحدر من فؤاد سليم ألفاظاً واضحة صافية رقراقة عذبة، أضافت إلى شعره مسحة السماحة الإسلامية ونقاء العقيدة من شوائب تكدر صفوها أو تفسد معينها.

19- شغل العظم بقضايا كبيرة وملمات عظيمة، ألمت بأمته عكست كبر حجمه في ميدان الشعر شاعراً مغلقاً لا يلتفت إلى صغائر الأمور أو إلى ميادين المجون التي نزع إليها شعراء آخرون فبدى ذلك في شعره لفظاً ومعنى.

20- لم يغفل العظم وما كان له أن يغفل قضايا اجتماعية تمس حياة الناس فهو معلم وداعية، لا ينفك عن ذلك في ميدان الأدب وهو ولا شك نافذة عظيمة يصول فيها العظم رافعاً لواء الإصلاح والدعوة للالتزام والتمسك بتعاليم الدين الحنيف.

21- برزت في أعمال العظم باقة عبقة تعكس عناية فائقة بالنشء، فما غاب عنه أن يفرد لهم ديواناً يغرس في نفوسهم من خلاله تعاليم الإسلام الحنيف، وكأنه يمارس مهنة التعليم من خلال ما دعا إليه فقد كان القول مقترناً بالعمل في إنشاء رياض الأقصى ومدارس الأقصى، وحقق بذلك نموذج العالم العامل.

22- أدرك العظم كبيراً دور الجهاد والمقاومة فكان منظّراً وداعية ومجاهداً بلسانه وسنانه، كما وعرف عنه دعمه المطلق للمقاومة مادياً ومعنوياً كما ورد في ص من هذا البحث.

23- لم يغفل العظم دور المرأة وقد خاطبها في غير موضع، خطاباً يليق بطبيعتها الرقيقة، ودورها البناء، ومكانتها التي أعطاها الإسلام، وما كان العظم لينزلق إلى خطاب الغراب أو ليتسلل إلى ميادين حرمها الإسلام أو حذر منها.

24- خبر العظم دوره في المجتمع ذلك الدور الذي فرضه الإسلام الحنيف على العبد، فكان ملتزماً تعاليم الدين، متوشحاً طيب الأخلاق ومكارمها، فحقق بذلك الست الإسلامي لشخصية إسلامية عظيمة.

25- ارتقى العظم بخطابه الشعري وترفع عن الانزلاق إلى أتون الخلافات التي يعج بها العالم العربي، فكان وحدوياً في خطاب إسلامي يجمع ولا يفرق، مدركاً سعة الإسلام ورحابته وقدرته على إذابة الفوارق وضبط الصف تحت لواء الإسلام الحنيف.

26- عاش العظم بين أبناء وطنه واقترب بأشعاره من لغتهم، وحرارة حوارهم وحمل همومهم، فنفذ بخطابه إلى قلوبهم فردد معه النشء والشباب أناشيده وأغاريده التي ترنمتها الأجيال في أناشيد عديدة، وقد لمسنا ذلك في طفولتنا ونشأتنا وما زالت أناشيده تذاع وتتداول بين أجيال المقاومة حتى يومنا هذا.

27- لقد تشكلت تجربة العظم الشعرية من خلال ثقافته الشعرية والتراثية والتاريخية العميقة، التي تعكس تجذر الشاعر في أرضه وتفاخره بأصله وانخرط بذلك في هموم وطنه وبني قومه، مبرزاً دور الإسلام في علاج مشكلات استعصت على الأمة فكان عظيم التأثر بالقرآن الكريم منهاجاً ودستوراً، وكذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام فاستأنس ببطولاتهم، وخلد ذكراهم، في دعوة واضحة لإحياء ذلك في أرواح أبناء الأمة ليتمثلوا بذلك واقعاً ملموساً في حياتهم.

28- دعا العظم للجهاد ورفع لواءه، وامتشق سلاحه، ليهب مدافعاً عن وطنه السليب فلسطين، ولم يقتصر ذلك على الأقوال بل قرنه بالأفعال، فجاهد بالمال، وتعاون مع المجاهدين، ويسر لهم امتلاك السلاح ووفر لهم المال.

29- انتزع العظم لقب شاعر الأقصى، وشاعر المقاومة وهو الذي مارس المقاومة قولاً وفعلاً كما ورد في البحث حيث كان مصدراً من مصادر تمويل المجاهدين من أبناء فلسطين وساعدهم في شراء السلاح.[1]

30- اتسم شعر العظم بإحكام البناء وإجادة المطلع والخاتمة، وحسن الصلة بين عناصر القصيدة، وقد حقق الوحدة في قصائده، وقد حمل شعره صفة الغنائية وما كان قصصياً ولا مسرحياً.

31- يظهر في شعر العظم حرص كبير على احترام اللغة وقواعدها وأصولها، وما كان ذلك إلا من فهم عميق للقرآن وحرص على فهمه وقد حضرت ألفاظه بغزارة في ثنايا قصائده.

---

(1) عاطف عدوان : الشيخ أحمد ياسين حياته وجهاده، ط 1991، ص 114.

32- برزت في شعر العظم عاطفة دافئة ومكنون فكري وحس عربي أصيل مرهف فهو ابن الصحراء التي ألهمته الكثير من سحرها، وحكمة عربية أصيلة ونصوص دينية مما أثرى شعره وأثرى تجربته.

33- تزخر دواوين العظم بالكثير من الصور الشعرية المعبرة عن قدرة فائقة على توصيف الرمز في السياق، ليعطي بعداً جديداً وأفقاً ودلالة تناسب الفكرة والشعور، كما وتعبر عن موقف في ضوء مضمون القصيدة أو فكرتها أو لغتها الشعرية.

34- وقد تميز شعره بشعور رقاق وخيال صافي نقي وفطرة سليمة وأفق واسع ونظرة متفاءلة، مما عكس طابعاً شخصياً يلمسه القارئ في قصائده، فالنهج الذي نهج ميزه من حيث البناء والمعاني والأخيلة فكان واضحاً بسيطاً في جزالة وقوة دون ضعفٍ أو ركاكة، وإحساس جياش دون مواربة أو تزييف.

35- خاض العظم بحور الشعر ببراعة واقتدار فائقتين بأوزانه العروضية على اختلافها، أظهرت تمكنه من العروض الفائق، وكأنها فطرة أو سليقة على لسان شاعر أنجبته صحراء الأردن، فكانت روح الصحراء وسلامة سليقتها حاضرة في إبداعاته فكانت أوزانه تامة أو مجزوءة، فكان من البراعة حيث ضاقت تلك البحور عن إبداعه فانطلق نحو الشعر الحر في بعض قصائده.

36- كان العظم رغم كل مشاغله وكبر أعبائه نعم الأب الحاني الذي لم تنسه الأعباء حق الأبناء والزوج فتدفق شعره حناناً وأبوة غامرين تجاه أبنائه وخصهم بالعديد من أشعاره وكذا زوجه وشريكة حياته التي رافقته طول مسيرة عمره.

37- ظهر فؤاد العظم خاشعاً متبتلاً مناجياً ربه في كثير من الأحايين، مما عكس صورة النفس الأوابة المؤمنة التائبة، تتذلل وترجو رحمة ربه وتخشى عذابه مضفياً عليها مزاجاً خاصاً من الحساسية والرقة التي يتميز بها مما صبغ هذه الأعمال بصبغة إيمانية وبهاء نابع من نفس عامرة بالإيمان مطمئنة بذكر الرحمن.

38- يطغى على تعبير العظم الخطابية والمباشرة، والانفعال العاطفي والنبرة التعليمية الواضحة، ومآل ذلك في تقدير الباحث عمل العظم في مجال التعليم معلماً فهو يؤثر التقررية المشحونة بصدق العواطف والتهابها.

39- كان العظم مستشعراً مخافة الله مستحضراً معيته في ديوانه (قبل الرحيل) الذي أهداه إلى ابنته (أبرار) إذ قدم له بمقدمة دالة تنبئ عن حس مرهف إذ يقول : "وعنوان الديوان كما هو واضح (قبل الرحيل) اختاره شاعر يودع الدنيا، وقد شارف على السبعين أو دون ذلك بقليل، فإن رحلت قبل صدور الديوان، فقد أوصيت الناشر الكريم أن يبدل كلمة واحدة من

اسم الديوان ليصبح (بعد الرحيل)، والله نسأل أن تجيء كل قصيدة أو مقطوعة منه قربي إلى الله يغفر لي بها زلة أو يحط بها خطيئة".

وإنني بدوري أثنّي على دعوة الشاعر الكبير يوسف العظم والله أسأل الرءوف الرحيم، أن ينفع بهذا البحث كثيراً من المسلمين، وأن يتقبله بقبول حسن، وأن يكتب لنا القبول بين الصادقين نحن وجميع السامعين، وأن يثقل به موازيني يوم تثقل أو تخف الموازين، وأسأله أن يجعلنا نعمل قبل ما نقول وأكثر مما نقول، وأن لا يجعل حظنا من الحكمة ونصيبنا من الموعظة الإعجاب بها دون المصير إلى حقها والقيام بواجبها.

هذا والتزم الباحث ضابط الأمانة العلمية، في نسبه الآراء والأقوال إلى أصحابها مكتفياً بذكر أسماء المراجع في حواشي البحث دون تفصيل ما يتعلق بالمؤلف ودار النشر والطبعة وغيرها؛ اكتفاءاً بذكرها في قائمة المصادر والمراجع؛ رغبة في الاختصار.

اللهم وفقنا للإخلاص إليك وتقبل منا، وارض اللهم عنا، فإن لم ترض عنا فاعف عنا وارض اللهم عن والدينا ومعلمينا ومشايخنا ومن له حق علينا ولمن فيك أحبنا ونصح لنا واستجب اللهم دعاءنا إنك السميع العليم، وأنت يا مولانا الموفق إلى كل خير، والميسر لكل أمر والمسهل لكل عسر وأنت المستعان وعليك التكلان، أنت الهادي سواء السبيل وهذا محل الانتهاء وما وصلت إليه بعد كل الجهد والعناء أسأل الله تعالى أن يحظى عملي هذا برضاكم سادتي العلماء والأدباء والشعراء.

التوصيات :

- يأمل الباحث أن تتولى الجامعة العريقة – الجامعة الإسلامية بغزة – عبئ القيام بإدراج شعر شعراء الدعوة الإسلامية إلى منهاج الدراسة فيها لدى كافة مستويات العلوم الإنسانية وهذا أداء يستحق النظر والبحث فأعمالهم في معظمها حبيسة المكتبات والدواوين.
- القيام بتضمين مناهج الدراسة فيها بشعر شعراء الدعوة الإسلامية لدى كافة مستويات الدراسة، وهذا أمرٌ يستحق النظر والاهتمام، فأعمال الشعراء في معظمها حبيسة المكتبات والدواوين.
- إضافة ذلك إلى طلاب العلم في كافة مراحل الدراسة الأسسية والعليا لدى وزارة التربية والتعليم، لا سيما أن المناهج تكاد تخلو – حسب ما يرى الباحث – من أي شعر لهؤلاء الشعراء العظماء.
- إن لم يكن كلا الأمرين فلا بأس أن تطرح الجامعة في أعمالها غير المنهجية كالمؤتمرات أو الورش أو المسابقات الأدبية بعض المسابقات والتي يكون ميدان دراستها أعمال شعراء الدعوة الإسلامية المغيبين عن ساحات العلم والتعليم.
- كذلك توجيه الباحثين إلى ذاك الميدان لدى الأساتذة المشرفين على الدراسات العليا وتضمين المناهج بعض مساقات أدبية عن شعراء الدعوة الإسلامية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1- إبراهيم طوقان : ديوان إبراهيم طوقان ، الطبعة الأولى ، دار الشرق الجديد ، بيروت 1955م .

2- إبراهيم عبد الستار : شعراء فلسطين العربية في ثورتها التقدمية، نادي الإخاء، حيفا د.ت.

3- ابن منظور : لسان العرب، مادة "لزم"، دار صادر، بيروت.

4- إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي، ط3، 1981.

5- أحمد الجدع : الأعمال الكاملة يوسف العظم، دار الضياء، 2003.

6- أحمد الجدع وحسني جرار : شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1984م .

7- أحمد عبد اللطيف الجدع وحسني أدهم جرار : شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج4 ، 1981.

8- الأدب المفرد للبخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم مولاهم الجُعفي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1409هـ-1989م، الطبعة الثالثة.

9- بدوي أحمد طبانة : كوكبة من شعراء العصر ، بتصرف ، ط1، 1925.

10- بسام الساعي : حركة الشعر الحديث من خلال أعلام في سورية، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1978.

11- جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1978 .

12- حسن عبد الله : النتاجات الأدبية الاعتقالية ، طبعة مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، القدس 1994.

13- راشد حسين : الأعمال الشعرية، الطبعة الأولى، مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، 1990.

14- زاهر الجوهر : شعر المعتقلات في فلسطين، الطبعة الأولى، المركز الثقافي الفلسطيني، رام الله 1997.

15- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، الطبعة الأولى ، مكتبة الإيمان ، المنصورة 1999 .

16- صابر عبد الدايم : التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى.
17- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ذكر مصنف بر الوالدين لمن توفي أبواه في حياته، محمد بن حبان بن أحمد التميمي أبو حاتم الدارمي، البستي (ت 354)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار النشر : الرسالة، بيروت، 1414هـ-1993م، الطبعة الثانية.
18- صحيح البخاري مع فتح الباري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم مولاهم الجُعفي (ت226)، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، دون سنة الطباعة أو رقم الطبعة.
19- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القُشيري النيسابوري (ت 261هـ)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، الباب الحلبي، دون سنة الطباعة أو رقم الطبعة.
20- صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1998.
21- صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد ا لأدبي، ط1، مؤسسة مختار للتوزيع والنشر، 1992.
22- طلعت سقيرق : الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1993 .
23- طه وادي : جماليات القصيدة المعاصرة ، دار المعارف ، القاهرة .
24- عادل الأسطة : القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، طبعة نابلس، فلسطين 1993.
25- عارف العارف : غزة نافذة على الجحيم .
26- عاطف عدوان : الشيخ أحمد ياسين حياته وجهاده، ط 1991.
27- عبد البديع عراق : صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ديسمبر 2004.
28- عبد الجليل عبد المهدي : في شعر الحروب الصليبية (492-648هـ) الطبعة الأولى، دار البشير، عمان، 1989م.
29- عبد الخالق محمود عبد الخالق : سيكولوجية الإبداع في الشعر الصوفي ، مؤتمر النقد الأدبي ، جامعة البحرين 1993 .

30- عبد الرحمن محمد الفعور : الإبهام في شعر الحداثة، المجلس الوطني الكويتي، الكويت، 2002.
31- عبد الرحمن ياغي : حياة الأدب الفلسطيني الحديث، الطبعة الأولى، دار الآفاق، بيروت 1981.
32- عبد الرحيم محمود : ديوان عبد الرحيم محمود ، طبعة دار العودة ، بيروت 1987 .
33- عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) : ديوان أبي سلمى ، طبعة دار العودة ، بيروت ، 1989 .
34- عبد اللطيف شرارة : إبراهيم طوقان، بيروت 1964.
35- عبد الله الخباص : شاعر الأقصى يوسف العظم مسيرة حياة، دار الرازي، ط 2006.
36- عبد المنعم خفاجي وسعيدة جودة السحار وعبد العزيز شرف : ديوان أبي الطيب المتنبي، طبعة دار مصر للطباعة (د.ت).
37- عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، الطبعة التاسعة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1985م .
38- عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992.
39- عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1966 .
40- علي أحمد الخطيب : قطوف من ثمار الأدب الإسلامي، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1997 .
41- علي جعفر العلاق : الشعر والتلقي دراسات نقدية .
42- عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة 1987.
43- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب العامة، لبنان، بيروت، د.ت.
44- كامل السوافيري: الأدب العربي المعاصر في فلسطين، طبعة دار المعارف بمصر 1977.
45- الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1967.
46- مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، معاملة المدنيين وأسرى الحرب العرب ، الوثائق ، ج1، 1968.
47- ماكس أربش : أدب الالتزام، ترجمة عبد الحميد إبراهيم شيحة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1989.

48- مجيد عبد الحميد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت 1984 .
49- محمد أبو صوفة : من أعلام الفكر والأدب في الأردن، عمان، مكتبة الأقصى.
50- محمد الأسعد : مقالة في اللغة الشعرية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998.
51- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، 1973.
52- محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، الطبعة التاسعة ، دار الرسالة ، السعودية 1993 .
53- محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري "استراتيجية التناص" ، ط1 ، الدار البيضاء ، المغرب ، المركز الثقافي العربي ، 1985.
54- محمود الربيعي : قراءة الشعر ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1997.
55- محمود ذهني : تذوق الأدب ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية (د.ت) .
56- المرزوقي : أبو علي أحمد بن محمد ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط1 ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ط1951 .
57- مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس ، بيروت 1983 .
58- منيف موسى : نظرية الشعر عند الشعراء في الأدب العربي الحديث، دراسة مقارنة، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1984.
59- نبيل أبو علي : الأدب العربي بين عصرين ، الطبعة الأولى ، غزة 2008 .
60- نبيل أبو علي : قطوف من الأدب العربي ، طبعة دار المقداد ، غزة 2005 .
61- نبيل أبو علي : نزار قباني .. شاعر المرأة والسياسة ، طبعة مكتبة مدبولي ، القاهرة 1999 .
62- نبيل أبو علي: في نقد الأدب الفلسطيني، الطبعة الأولى، دار المقداد للطباعة، غزة 2001.
63- نبيل خالد أبو علي : عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، ط1.
64- نبيل خالد أبو على في مرآة الثقافة الفلسطينية، ط 2004 .
65- نجيب الكيلاني : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1981 .
66- واصف أبو شباب : شخصية الفلسطيني، طبعة دار العودة، بيروت 1981.
67- وسائل تحقيق جديدة في السجون الإسرائيلية، عطا صالح، اليوم السابع، تموز، يوليو، 1985.